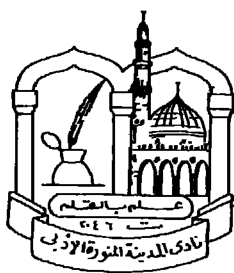


محمد المجذوب

ذكريات لا تنسى

مع المجاهدين والمهاجرين في باكستان

منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي

ذكريات لا تنسى

مع المجاهدين والمهاجرين

في باكستان

اهداءات ١٩٩٤

المملكة العربية

السعودية

الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

لله الحمد من قبل ومن بعد ، وصلى الله وسلم وبارك على رسوله محمد صفوته من خلقه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان

أما بعد فهذا الكتاب الثالث من مشاهداتي التحليلية في بعض أنحاء العالم الإسلامي ، أقدمه إلى القارىء في طبعته الأولى دليلا مؤنسا وصادقا إلى واقع لا يَحسُنُ بالمسلم أن يجهله من حياة اخوة له يؤلفون جانبا هاما من طاقة الأمة التي ينتسب إليها ، وتؤلف مشكلاتهم الخاصة طائفة غير يسيرة من معضلاتها العامة ، التي تزداد كل يوم من التعقيد بمقدار الزيادة في تباعدها عن نطاق الحل الإسلامي الحاسم .

والله المسئول أن يتقبله في الأعمال الصالحات ، ويجعله من الطاعات المرضية يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

والحمد لله رب العالمين أولا وأخراً ..

المدينة المنورة ــ ساحة مسجد قباء .

محمد المجذوب

بين باكستان ولندن

كان من المقرر أن نقضي إجازة الصيف هذه السنة في إندونيسية ، مشاركين في الدورة التي تقيمها رابطة العالم الإسلامي هناك لتدريب الدعاة .. وكنت أحد الخمسة الذين وقع عليهم الاختيار من الجامعة الإسلامية لهذه المهمة ، وتم الإعداد اللازم لذلك ، بما فيه سمة السفارة الإندونيسية ، ولكن .. شاء الله جلت حكمته أن نفاجأ بإلغاء تلك الرحلة في ساعاتها الأخيرة ، ثم جاء قرار فضيلة نائب الرئيس بانتدابنا « الشيخ علي مشرف العمرى والشيخ عبد الله السنيور وكاتب هذه السطور » ، إلى بشاور في باكستان للقيام بواجب التوعية بين المجاهدين والمهاجرين من إخوتنا الأفغانيين . وفى ضحى الأربعاء ٢٩ــ٨ــ١٤٠١ بدأ طيراننا من المدينة إلى جدة ، ومن ثم إلى كراشي .



الكلية الاسلامية بكراتشى

وها هي ذي الترايستار ترتفع بنا إلى الأعالي في قوة وشموخ حتى غيبت الأرض عن أعيننا ، فلم يعد أمامنا سوى الفضاء الذي تتناثر خلاله الغيوم البيضاء كأنها أكداس القطن المندوف ..

لم أستوعب الكثير مما حولي ، لأني كنت في شاغل عن كل شيء بذكرى اللحظات الأخيرة التي ودعت فيها حفيديَّ إياداً وإباء ، اللذين جاء

والدهما ليحملهما إلى جدة ، ثم ليأخذا سبيلهما من هناك إلى لندن .

لا أدرى أي باعث أثار رغبة غسان في إرسالهما وحيدين دون مرشد ولا أنيس إلى ذلك البلد الذي أكره ذكره في أعماقي .. لانى لا أستطيع غسل دماغي من أشباح جرائمه الهائلة في حق أمتى وديني ، منذ أيام ريتشارد ، الذي زحف مع قادة الصليبية على بلادي ، تقودهم الكراهية الحمقاء للإسلام ، الذي أنزله الله رحمة للعالمين ، حتى أيام اللّنبي الذي اعتَبَرَ دخوله القدس أواخر الحربِ العالمية الأولى نهاية تلك الغزوات الوحشية ، فإلى وعد بلفور الذي دق إسفين الجريمة الكبرى في قلب وطنى الإسلامي ، بزرعه الشجرة الملعونة التي واجه بها الإسلامُ مرحلته الراهنة في كفاح لا نهاية له إلا بالقضاء الحاسم على ذلك الجنس الشرير الذي أفسد العالم كله .. وهي المرحلة التي ستكلف الأمة الإسلامية ملايين الضحايا ، والأكداس المكدسة من المآسي الدامية ..

أجل إني لأكره ذكر لندن من أعمق أعماقي ، ليس فقط لهاتيك الكوارث التاريخية التي دمرت بها كيان أمتى في فلسطين ومصر ، والمذابح التي أنزلتها بإخوتى من مسلمي القارة الهندية ، والمؤامرة القذرة التي سحقت بها الخلافة الإسلامية ، التي كانت رحمة الله على المسلمين ، والرمزَ الأعلى لوحدتهم التي ما لبثت أن تمزقت شذر مذر ، عقيب انهيار ذلك الصرح المبارك الذي بدأ بالصِّدِّيق ، وانتهى بمحمد وحيد الدين .. بل لأن ذلك المقر الشيطاني لم يكف شره عن الإسلام حتى هذه اللحظة ، على الرغم من تقلص سلطانه العسكري عن أنحاء العالم ، إذ تحول اليوم إلى مباءة للأوباء التي يغتال بها وعي الشباب المسلم ، عن طريق جامعاته الملغومة ، وملاهيه المسمومة و (بانسيوناته) التي تجتذب أبناءنا بدعوى تمكينهم من اتقان لغته ، فلا يلبث هؤلاء إلا يسيرا حتى يفقدوا كلَّ مقوماتهم الإسلامية في ظلال المغريات التي لا حدود لها .. حتى إذا عادوا إلى ديارهم ألفَوا أنفسهم غرباء عن أقرب الناس إليهم .. وبذلك يبدأ تاريخ جديد في داخل الكيان الإسلامي ، يكون فيه أبناؤه هم منفذي خطط أعدائه .

لقد تصورت هذا كله لحظة وداع حفيديَّ فلم أتمالك دموعي عن

التساقط ، ولم أستطع عمل شيء سوى تزويدهما بنسخة جميلة من القرآن العظيم ، الذي قال عبد الله بن عباس لولده وهو يهديه إليه : « يا بني احرص على هذا الكتاب فإنه شرفُك » . وقلت ساعتئذ لأبيهما : إنك تلقي بهما في مستنقع مشحون بأنواع الحشرات السامة والآفات المفترسة ، فإن سلما من بعضها لم يسلـما من بعضها الآخر .. ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

وما أحسبني بقادر على نسيان تلك اللحظة التي غمرت كلاً منا بالصمت ، حتى تكلم إياد قائلاً بل معزياً : « أرجو أن تثق بنا يا جدي ، فأنا في سن الدراسة الجامعية ، وأملي كبير بأن أكون من الناجحين في الثانوية العامة ، فألتحق بإحدى كليات الهندسة تحقيقا لرغبة والدي ، وإباء لن يلبث إلا قليلاً حتى يعود إليك ... »

أجل .. إن إباءً سيعود إلينا إن شاء الله بعد إجازة الصيف لاستكمال دراسته الإعدادية ثم الثانوية في المدينة .. ولكنْ إياد .. من يضمن لي أن أمتع ناظري برؤيته بعد اليوم .. وأنَّى لشيخ في الرابعة والسبعين أن يؤمل في لقاء حفيده بعد الزمن الجامعي ، الذي قد يمتد إلى ثماني السنوات ! .. ومن يكفل لي إذا قُدِّر لي لقاؤه أن يلقاني بالوجه نفسه الذي فارقني به .. وبالروح نفسها التي عهدتها فيه ، فلا يتنكر لديني ، ولا يسخر باتجاهي ! ..

ولئن تناسيت كل شيء يتعلق بهذا الفراق اللاذع ، كيف لي أن أتناسى مأساة هذين اليتيمين اللذين ضرب القدر بين أبويهما بالانفصال ، فكان نصيبهما أن حرما الاستقرار في الظل الذي لا يعوَّض ، حتى ليجدان نفسهما وأختهما غـرباء في منزل والدهم ، فيتركونه ليعيشا مع جدّيهما العجوزين الحزينين ..

فحسبنا الله وحسبكم أيها الأحبة ، ولن نملك لكم سوى الدعاء الحار أن يكلأكم جميعا ، في لندن واللاذقية بحمايته ، فيجنبكم كل مكروه .. إنه خير مأمول ومسئول ..

فى كراتشى

وكانت الساعة قد قاربت التاسعة عندما شرعت الترانيستار بالانحدار .. وقد بدأ الليل ينشر ظله على الكون ..





وفي مطار كراتشي اتجهنا إلى قسم القادمين من الخارج .. ويا لله ما أتعسه قسماً .. فهو عبارة عن مبنى ضيق تقوم على جوانبه مكاتب الموظفين المدققين في وثائق المسافرين على أضواء خافتة ، وقد اضطر أحدهم لاستعارة قلم من أحدنا لإنجاز المعاملة .. وعلى الرغم من حرارة الجو لم يكن ثمة مكيّف سوى بعض المراوح التي لا تخفف من ضغط الحرارة إلا قليلا .. والأرض مفروشة بألواح اللدائن الممزقة .. وفي قاعة الأمتعة يأخذ الفقر بعداً آخر ، إذ تبدو دوّاراتُها مغطاة بقطع عتيقة لا أدرى ما هي : أمِن اللدائن أم من المطاط .. وحتى المنافذ التي يمر العفش من خلالها قد أرخيت عليها ستور من الخرق البالية ..

وبعد لأي انطلقنا بسيارة أجرة إلى فندق (جيمس) بتوجيه الأخ الشيخ علي العمري ، الذي اعرفه قديما ، ومن دوره السابع أطللنا على كراتشي ، التي تبدو أشبه بالنائمة ، إذ كانت أنوارها قليلة ومبعثرة على مسافات متباعدة ، وحتى لافتاتها التجارية الكبيرة والمنصوبة على جوانب الجادة التي سلكتها السيارة في طريقنا من المطار ، لم تكن أي واحدة منها مضاءة .. وتعذر علينا أن نجد مطعما أو بقالة نأخذ منها ما يسد جوعنا ، مع أن الساعة لم تكن تجاوزت العاشرة بعد ..

أما الفندق فمن الدرجة الوسطى ، وخِدمته دون ذلك .. وكنا في رَهَقٍ

من السفر ، ومع ذلك لم أكد أتذوق طعم النوم إلا غراراً بسبب الخدم ، الذين سرَّهم أن يقضوا بعض سهرهم على مقربة من غرفتي ، فيثقلوا سمعي بلغط طويل ، لم يقصِّره خروجي عليهم بين الحين والحين لأذكرهم عن طريق الإشارة بحاجتي إلى النوم ..

كانت الحجرة واسعة ومكيفة ، ولكن الفقر جاثم عليها ، حتى أرض الحمام قد فرشت بالبلاط الصناعي المتعدد الأشكال ، وقد أحصيت منها خمسة عشر نوعا ، رصفت بغير تنظيم ، بل ببعض الترقيع .

وأطللنا في الصباح على الجهة المقابلة من البلد ، فإذا هو ممتد إلى أقصى الأفق ، ومعظم أبنيته متوسط الارتفاع ، إلا تلك الشواهق القليلة التي يقال أنها فنادق .. ولم أشاهد سوى القليل من المساجد ولعلها كثيرة ، ولكن منائرها القصيرة تحول دون تحديد مواقعها ..

وطلبنا طعاما للإفطار نسكت به الجوع الذي طال أمده ، فلم نجد سوى البيض المقلى بالزيت وبعض الخبز .. ثم لا شيء غيرهما ..

وكانت إذاعة المملكة قد أعلنت أن اليوم الخميس هو مطلع رمضان ، إلا اننا نوينا استعمال الرخصة في اليوم الأول ، إذ كنا سنواصل السفر إلى بشاور بأسرع وقت ممكن ، وفي ذلك من المشاق ما يجعل الإفطار هو المقدم ..

هذا مع العلم أن موعد صيامنا سيتأخر يومين لو أخذنا بتوقيت باكستان ، وذلك هو المألوف في شبه القارة الهندية ، وهو الأمر الذي لم أستطع إساغته قط ، إذ لا يعقل أن يكون فرق المطالع بين المملكة وهذه القارة يومين كاملين ، بل لا يعقل أن يزيد عن الساعتين .. ونِعْمَ ما فعل إخواننا الأفغانيون الذين أخذوا بتوقيت المملكة ، عملا بمذهبهم الحنفي الذي يأخذ بثبوت الهلال في أي بلد إسلامي .. والغريب أن الحنفية هي مذهب القوم في باكستان والهند أيضا ، ومع ذلك لا يعملون بها في موضوع الصوم .. وإنها والله لمشكلة لا يحسن بالمسلمين تركها بغير حل حتى الآن ..

المكتب الفخم

وفي مكتب الخطوط الباكستانية علمنا أن مطار بشاور مغلق ، فلا سبيل إليها إلا بالسيارة عن طريق روال بندي ، أو عن طريق كويته وبعد لأى تمكنا

من الحصول على حجز في الطائرة المتجهة إلى روال بندي ، واستبدلنا بقسيمة السعودية أخرى باكستانية للطيران من إسلام أباد إلى كويته ..

وهنا أرى أن أسجل انطباعاتي عن مكتب الخطوط الباكستانية في كراتشي ، يحدوني إلى ذلك ما شهدته ، في مطارها من مظاهر تعتبر على النقيض مما أراه في هذا المكتب ..

إن كل شيء هنا يحمل طابع الجدة والروعة والتنظيم ، وبخاصة التكييف الذي حُرِم منه ذلك القسم من المطار كل الحرمان .. ولا أذكر أني دخلت مكتبا لخطوط جوية أكثر فخامة من هذا ..

ولقد كان تصوري عن باكستان أنها قطعت شوطا كبيرا في إسباغ الصفة الإسلامية على أوضاعها المختلفة ، وبخاصة ما يتعلق بالنساء ، ولذلك كانت مفاجأة لي رؤية تلك المرأة في فندق (جيمس) حاسرة الرأس ، عارية الذراعين والساقين .. وها أنذا الآن أرى في هذا المكتب العديد من الموظفات لا يختلفن بشيء عن الفرنجيات ، أللهم إلا بالسراويلات التقليدية السابغة ، وكلهن في ما عدا ذلك على شاكلة مستخدمة الفندق . على أن الشيء الذي نسجله للمرأة الباكستانية هو أنها لا تزال ولله الحمد أكثر حشمة في مظهرها من الكثيرات اللاتي جرفهن تيار التغريب في العالم الإسلامي ، وأقلهن أيضا ظهورا في الشوارع ، وفي مكاتب العمل .. وقد لفتَ الأخ الشيخ علي مشرف انتباهي إلى ظاهرة أخرى صالحة ، وهي ان إعلانات السينما لا تتجاوز أبوابها ، وهي خالية من مشاهد الفجور ، التي تُعتبر من أفعل المغريات في اعلانات دور السينما في القاهرة وبيروت وحتى دمشق ..

ولا شك أن في ذلك دليلا على أنه لا يزال للخلق الإسلامي سلطانه النافذ على الشارع الباكستاني ولله الحمد .

وقد استغرقت اجراءات الحجز في مكتب الخطوط قرابة الساعة على خلاف المألوف في البلاد الأخرى ، حيث لا يقتضى ذلك أكثر من بضع دقائق ..وكذلك كان الأمر في مكتب الفندق ، حيث استمر إعمال القلم وقتا غير قصير لاستخراج المستحق علينا نحن الثلاثة عن الليلة الواحدة .. والظاهر أن هذا البطء الأخير كان لترتيب الإضافات التي رفعت مبلغ المئة والثمانين ، وهي الأجرة المعلنة عن كل حجرة ، إلى مئتين وتسعة وستين ..

وذلك ما واجهناه في راول بندى بعد ذلك ، حيث ارتفع رسم الغرفة من الثمانين روبية إلى ٢٦٩ عند التسديد .

ووجدنا لدينا بعض الساعات التي تفصلنا عن موعد الطائرة فقضيناها في استطلاع أحوال الشوارع ، وكانت تلك أيضا فرصة طيبة لمسنا خلالها نشاط الحركة ، وحسن التنظيم ، وبراعة العرض لأصناف السلع الوطنية والمستوردة .

إلى راول بندي :

الخميس ١٤٠١/٩/١ هـ في الساعة ٢'٣٠ كنا في قسم السفر الداخلي من مطار كراتشي ، وهو أحسن حالا من القسم الخارجي ، فهو نظيف ، وقاعة الانتظار جيدة ومكيفة .. ولم يتأخر موعد الاقلاع ، فدلفنا مع الركاب الآخرين الى داخل النفاثة الباكستانية ، التي وجدنا مضيفيها على غاية من التهذيب ، ولم يكن بينهم من انثى ، ولكن علمنا فيما بعد أن الاناث مقصورات على مقصورة الدرجة الأولى .. وكانت الساعة الخامسة عندما هبطنا في مطار راول بندي ، ولم نلبث إلا قليلا حتى أخذنا سبيلنا بسيارة الأجرة إلى فندق (مهاراجا) الذي أرشدنا إليه موظف لطيف على مدخل المطار . ويقع في حي تجاري شعبي ، وهو من النوع الوسط ، وأفضل ما فيه سطحه الأعلى فوق الدور الرابع ، الذي يحتوي المطعم ،وقد زُين مدخله بالأقفاص التي ركبت في النوافذ ، وفيها أصناف الطير والحيوان ، وفي أحدها قرد صغير من النوع المستور ، يستوقف المارة بنشاطه ورغبته البارزة في محاورتهم عن طريق المصافحة وتحريك الشفتين ..

ليلة ماتعة :

ومن أعلى ذلك السطح الفسيح نطل على معظم الأرجاء من راول بندي ، إذ كانت الأبنية التي تفوق ارتفاعه قليلة ومتناثرة هنا وهناك .. وقد نهضتْ خلالها المآذن الكبيرة والصغيرة ، وعلى عشرات الكيلات القليلة من جهة الشمال كانت مصابيح إسلام أباد تتلألأ مع مطالع الليل ، ومن ورائها سلسلة جبال (مَرِي) الممتدة إلى أقصى الأفق .. واستمتعنا بسهرة لطيفة تناولنا خلالها أطباقا شهية من



(البرياني) الأرز المطبوخ باللحم ، مع طبق مشترك من لحوم الدجاج المغمورة بالمرق الذهبي ، الذي لا بد منه على مائدة الهند وباكستان .. ويرافق ذلك كله بضعة أرغفة من ذلك الخبز اللاذّ ، الذي يصنع حال تقديم الطعام سواء في المطاعم أو المنازل .. وكان لنعومة الجو وانخفاض حرارته أثره في مضاعفة تلك المتعة ، التي كنا في مسيس الحاجة اليها عقيب يومين مرهِقين من السفر ..

الصلاة العجلى :

وكنا قد نوينا جمع العشاءين تأخيراً فانحدرنا من السطح الى المكان المعد للصلاة في صدر المطعم ، وانتظم معنا بعض العاملين هناك في العشاء الآخرة ، فما إن انصرفنا من الركعتين حتى انطلقوا لإتمام ما بقي عليهم من الركعات في مثل نقر الدّيَكة .. وعبثا حاولنا تذكيرهم عقيب فراغنا من الصلاة ما يجب على المؤمن من الخشوع والطمأنينة ، إذ كان ذلك دأبهم الذي نشئوا عليه منذ نعومة أظافرهم ، فلا سبيل إلى إقناعهم بتعديله أو تغييره .. وإن أنسَ لا أنسَ عصراً صليناه في أحد المخيمات وراء إمامه ، فاذا هو يجمع بين تسبيحة النهوض من الركوع (سمع الله لمن حمده) وتكبيرة الهُوِيّ إلى السجود ، فلا يدع للمؤتم به مجالا لكلمة يقولها وراءه ! ..

في جبال مري :

وفي الساعة ١١،٣٠ من ضحى الجمعة استأجرنا سيارة صغيرة نزور بها

المنطقة المقصودة من جبال مري ، التي يقال ان من غادر باكستان دون أن يراها عن كثب لم يعرف شيئا من مواطن الجمال في هذه الأرض .. واتفقنا مع السائق على أن يقضي معنا بقية النهار إلى الليل في جولة شاملة لمري واسلام أباد . وراحت السيارة تصعد بنا سفوح الجبل ذي المشاهد المتجددة أبداً ..

لقد استقبلنا المطر بمجرد وصولنا حدود مري ، بدأ رذاذاً ثم جعل ينمو ويطَّرد حتى صار دفقاً كأفواه القرب ..

الطريق محفوف الجانبين بالشجر العملاق من الصنوبر والعَرعَر ، وقد انتشر على أعالي الجبل وبطون الأودية ، حتى أَلَّفَ غابات مستمرة ، وجميعها مما لم تمسه يد إنسان ، فهي نامية على الطبيعة ، على أن بعض السفوح السفلى يبدو عليها أثر التنظيم المقصود .. وقد شهدت فيما مضى الكثير من أشجار الصنوبر في سفوح كَسَب وصَلَنفة — بسورية — ولكني لا أذكر أنها تبلغ مبلغ الصنوبر في هذه السفوح ، ولعلها أقرب شبهاً بصنوبر الأحراج التي غرسها ابراهيم باشا المصري خارج بيروت ، ليدفع عنها زوابع الرمال .

وهكذا جعلنا نتسلق مرتفعات مري الساحرة الشامخة،تتخللها الأودية ، التي تقوم في بطونها وعلى جوانبها منازل القرويين ، وتتخللها مرابط البقر المنثورة في كل اتجاه ، وكلها أو معظمها مسقَّف بالصفيح الجيد ، ويبدو عليها جميعا دلائل النظافة ..

على قمة الأيوبية :

وانتهينا إلى المرتفع السامق الذي يطلقون عليه اسم الأيوبية ، نسبةً إلى الرئيس الأسبق محمد أيوب ، الذي في عهده أنشئت هذه المنطقة السياحية ، وكانت البقعة مشحونة بالسيارات المختلفة الأحجام والأشكال والأسماء ، وقد تُرِكتْ هناك بانتظار أصحابها الذين قصدوا إلى هذه البقعة بمناسبة عطلة الأسبوع ، ولعلهم قد أرادوا أن يختموا عهد الإفطار بهذه النزهة التي لن تتاح لهم بعد غد ، حين يوافيهم شهر الصوم بقيوده وضوابطه الصارمة ..

وكانت هذه البقعة منتهى طريق السيارات ، فلا مندوحة للناس بعدها من استعمال أقدامهم للوصول إلى مركز (اللِّفت) — العابر الهوائي — الذي يحملهم على مقاعده المحكمة إلى أعلى القمة .. واتفقنا مع السائق على أن ينتظرنا

بسيارته هناك حتى نعود إليه .

وفي المكان المعيَّن أدينا الرسوم المقطوعة وانتظرنا دورنا للركوب .. والظاهر أن معظم زائري اليوم من الطلاب ، الذين انتظموا في الصف ، وكلما جاء دور اثنين منهم هتفوا له بكلام لا نفهمه ، ولكن لهجته تنم عن المرح الذي يغمر الطلاب عادة في مثل هذه الرحلات .

ولعل ثيابنا العربية قد استثارت حمية بعض مستخدمي المركز فأكرمونا بتقديم موعدنا دون أن يواجهوا أي اعتراض من المنتظرين .

ولا جرم ان مجرد انطلاق المقعد الطائر براكبه يبعث النشوة في صدره لما يشاهده أثناء تحليقه من ألوان المناظر ..

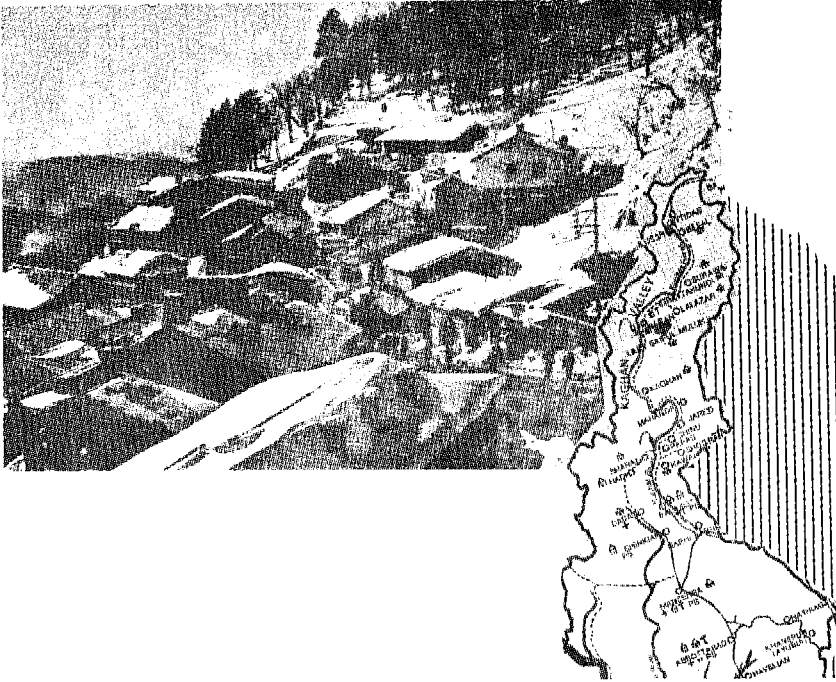
وكنا قد لاحظنا طريقة القوم في نزولهم وركوبهم فلم نخطئها ، وهبطنا في المنبسط الذي ينتهي إليه الخط ، ومن ثم انتشرنا على سطح الهضبة نتطلع منه إلى مختلف الجبال والأودية والأبعاد المحيطة بها .. وفي أحدها جبال كشمير التي تُضرب بجمالها الأمثال .. ويعاني سكانها المسلمون من حكامهم الهندوس ألوان النكال والأهوال ..



مدينة التوحيـد :

ومن أحد أطراف الهضبة أشرفنا على مدينة (توحيد أباد) ذات القصة التي لا يحسن أن يخلو منها حديث عن المجتمع الباكستاني .

تقع هذه المدينة في سفح جبل مري ، ويبلغ سكانها الآن عشرة آلاف ، وكان اسمها (فَرَس) ــ كورا ــ وأطلق عليها اسمها الجديد (توحيد أباد) الشيخ عبد الرزاق محمدين ، وهو الذي أنشأ فيها أول مدرسة لتعليم الإسلام المصفى على أساس من الكتاب والسنة ، وكان له الأثر الأكبر في تثبيت معانيهما ، ليس في طلابه فقط ، بل على مستوى السكان جميعا ، حتى إن الزائر لها لا يجد قبةً تزار ولا قبراً مشرفا ، بل هو الدين الحق كما أنزله الله ، وقد حدثنا الأخ محمد داؤود فهيم ، وهو من خريجي جامعتنا الإسلامية ، أن رجلا من موسري لاهور أو كراتشي اشترى أرضا في ضواحي تلك المدينة ، وباشر فيها إنشاء بناء للسكن واللهو والخمر ، ولكن أهلها لم يمهلوه حتى يتمه ، فإذا هم يهاجمونه ويهدمون ما ارتفع منه ، فلم يجد الرجل مناصا من بيعه بأبخس الأثمان ، ثم لم يُرَ بعد ذلك في تلك البلدة .



المصيف المنسيّ :

وغير بعيد من مهبط العَبَّار الهوائي مقصف مستدير البناء نظيف ذو دورين ، استرحنا فيه بعض الوقت ، حيث تناولنا بعض الشراب بأسعار زهيدة جدا ، بالنسبة للأمكنة السياحية التي هي دونه ، ومن هنا جعلنا ندير البصر المتأني في المشاهد التي لم نستوعبها من قبل .

كل شيء هنا ساحر رائع ، ولعل كثيراً من هذا الجمال عائد إلى كونه لا يزال على الفطرة ، لم تمتد إليه يد إنسان بأي ابداع خـارج نطـاق هذا المقصف الأعلى ، ونظيره الآخر الذي يجثم في أسفل المنحدر بجوار موضع الركوب .. وفي ظني أن مثل هذا الموقع لو توافر في أي بلد غربي لكان حرياً أن تنتشر فيه المصايف المغرية ذات المردود الكبير .. ولا أزال أتذكر قمة (شلوتو) التي عبرنا بها في الطريق إلى تشيامس ومنها ، وما أحسبها أجمع للمتعة من قمة الأيوبية هذه ، لو لقيت من نشاط الباكستانيين ما لقيته تلك من نشاط الإندونيسيين .

وفي الساعة ٥'٣٠ انحدرنا إلى موضع السيارة فلم نعثر لها على أثر ، وراح رفيقنا المترجم عبد الغفار يضرب خلال الغاب بحثاً عنها وعن السائق حتى عثر بها في مكان بعيد ، إلا أنه لم يجد سائقها ، الذي يغلب على الظن أنه توارى لتوفير الوقود ، ولإراحة السيارة ونفسه .. وكان المطر قد بدأ يتدفق بعد هدأة امتدت أكثر من الساعتين .. فلجأنا إلى استراحة قروية ، وأوصينا أصحابها على بعض الطعام .. وأثناء ذلك شرَّف السائق .

كان الغداء يساوي خمسين روبية ولكن دفعنا ثمنه مئة وست عشرة ، ولم أجد ذلك كثيرا ، لأن هؤلاء المساكين قد تكلفوا الكثير لإقامة هذا المرتزق بعيدا عن العمران ، ولأن الزبائن الراغبين في شراء الطعام مثلنا قليلون ، إذ الغالب أن يحمل الوافدون إلى الأيوبية زادهم من حيث جاؤوا .

مسجد الفيصل والجامعة :

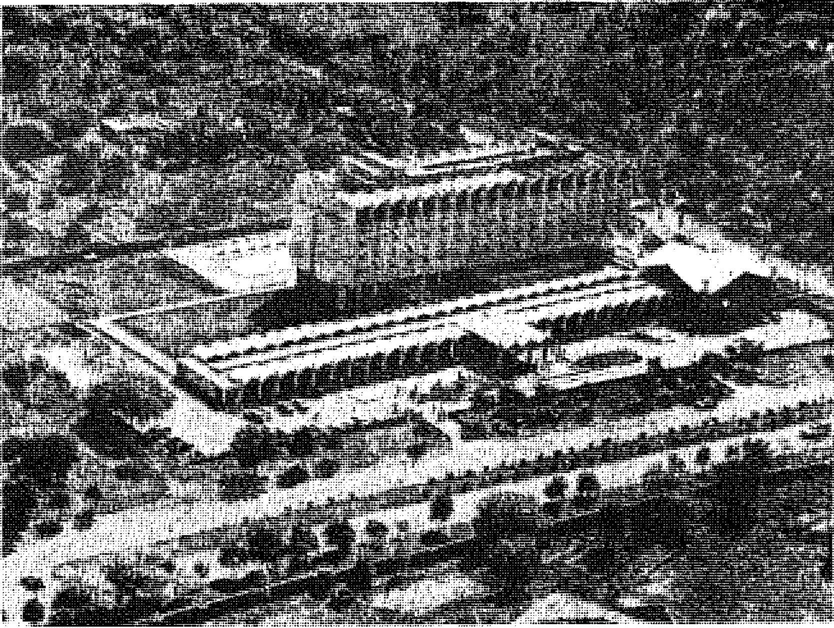
ولم يبق لدينا متسع لاستكمال الجولات المقررة في مصيف مري كله ، فاكتفينا بجزء منها ، ثم مضينا هُوِيًّا باتجاه إسلام أباد ، فبلغناها بُعيد

الغروب ، وبذلك حرمنا رؤية الجانب الأكبر من هذه المدينة ، التي أريد بها أن تكون عاصمة باكستان الحديثة ، واكتفينا بزيارة المشروع العظيم الذي تنهض بتحقيقه أموال الحكومة السعودية ، فشاهدنا الهيكل المدهش لمسجد الفيصل ــ رحمه الله ــ ذلك الذي لم نقرأ عن مثله ولم نشهد ما يشبهه ، لا من حيث الضخامة ولا من حيث التصميم .. وعلى الرغم من كونه لا يزال هيكلا في حالة البناء ، فهو واحد من أعاجيب الهندسة المعمارية ، ترتفع من زواياه الأربع منائر أربع لا نظير لها .. إنها مستطيلات ذات أضلاع ضاربة في الأعالي ، وبينها يقع المسجد ذو المنحنيات الهائلة ، المغنية عن القباب التقليدية ... وإلى جانبه يتصاعد مبنى الجامعة الإسلامية التي ينتظر استكمالها مع المسجد .. إلى أقسام أخرى متممة لهما ، وكل ما هناك من الروافع الجبارة ، وأكداس الحديد والأخشاب ، منبيءٌ بأن العمل قائم على قدم وساق ، وأنه في الطريق إلى التمام ولو بعد سنين إن شاء الله . وأي مستقبل للإسلام والثقافة الإسلامية سينطلق من هذا المشروع العظيم إذا تولت تحريكه الأيدي المتوضئة ! ..

ولم نلبث ان أخذنا سبيلنا إلى فندقنا في راول بندي ، وعلى سطحه الرائق قضينا أطيب سهرة بفضل الله ، وقد ضاعفت من متعتها طلائع رمضان الذي ملأ الشوارع بأضواء الكهرباء ، وبأصوات الائمة القائمين بالتراويح بين يدي الله .

بالسيارة إلى بشاور :

المسافة بين راول بندي وبشاور مئة وستون كم ، ولن تستغرق الرحلة أكثر من ثلاث ساعات بالسيارة ، ولو شئنا استعمال تذاكر الطيران لاستغرقت الرحلة زمنا أطول ، لأن علينا في هذه الحال أن ننتقل بالسيارة إلى المطار ، وهناك انتظار لا يقل عن الساعة ، فإذا انتهينا إلى مطار كوتيه بسلام كان علينا أن نجتاز بقية الرحلة بالسيارة أيضا ، لأن مطار بشاور مغلق هذه الأيام كما علمنا ، وهكذا يغدو ركوب الطريق البري إلى بشاور أقل مشقة ، فآثرناه مكرهين .. وقلت في نفسي : لعل ذلك أنفع لي ، لأنه سيتيح لي من



مجالات النظر ما لا سبيل إليه عن طريق الطائرة .

وكانت الساعة ١٠'٣٠ عندما تحركت بنا الحافلة الصغيرة الضيقة ، التي لم نجد خيرا منها بين وسائل النقل إلى بشاور .. ولكنا حمدنا فضلها إذ قضينا فيها الساعات الثلاث في هدوء لا يعكره غناء المذياع ، الذي قل أن يستريح منه سمع راكب لسيارة في أي بلد عربي ، ولم تشعل خلاله دخينة قط ، وربما كان لرمضان المبارك حكمه الصارم في هذا وذاك ، إذ لم يكن بين ركابها العشرة مفطر غيري .

الطريق مزفَّت ، وخطوط الأشجار شامخة تترنح على جانبيه ، لا صفاً واحدا ، بل صفوف لا تقل عن الخمسة ، وهي الصورة نفسها التي تساير معظم طرق الهند .

والأرض ممتدة إلى أقاصي الأفق ، ولكن مظاهر النشاط الإنساني فيها أقل مما يتوقع ، إلا أن بعض الحقول تمر بنا متموجة الخضرة بين الحين والحين كالواحات في قلب الصحراء .

وفي أواسط الطريق اجتازت بنا السيارة جسرا طويلاً فوق نهر عريض ، وأعلى الجسر جسر آخر خاص بالقطار .. وعلى كتف ذلك النهر الواسع

المتدفق تنهض قلعة دقيقة الصنع ، قريبة المظهر من القلاع التي شهدناها في دلهي وأكرا ، وقد تصدرت أعلى الهضبة المطلة على النهر ، ثم شرعت في التمطي حتى عانقت ضفته ، والظاهر انها لا تزال تقوم بمهمتها كرباط عسكري لمراقبة الطرق ، ولم أدر إن كان يسمح بدخولها للسائحين .. وعلى الرغم من المسافة غير القصيرة التي رافقنا خلالها مسيرة ذلك النهر — واسمه أبا سند — لم نر أي محاولة للاستفادة من مائه في شئون الزراعة ، فلا مضخة ، ولا مزرعة ، ولا مَدْجَنة .. على اننا علمنا فيما بعد أن المناطق التي يمر بها من البنجاب تنعم بقسط كبير من خيراته ، إذ تروى منه الحقول على امتداد جوانبه .. ويزود البلاد بأكبر موارد الكهرباء ويتصل في أخرياته ببحر السند ..

من آثار جلال أكبر :

ومن المعلومات التي حصلنا عليها عن القلعة انها تُدعى (قنطرة أتاك) وهي إحدى منشئات جلال أكبر ، والد شاهجهان وجد الملك الصالح أورنك زيب والحق أنها مع أخواتها تحمل الدلائل القاطعة على قوة ذلك السلطان وبعد نظره وإحاطته بما حوله وما تحت يده من مصادر الأحداث ، فهو يتخذ لكل حال ما يناسبها من التدابير ، ولو وقف بمواهبه عند هذه الشئون لاستحق إعجاب التاريخ الإسلامي واستنفار المسلمين ، ولكنه كغيره ممن أسكرتهم نشوة الحكم ، فمدوا أيديهم الى جداول الوحي يعكرونها بتخرصاتهم ، فخسروا بذلك رضوان الله ، ولم يحمدهم مِن خلقه سوى الملاحدة والمبشرين من زمرة مؤلف (المنجد) الذي يقول عنه : (جلال الدين أكبر ثالث أباطرة الأسرة التيمورية في الهند ، كان جنديا عظيما ، وحاكما راجح العقل وأعجب بالدين المسيحي ، وأكرم وفود البابا) .

نشاط غير مكتمل :

وطالت المسافة التي لم نلمح فيها أثرا للمصانع ، ثم شاء الله فرأينا عدداً منها فيما تبقى من الطريق .. حتى اذا كنا على مقربة من بشاور بدأ نشاط

الزارع الباكستاني يتجلى بأحسن المظاهر في حقول متتابعة ، من الذرة وقصب السكر وغابات الحَور .. وما إليها من أصناف المزروعات .. بَيْدَ أنَّ الحيوان ظل قليل الظهور خلال ذلك . وأعجل لأقول ان قلة الحيوان والدجاج هي الظاهرة المشتركة في جميع المناطق التي حللتها من جنوب شرق آسيا ما بين الفلبين إلى أقصى الباكستان .

وصلنا بأمان الله إلى مدينة بشاور حاضرة الولاية ، وقد سرَّنا أن وجدنا جوها أقل حرا مما وُصِف لنا ، فهي مثل كراتشي وراول بندي ، مقبولة الجو بالنسبة إلينا نحن الوافدين من المدينة المنورة .

على مدخل البلد طالعتنا قلعتها الكبيرة الأنيقة الحصينة ، وقد نُصِبت على شرفاتها المدافع القديمة .. وكأنما نفض العمال والمهندسون والفنيون منها أيديهم أول أمس .. وهذا ما أثار رغبتي في استطلاع أمرها والوقوف على تاريخها ، فاتفقنا مع الأخوين على أن ننتهز بعض الفرص لزيارتها .

المسجد أولا :

وكان علينا أن نهتدي الى النُزُل المناسب ، وهذا يقتضي الإستعانة بمن هو أعلم منا بشئون البلد ، ولهذا رأى الشيخ علي أن نقصد أولا الى مسجد أهل الحديث . وكان بين رفاق الرحلة فتى باكستاني ، لم يلبث أن سمع اسم أهل الحديث حتى أبدى بالاشارة استعداده لإيصالنا إليه . وهكذا أدركنا القوم في مسجدهم وهم على وشك إقامة صلاة الظهر .. ولم يكن ثمة حاجة لمعَرِّفٍ بيننا وبينهم ، فما ان شاهد إمام المسجد أزياءنا العربية حتى أقبل يرحب بنا ، وكأننا من أقرب أصدقائه .. وأدينا معهم الجماعة على غاية من الطمأنينة والمحافظة على السنن التي يمتاز بها أهل الحديث في كل مكان .. وبعد الصلاة حصل التعارف اللازم ، ولقينا من الامام واخوانه كريم الرعاية ، إذ أوفدوا أحدهم للبحث عن الفندق المناسب ، وما لبث الا يسيرا حتى عاد ليذهب بنا وبأمتعتنا الى (جرين أوتيل) .

إلى الفندق الأخضر :

والحق انه جدير بهذا الإسم فهو ذو أدوار ثلاثة ، وقد نظمت حُجُراته ، على تفاوت أحجامها ، أحسن تنظيم ، وترقرقت فيه البرودة الماتعة من

مكيّف مركزي ، ونُضدت في أوسط الدور الأول منه حديقة من أصُص الأزهير الجميلة ، هذا الى خدمة جيدة تحقق النظافة في سائر أجزائه ، تحت إشراف مدير نبيه حازم لا يسمح للخدم بأي تهاون في عملهم . وقد شغلنا منه أول يوم حجرتين كبيرتين ، تتألف كل واحدة من أربعة أقسام ، ردهة للجلوس وأخرى للنوم وهي ذات سريرين ، والثالثة للأمتعة ، والأخيرة لمرافق المياه .. وأجرها عن كل ليلة مئتا روبية فقط خالصا من كل إضافة .. إلا أني آثرت الانفراد بغرفة خاصة ، وتابعني الإخوان في ذلك ، فأُفردتْ لكل منا حجرة أصغر من الأولى ، ولكنها حائزة لأسباب الراحة على أحسن وجه ، ومفروشة بأفضل ما تفرش به فنادق الدرجة الثانية .. بل إني لأفضل حجرتي في هذا الفندق على تلك التي نزلتها ـــ مع الأخ الشيخ عبد الله القادري ـــ من فندق (تاج محل) الشهير في بومباي ، واجرتها تقارب ٣٠٠ ريال ولم نتردد فقررنا أن نقضي مدة إقامتنا في هذا الفندق . وشد ما أسفت لأني آثرت الإفطار هذا اليوم خشية متاعب السفر ، التي لا بد من توقعها في مثل تلك السيارة .. واستسلمنا لنومة طويلة لم نصح منها الا مع المغرب ، وبعد تناول الطعام خرجنا للتمشي في الشارع المقابل ، الذي يطلقون عليه اسم (الصدر) بالمعنى العربي ، لأن فيه أهم المصارف والمتاجر والمكاتب .. وكان شبه خالٍ .. وأثناءئذٍ وقفت سيارة بجوارنا ، وبادرنا سائقها بتحية الإسلام ، وعرَّفنا نفسه فاذا هو طالب فلسطيني يتلقى الدراسة في كلية للطب بجامعة بشاور الباعدة قرابة العشرين ميلا . ودعوناه للاستراحة معنا في الفندق ، وهناك وقفنا منه على حزمة من الأخبار ، التي لا يسعنا الحكم على قيمتها منذ الآن .

أخبار غير سارَّة :

يقول : إن في الجامعة مئة وخمسين عربيا موزعين على مختلف الكليات ، ولكل واحدة مسجد تقام فيه الصلاة .. اما الطلاب فذوو إتجاهات متباينة ، فمنهم الشيوعيون التابعون لموسكو ، والماركسيون الذين لا يتظاهرون باتباع أي جهة ، وأقوى الاتجاهات في الجامعة اثنان : أنصار الجماعة الإسلامية ـــ وهو يسميها الجمعية الإسلامية ـــ ثم أنصار حزب

الشعب الملتزم لتنظيم ذي الفقار علي بوتو ..

ويزعم أن حالة الأمن غير مستقرة ، لأن الضبط الحكومي ضعيف بسبب الهيمنة القبلية ، حتى ان بعض معارك الثأر تحدث في الشوارع أحيانا .. وعن طريق الإرهاب بالسلاح سُلِبَ بعض الطلاب نقودَهم وساعاتهم ، وهو نفسه قد سطا اللصوص على غرفته ، وان ثمة موظفا في المطار فُقِد منذ شهرين دون أن يعثر له على أثر حتى اليوم ! .

ويقول هذا الطالب الذي هو على وشك التخرج في كلية الطب : ان استعمال الحشيش منتشر بين الكثيرين ، وتعتبر المنطقة من مصادر الإنتاج الرئيسية لِهذا المخدّر .

ويختتم هذه الأخبار غير السارة بقوله : إن معظم الأراضي الزراعية والصالحة للبناء هي ملك لحفنة قليلة بيدها كل وسائل الترف ، على حين أن سواد المجتمع من الفقراء ، ومن هنا تأتي كثرة المتسولين في كل مكان .. ولكي يؤكد روايته يذكر أنه كتب وصفةً لأحد المرضى فاعتذر عن أخذها لأنه لا يملك روبيتين لشراء الدواء .

وقد سمعنا بعض هذا من طلاب آخرين ، وواجهنا دعايات أخرى ضد بعض زعماء المجاهدين ، وضد آخرين من ذوي الصلة بتوزيع المعونات ، وفيها تُهم باحتجازهم الكثير من تلك الواردات لأنفسهم .. وطبيعي اننا لا نستطيع الإطمئنان إلى أي من هذه الأخبار ما دمنا (لم ندخل القصر إلا من أمس العصر) كما يقولون .

الميثاق المتفق عليه:

الثلاثاء ٩/٥

في الساعة ٩ دقَّ الشيخ السنيور باب غرفتي ليقول لي : إن لديه مجموعة من علماء الأفغان قدموا للتحدث إلينا في موضوع الاتحاد .

وهناك وجدنا سبعة من المشايخ ، واستمعنا إلى كلامهم بالعربية فإذا هم من أهل الفضل والعلم ، وذكروا أعمالهم فإذا هم ما بين مراقب لتعليم أبناء المجاهدين ، ومسئول عن التوجيه الثقافي بين المجاهدين والمهاجرين .

وعرض المشايخ لموضوع الاتحاد بين المنظمات الاسلامية ، حتى انتهوا إلى القول بأن وفدا من السعودية قدم لهذه الغاية قبل أيام ، وقد أسفرت مساعيه عن اتفاق مفصل بين زعمائها ذيَّلوه بتوقيعهم جميعا ، ولم يبق إلا الإقدام على تنفيذه .

واطلعنا منهم على صور الاتفاق الحاملة لتوقيعات القوم ، وأهم ما فيها إجماعهم على تكوين مجلس للشورى يمثل مجموع الأحزاب العاملة ، ويتألف من مرشحي المنظمات الذين يحرزون القبول من قبل هيئة للتزكية تمثل بدورها تلك المنظمات .. ويكون لذلك المجلس الشورى صلاحية انتخاب القائد الأعلى ، على أن يكون دُولةً فيما بين الزعماء ، يشغله كل منهم لفترة محدودة ..

ومع أن طريقة اختيار القائد على هذا الوجه القلق تعرض الاتفاق نفسه للارتجاج ، أو تحول دون استمراره والانتفاع بمواهبه ، وبخاصة إذا كانت مدته قصيرة كالذي تقرر في ذلك الميثاق . مع ذلك لم نجد مجالا للاعتراض عليه ، وأبدينا استعدادنا للعمل على أساسه ، خشية المزيد من العقبات .. وذلك طبعا بعد استيفاء لقاءاتنا المقررة مع بقية الزعماء .

مع الشيخ محمد يونس :

وعقب انصراف المشايخ مضينا بسيارة أجرة إلى مقر الشيخ محمد يونس خالص ، المنشق عن تنظيم الحزب الإسلامي ، وبعد تجاوزنا حرسه المسلح إلى الدور الثاني البسيط ذي الحجرات الصغيرة ، لقينا الرجل ، فإذا هو في

أوائل الخمسينات ، ذو لحية مهيبة ، وحوله عدد من المعاونين ، وقد تخفف من مسدسه وحزام الرصاص بوضعه إلى جانبه ، وكان الجو حارا لا ملطف له سوى مروحة سقفية ، لعلها تثقّل من ضغط الجو بدلا من تخفيفه .

وبعد كلمات المجاملة التقليدية أخذنا بأطراف الموضوع الأساسي ، وركزت على إبراز مخاطر الفرقة ومنافع الألفة ، وذكرت الشيخ بأن العالم الإسلامي ، الذي يتجاوب مع القضية بكل جوارحه ، سيصاب ; دمة موجعة إذا رأى إصرار زعمائها على التفرق ، ولم أخف عنه ما قد يترتب على ذلك من توقف نصرته ريثما تقوم الوحدة المنشودة .. وضربت لذلك مثلا بما سمعته من بعض المشايخ الأفغانيين عن ذلك المحسن الكويتي ، الذي رفض أن يقدم أي مساعدة ، لأنه لا يعرف إلى من يجبُ أن يدفع ...

وجاء دور الشيخ خالص فإذا هو يتدفق علما وحكما وبيانا ، وخلاصة كلامه أن الوحدة أمر لا بد منه ، على أن يسبقها توقف للقتال بين أتباع المنظمات في ساحات القتال .

وكانت مفاجأة لم نتوقعها قط .. أن يكون بين المجاهدين قتال .. وهو آخر ما يتصور .. إذ المفروض أن الخلاف قد يشغل مكاتب المنظمات في بشاور مثلا ، أما أولئك الذين يواجهون قذائف العدو بصدورهم فلا بد أن يكونوا على أتم التعاون على عدوهم ، لأنهم النماذج العملية لنسيان الذات ..

أجل .. ان الأمر لأخطر من أن يصدق ..

ولكن الحديث عن ذلك التشاحن الغريب قد تكرر وكثر رواته ، حتى أصبحنا غير قادرين على الشك في صحته .. بل إن ما ذكر لنا عن أرقام القتلى في تلك المعارك الجانبية لأهول من أن نثبته أو ننفيه أو حتى أن نشير إليه في مثل هذه الحلقات ..

وختم الشيخ خالص حديثه بإعلان قبوله لكل ما نتوصل إليه لتحقيق الوحدة وإزالة أسباب الفرقة ، ولو أدى ذلك إلى الحكم باعتزاله ..

إلى الأستاذ السياف :

ومن عند الشيخ خالص أخذنا سبيلنا إلى مقر الشيخ عبد رب الرسول السياف .. وبعد مسيرة غير قصيرة وقفت بنا السيارة أمام دارة أنيقة ذات

دورين ، وفناء منظم يضم عددا من السيارات ..

وتقدمنا الدليل إلى الدور الأعلى ، وفي قاعة الاستقبال وجدنا عددا من الرجال ، عرفنا واحدا منهم تخرج في جامعتنا قبل عدة سنوات فأنسنا به ، وهو الذي عرفنا بالأستاذ السياف ، فإذا هو أحدث الحضور سناً ، أبيص البشرة ، مديد القامة ، وسيم المحيًّا ، وذو لحية سوداء معفاة لم يأخذ منها شيئا .

وحانت الفرصة المناسبة فعرضنا لما نحن بصدده ، وهو يصغي بدقة وعمق .. ثم جعل يتحدث فنطل من خلال حديثه على أشياء لم نقع عليها من قبل .. ولا عجب فالأستاذ السياف من ذوي السابقة ، فهو من الرعيل الأول في الحركة الإسلامية ، وقد عانى الأمرَّين من سجون ظاهر شاه ومحمد داؤود ، وكان إلى فترة قصيرة رئيسا لاتحاد المنظمات ، وهو الذي عرض قضية بلاده بنجاح رائع في مؤتمر القمة الإسلامي بالطائف عام ١٤٠١ هـ وقبل ذلك كان أستاذا في جامعة كابول .. ويلاحظ من حديثه أنه إحدى الجهات الرئيسية التي تتلقى المعونات الإسلامية ، ليقوم بتوزيعها على مستحقيها بالعدل ..

وكانت الركيزة الرئيسية في حديثه توكيده الحاسم على أن الاتحاد المعقول لن يتجاوز الأحزاب الإسلامية ، ويُستبعد منها حزبان يقول ان فيهما المشبوهين والعملاء ، والرافضين للإتجاه الإسلامي ..

وذهب إلى أبعد من ذلك فوصف أحد الزعيمين بالخروج على أخلاق الإسلام في تصرفاته الشخصية وهو يريد بذلك جنوحه إلى (التقدمية) حتى الإسراف ..

واذكر أننا قصدنا إلى منزل هذا الزعيم ذات يوم فلم نجده واتفق أن خرج منه بعض النسوة إلى سيارة تنتظرهن على المدخل ، وليس في مظهرهن أي من سمات الإسلام .. وسواء كن من أهل البيت أو كن من الزائرات ، فهو منظر لا يرتاح إليه الأفغاني ، الذي لا يزال من أشد المسلمين محافظة على الطابع الإسلامي فى نفسه وأهله ..

ثم يصف الآخر بأنه من المشهورين بتعاطي بنت الحان ، وأنه ينفق الأموال الطائلة على أسرته في حين يهلك أبناء المهاجرين جوعا وعطشا ..

ويقول ان أولاده يدرسون في لندن ، وبعض أهله يصطاف في إسلام أباد .. وكل ذلك بمال المساعدات المخصصة للمجاهدين .. ويؤكد ذلك بأن مسئولا من الهلال الأحمر السعودي أخبره بأنهم حسبوا مصروفات هذا الزعيم فبلغت عشرة آلاف روبية لكل يوم ..

ولقد تواتر النبأ القائل ان أحد القادة في مجموعة هذا الزعيم قد ضبط من قبل الأمن الباكستاني وهو يتصل لاسلكيا بالسلطات الشيوعية في كابل ..

ويقول الأستاذ السياف أنه سلم إلى كل من ذينك الزعيمين مقادير من الأغطية الواردة من السعودية ثم تبين أنها تباع في الأسواق ، وهو يضطر إلى شرائها للمجاهدين . وكذلك سلم إليهما الأسلحة لتوزيعها على أعوانهما لغرض الجهاد ، فإذا هي تباع لزعماء القبائل الحرة ، فيشتريها منهم للمجاهدين بما يقارب ثلاثة أضعاف ثمنها ..

وأخيرا حصلنا على وعد من الأستاذ السياف بأن يحضر الاجتماع الذي نعد له دون تأخير . ولم ينس أن يؤكد لنا أنه على أتم الاستعداد للسير مع الجماعات الإسلامية بمجرد اعلانهم اتحادهم بغير خلاف ..

مشكلة الشيخ نصر :

ومن عند الأستاذ السياف امتطينا سيارة جيب لتوصلنا إلى مقر الشيخ نصر الله منصور .. ذلك الرجل الذي ذكر لنا بخير كثير ..

والشيخ نصر الله هذا كان إلى يوم قريب نائب الرئيس في « حركة الانقلاب الإسلامي » التي يرأسها الشيخ محمد نبي ، وقد تم انفصاله عنه بالإغارة على مكتب الحركة في غيابه واستيلائه على بعض أسلحتها ..

وقد أحدث انفصال نصر الله عن محمد نبي مشكلة جديدة هزت ميثاق المشايخ ، إذ كان له أعوان في شورى الحركة يقول انهم يزيدون عن النصف ، فضلا عن أن بعض الأحزاب الإسلامية أحرص عليه منهم علي المولوى محمد نبي ، يضاف إلى ذلك أن الشيخ نصر الله وزميله الشيخ إسماعيل الصديقي هما من موقعي الميثاق ..

ومن أجل ذلك سيتشبثون بوجوب مشاركتهما في كل مراحل الاتحاد ..

ولانفصال الشيخ نصر عن صاحبه ظـروف لا يحسن إغفالها ، وخلاصتها حسب استنباطي الخاص شعوره واخوانه بانحياز الشيخ محمد نبي إلى المنظمتين اللتين هما موضع الريبة عند الإسلاميين .. ومن القرائن المؤكدة لذلك سفر كل من زعيميهما ومحمد نبي إلى القاهرة ، واجتماعهم بصاحب (مبادرة السلام) .. وفي ظني أن اجتماعا كهذا لابد أن تكون وراءه أمريكا ، وأن يكون معه اغراءات أمريكية بالمال والسلاح والتأييد ، وطبيعي أن أمريكا وصاحبها لا يوافقان على قيام دولة إسلامية في أفغانستان ، بل لا يرضيان بغير السلطة العلمانية فقط ، أو إعادة الملك ظاهر شاه إلى حكم كابول .. وهذا يعني أن ثمة عملية تخريب يراد إحداثها في جبهات المجاهدين ، من شأنها أن تقضي على كل أمل بوحدة الصف ، والاتفاق على الهدف الواحد الذي يتحرك في نطاقه المجاهدون الإسلاميون ..

وإزاء ذلك لم يجد الشيخ نصر ومؤيدوه مناصاً من القيام بردة فعل داخل (حركة الانقلاب الإسلامي) تضعضع خطة رئيسها والمنتفعين بانحيازه من أعضاء شوراه .

ونحن إنما نقصد إلى الاجتماع بهذا الرجل ثقةً منا برأي الشيخ أحمد جل ، مسئول التعليم في مدارس أبناء المجاهدين في بشاور ، فقد وجدنا في هذا الشيخ من سداد الفكر ، والإحاطة بأحوال القوم ، والرغبة في تأليف القلوب ، ما يجعلنا نقدر نصيحته ، وقد أكد لنا أن في التفاهم مع الشيخ نصر خيرا كثيرا من شأنه أن يضيق نطاق الخلاف ، ويقصر الطريق إلى الهدف المنشود .. ولكن شاء الله أن يؤخر هذه الفرصة ، إذ لم نجد الرجل في مقره ، ولم نعرف متى يعود فننتظره ، فاكتفينا بإعطاء معاونيه عنواننا في الفندق ، ليتصل بنا هاتفيا عندما يشاء ..

سوق السفهاء :

وقصدنا إلى مقر الشيخ محمد نبي في مكتب الحركة فلم نوفق إلى لقائه ، وأبلغنا بعض أعوانه عنواننا كذلك . وكنا قد قررنا زيارة بعض أسواق البلد في أول فرصة من فراغ ، وهاهي ذي فلا يحسن بنا أن نضيعها ، وهكذا

مضينا مع الشيخ شمس نجوب بعض الأسواق العامرة بأصناف المعروضات ، حتى انتهينا إلى أحد أسواق الفاكهة ، التي تشوق الصائم بما تبسطه من ألوانها المغرية .. ووقفنا على دكان عجوز نسأله عن الأسعار فأشار إلى لوح رسمي يحمل اسم كل نوع وثمنه .. وهممنا بأن نأخذ من عنده حاجتنا وفق هذه التعرفة فرفض بإصرار ، ورفع الأسعار إلى ضعفيها ، فانصرفنا إلى حانوتي غيره ، ومد الشيخ شمس يده لاختيار بعض الأنواع فإذا هو يهيج كالثور الغاضب ، ويوجه إليه دفقة من السباب .. ولما التفتنا إلى صاحب الدكان الثالثة نستوضحه عن أسعاره إذا هو مشغول عنا بالهجوم على أحد المساكين ، وفي يده مطرقة يريد أن يهشم بها رأسه ! ..

وكان صوت المؤذن قد بدأ يعلن للناس إقامة الجماعة لصلاة الظهر ، فتركنا السوق شاكرين الله على أن رزقنا السلامة من أولئك السفهاء ، ومن تلك البيئة التي لم نر فيها أحدا تحرك لاستجابة ذلك النداء ...

كانت الساعة ٥,٣٠ عندما جاءني الأخ الشيخ علي مشرف يوقظني فيخبرني أن الشيخ محمد نبي محمد قدم لزيارتنا ، ويحسن أن نستقبله في حجرتي ، فعجلت إلى الوضوء ثم ارتديت ثوبي وخرجت للسلام عليه .. ومن ثم توجهنا إلى الغرفة ، وتخلف حرسه المسلح في بهو الفندق .

والشيخ في أوائل الستينات ، ذو لحية مخضوبة ، ووجه ينم عن وضع نفسي خاص ..وسألته عنْ علمه بالعربية فاذا هو من خيار المتكلمين بها هنا ، ويحمل قدرا لا بأس به من المعارف التقليدية الموروثة في أوساط المشايخ بهذه البلاد .

ودخلت معه في الحديث فذكرته أهمية الأفغان بالنسبة للعالم الإسلامي ، وتطلع المسلمين إلى أخبار مجاهديها ، على اعتبارهم مدافعين عن وجود الإسلام ، ليس في الأفغان فحسب ، بل في عمق البلاد الإسلامية ، وبخاصة منطقة الشرق الأوسط ، مركز الحرمين الشريفين ، ومهوى قلوب مئات الملايين من عالم الإسلام .. وما يقتضي ذلك من رص الصفوف ، وتوحيد الإطار والهدف ، حتى يكون المجاهدون مؤهلين لنصر الله ، الذي أعلن حبه للذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ..

وانتهيت من ذلك إلى التساؤل :

١ ـــ لماذا وقع الانفصال بينه وبين الشيخ نصر الله منصور ؟ .
٢ ـــ ما رأيه في تركيبة الحزبين القوميين اللذين يعارض الإسلاميون قبولهما ؟ .

وشرع الشيخ في الاجابة ووقف مليا على السؤال الأول ، وكان معظم رده منصباً على توجيه التهم الى صاحبه ، وفي مقدمتها حب السيادة ، وعدم التوازن العقلي ، وكثرة التقلب .. وركز بخاصة على اقتحامه مستودع الأسلحة التابع للحركة ، والاستيلاء عليها ، وعلى المال الذي كان في صندوق المخازن . وفي رأيه أنه أقدم على ذلك بالتواطؤ مع مسئول كبير .. وكأنه يريد أن يجعل من هذا الإتهام قضية مسلما بها فقال : ان نصر الله قد دفع للمشرف المذكور مليون روبية وسيارة ثمن تأييده لموقفه ..

وأما تعقيبه على النقطة الثانية فقد جاء تأييدا صارما لكل من رئيسي الحزبين . وراح يسوغ موقفه منهما بالأيمان المغلظة على أنهما من خيرة الناس دينا وتقى ونظافة يد ، ومن أكثر القادة أنصارا في الأفغان ، لأنهما يستحوذان بسلطتهما الصوفية على ثقة السواد الأعظم من الجماهير .

وسألناه رأيه كذلك فيما ينسب اليهما من انحراف ومن إسراف ومن اتصال بامريكا عن طريق الرئيس المصري . فأصر على تزكيتهما وأن هذه التهم من صنع الخصوم .

ولما استطلعنا رأيه في ما يقال من حصولهما على المعونات الأمريكية ، كان جوابه أن صحفيا أمريكيا قد أورد عليه مثل ذلك الإستطلاع فقال له : انه مستعد لقبول العون الأمريكي اذا جاءه من دون قيد أو شرط .

واعترف أن أحد الزعيمين سافر إلى أمريكا ولكنه لا يعلم اذا كان قد تسلم عونا ما ام لا ..

وكان السؤال الأخير : ما رأيك في توحيد الجبهة بمعزل عن ذينك الحزبين إذا استحال الجمع بين المنظمات جميعا ؟ .. فكان محصول كلامه الطويل أنه غير مستعد للانفكاك عنهما أبدا ..

والخلاصة أن حديث الرجل كان مشحونا بالنقمة من بعض القادة ، وبخاصة جلب الدين ، الذي يتهمه بأنه هو الذي حال دون تقارب المسئولين حتى الآن ثم نصر الله الذي يقول بأن من المستحيل عودته الى (حركة

الإنقلاب الإسلامي) بعد موقفه الأخير ..

ولست أرى مسوّغا للإسراع في تحليل موقف الرجل منذ الآن ، وخير من ذلك الانتظار حتى استكمال معلوماتنا عن أطراف القضية .. وأكتفي بملاحظة واحدة هي أن لهجته لم تكن على نحو من الانسجام الذي يتجلى في كلام المطمئنين إلى ما يقولون ، بل ان ثمة اهتزازات محسوسة كانت تستحوذ على أقواله فتبعث على الظن بأنه يتكلم باسلوب السياسي ــ الذي سبق له العمل في مجالس الحكم ــ لا بلسان العالم الاسلامي الذي يحدثك بلغة العقل والقلب ..

وشيعنا الشيخ إلى سيارته التي كانت بانتظاره في فناء الفندق ، ولم نفارقه حتى ركبها مع حرسه المسلح ..

ظواهر مطمئنة :

وبعد استراحة الإفطار خرجنا للتجوال في الشارع الطويل العريض ، وكانت متعة لا تنسى منظر مئات المؤمنين يملئون أحد جانبيه في صفوف منتظمة وهم يؤدون صلاة التراويح في الهواء الطلق ، وراء مقرىءٍ متأنٍ ، لا يطيل القراءة على النحو الذي نحبه في مساجد المملكة وبخاصة الحرمين المباركين ، ولكنه لا يركب الصواريخ التي يمتطيها معظم الأئمة في بلاد المسلمين ، حتى ليكتفون من التلاوة بعد الفاتحة بالفاصلة القرآنية (مدهامتان) أو يجزئون الآية القصيرة على عدة ركعات ..

ولعمر الحق ان في مثل هذه الظاهرة لنوعا من الامتياز الكريم ، تحققه باكستان من معالم الشخصية الإسلامية ، فكيف اذا أضيف إليها نظافة الشارع من أي أثر للتظاهر بالإفطار ، حتى السواح الذين يؤخذون بهيبة المناسبة فيمسكون عن الاستجابة لشهواتهم في الطعام والتدخين .. وهو ما لا يعرف له الناس مثيلا في سائر ديار المسلمين خارج نطاق المملكة العربية السعودية ..

ولعل من تداعي الأفكار أن أتذكر الساعة حادثةً ذات صلة بهذا الموضوع جرت في مدينة خالد بن الوليد (رضي الله عنه) قبل ثلث قرن ، وذلك أن

إحدى دوريات الشرطة قد ضبطت عددا من الشباب يعلنون الإفطار في متنزه الميماس ، فاستاقوهم الى السجن حسب الأنظمة المعمول بها يومئذ ، وقُدموا لمحكمة مستعجلةٍ وهناك كُشفت هُوياتهم ، فاذا هم كلهم من أبناء كبار المشايخ !.. على أن الأدعى للأسف من هذا ما سمعته يومئذ من أحد القضاة المدنيين ، وهو يعلن تذمره من صدور قرار المحكمة على أولئك السفهاء باستمرار حبسهم الى ما بعد العيد .. زعما منه أن في هذا الحكم عدوانا على حرية الناس .. وقد نسي القاضي أن هؤلاء الرقعاء قد أهدروا حقهم في الحرية بعدوانهم على مقدسات المجتمع الذي ينتسبون إليه ..

مواقف مريبة :

وضحى الخميس ٩/٧ أبلغنا الشيخ نصر الله منصور أنه سيكون بانتظارنا في مقره ، وقد بعث الينا بسيارة له تحملنا إليه .. فلم نلبث الا يسيرا حتى كنا في الطريق نحوه ، وهناك لقيناه لأول مرة مع ثلة من رجال العلم والفضل والمجاهدين ، وعانقني وهو يقول بعربية سليمة متأنية : يسرني أن ألقاك بعد الذي قرأته من كتاباتك .. ووفق الله فكان حِوار أخويّ طيب شارك فيه الحضور بكلام رصين .. وشد ما أرضانا حديث الرجل الذي لم يَشُبْهُ أي تعبير يند عن جادة العقل والأدب .. وأكد لنا في تصميم صادق أنه متفانٍ في سبيل الوحدة حتى مع الحزبين الآخرين ، على أساس من ميثاق العلماء المذيل بتوقيع الزعماء جميعا ، والذي ينص على استبعاد العناصر المريبة من منظمتيهما ، فاذا أصرا على الاحتفاظ بهم لم يكن بد من الإنصراف عنهما وقصر الإتحاد على بقية المنظمات .

وقد خرجنا من ذلك الحوار بتوكيد ما استقر في نفوسنا من هذا الاتجاه الذي يشير إليه .

وشيء آخر أيضا هو التيقن من صحة استنتاجنا حول خلافه مع صاحبه الشيخ محمد نبوى ، إذ أكد الشيخ نصر أن اجتماعا قد تم بين الشيخ النبوي وزعيمي الحزبين الآخرين بحضور الرئيس المصري في القاهرة .

وهو ، وإن لم يصرح بأن ذلك هو الحافز الذي دفعه إلى الغارة على بعض

محتويات الحركة ، فقد أصبح من الأمور التي لا تخفى على ذي لب ، ولا تحتاج إلى استيضاح .. وقد سبق أن أبدينا تخوفنا من أن يكون وراء هذا الاجتماع ونحوه مؤامرة لتحويل الثورة عن مسارها الإسلامي ، إلى وضع يمكن أمريكا من تسريب أعوانها إلى الحكم من الأبواب الخلفية بمجرد انفراج المحنة ، وبذلك يستبعد الإسلام عن كل السبل المؤدية لقيام دولته المنشودة في أفغانستان .. وما العهد ببعيد عن مصير الثورات الإسلامية في تركية ومصر والجزائر وإندونيسية وباكستان ، والدور الذي لعبه عملاء الشرق والغرب في اختطاف ثمراتها والالتفاف على أبطالها الحقيقيين بل المغفلين .

وأشخاص مريبون :

وهنا تنتصب في مخيّلتي صور رجال ونساء لا أدري كيف أفسر وجودهنّ في فندقنا على تلك الحالة التي لا تبعث على الإطمئنان . إن كثرة هؤلاء من الأفغانيين ، وبعضهم يقيم في الغرفة المجاورة لي ، وقد شغلوا ليلي الماضي بلغو لم ينتهِ حتى الساعة الثانية عشرة ، فاضطررت إلى أن أطرق عليهم بابهم ، لأذكرهم باشارة لطيفة أنهم يحولون بيني وبين النوم ، وإني سأدعو لهم اذا هم خفضوا أصواتهم قليلا .. ولم يستغربوا مطلبي ، بل دعوني للجلوس معهم فاعتذرت بالارهاق ، فأخذوا يترجمون أفكارهم بالاشارات ، وكرر أحدهم مدَّ أصابعه إلى جيبه بشكل أفهمني أنهم يتحدثون عن بعض الزعماء ، وأنهم يتهمونهم باحتجاز أموال المعونات لأنفسهم ..

وفي اليوم التالي قدم إلينا رجل من نزلاء الفندق الأفغانيين ، وعرَّف نفسه إلينا بأنه من الحزب الإسلامي .. ولكن القلادة النسوية في عنقه تؤكد خلاف مُدَّعاه ، ثم جاء الدليل الآخر ، وهو أن ثمة غرفة قريبة من مجلس الفندق تنزلها امرأة أجنبية لم نتحقق من هُويتها ، وقد رئي هذا الأُلْعُبان يتردد عليها على ملأ من الناس .. ثم ما لبث أن جاء بأفغاني آخر متين البنية مثله إلا أن على وجهه لحية شبابية ، ووصف نفسه بأنه من حزب (المحاذ) أحد الحزبين اللذين هما موضع البحث ، ويزعم أنه مقيم في هذا الفندق منذ شهر لمهمة تتعلق بالمجاهدين .. وجعل يتحدث عن ماضيه فيقول انه كان من

آخر أعوان محمد داود ــ صاحب الانقلاب الأول على نسيبه الملك ظاهر شاه ــ وبعد مقتله كان مصيره السجن والتعذيب من قبل (نور تراقي) الذي قتله حفيظ أمين ، الذي قتله بعد ذلك سادة كارمل من الروس وأشياعهم من عبيد موسكو ..

وبديهي أن مثل هذه التمثيليات وهؤلاء الممثلين ، من نساء ورجال ، لا يمكن القطع بشأنهم من النظرة العابرة ، فكيف بادراك ما وراء ذلك من هوياتهم الغامضة ؟ .. ولا سيما اذا ذكرنا أن في الفندق عددا آخر من رجال أجانب ونسوة أجنبيات ، يغلب على الظن أنهم من الجنسية الأمريكية .. فنحن اذن معذورون اذا لم نستطع تحرير أنفسنا من الظن أو التوهم بأن ثمة تحركاتٍ مريبةً على الأقل ..

صياد خائب :

وفي مساء ذلك اليوم قدم لزيارتنا ذلك الطالب الأردني الذي سلم علينا في شارع الصدر استئناسا بهويتنا العربية ، وأخبر أن معه طالبا باكستانياً ورجلا من ذوي العلاقة بحركة الجهاد ، وهما يرغبان في زيارتنا اذا أذِنا لهم بذلك .

وترددنا ملياً قبل الرد ، ثم أذنا على ألا تستغرق الزيارة أكثر من نصف الساعة ، لأنا في مسيس الحاجة إلى النوم بعد التعب والصوم .

واستقبلنا الزائرَين بالترحيب والإكرام ، ولم يتلبث الرجل إلا قليلا .. حتى بدأ الحديث في ما يريد فيترجمه الباكستاني الذي يترجمه بدوره إلى الاردني الذي يبلغنا خلاصته بالعربية .. وراح يصف لنا نشاطه بين المجاهدين ، وأنه يمثل أكثر من ثلاثين منظمة ، وأنه كان من الموسرين فأنفق ثروته على الجهاد .. ولم نكن بحاجة الى كبير ذكاء حتى نعلم أن الرجل من الصيادين الذين يكثرون في مثل هذه الأيام ، فلم نر أن نمدَّ في أحلامه الكاذبة ، واكتفينا بإعلامه أننا لا نحمل مالا ولا مساعدات وإنما نحن دعاة ومرشدون وعاملون للإصلاح فقط ، فاذا كان لديه هذا العدد من المنظمات فليضمَّها إلى أحد الأحزاب الإسلامية ، بدلا من تضخيم أرقامها بزيادة جديدة ..

ولم يعد أمامه متسع للبقاء فآثر الانسحاب بانتظام ، فخرج وهو يلملم شباكه التي لم تكن لتعود عليه بأي مردود ..

صدمة المفاجأة :

في الساعة الخامسة مساء وافانا بعض المسئولين عن مخيمات المهاجرين من علمائهم ، وكنا قد تواعدنا معهم على زيارة بعضها ، فصحبناهم في السيارة التي جاؤوا بها ، وبعد مسيرة لم تقلّ عن الثلاثين كم وصلنا المكان الذي تخيروه ، وهناك واجهنا المخيَّم الذي حرك في صدري الكوامن من الذكريات اللاذعة لأشباه له في مختلف أنحاء العالم : تايلاند والفلبين والصومال والسودان والعديد من بلاد العرب ، التي تناثر فيها جموع الفلسطينيين ، الذين شردتهم مؤامرات أمريكا وأوروبا وروسيا وأعوانهم من حكام العرب والمسلمين .. وغيرهم وغيرهم ممن هم طلائع اللاجئين المتتابعين من أمة الإسلام ، ما دام القابضون على أزمتها من المنسوبين إليه ، لا يعرفون طريقهم الحق الى العزة والنصر .

كان تصوري اننا ذاهبون إلى أحد معسكرات التدريب للمجاهدين ، ففوجئت بمشهد الفقر والبؤس والتشرد ، بدل مشاهدة الرجولة والقوة والحماسة .. وعجزت عن تحمل صدمة المفاجأة فبكيت ..

وتقدمْنا نحو المدرسة الخاصة بأطفال ذلك المخيم ، وهي شطر المسجد الذي دخلناه ، فبدأنا بتحيته ، وانتظرنا حتى أقيمت صلاة العصر ، التي تأخرت الى الساعة السادسة على عادة الأحناف في التأخير .. فصليناها معهم نفلا اذ سبق أن أديناها في الفندق جميعا .. ومما لفت انتباهي أثناءئذٍ امساك معظم الحضور ، وهم التلاميذ ، عن المشاركة في الصلاة ، مع أن جلهم ممن وجبت بحقه .. ولما سألت مسئول التعليم الشيخ أحمد جل عن ذلك اعتذر عنهم بأنهم على غير وضوء ! . وطبيعي انه لم يكن جوابا مقنعا لأن ساعتين مضتا على دخول الوقت كافيتان لاسباغ الوضوء ، ولا سيما ان الماء غير بعيد عنهم .

تصميم على الجهاد :

وعقيب الصلاة قرأ شاب آيات من سورة البقرة ، وفيها قوله تعالى : ﴿ يا

أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة . ان الله مع الصابرين ﴾ الى قوله عز من قائل : ﴿ ولَنبلونَّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ﴾ ثم تلته مجموعة من الصبية أنشدت منظومة في موضوع الجهاد والتصميم على متابعته حتى استعادة الوطن والعودة وإقامة دولة الإسلام .. وها انذا أثبت فيما يلي كلماتها ، كما وافاني بها كاتبها الشيخ محمد أسرار الله حميمي ، لكي يشاركني القارىء في استكشاف ما وراها من عميق المشاعر والأسرار ..

سبيلنـــــا الجهـــــاد   سبيلنـــــا الجهـــــاد
عهدنا مع الله فلا نخلف الميعاد   نقاتل الأعداء نتحمل الشداد
نعلى لواء الحق في سائر البلاد   مقصودنا الوحيد محو الكفر والإلحاد
سبيلنـــــا الجهـــــاد   سبيلنـــــا الجهـــــاد

نرجو النصر في الحياة والأجر في المعاد   ونقول للشهيد هنيئا لك المراد
فعقيدتنا هذه تهدي إلى الرشاد   وشعارنا المتين تشييد الاتحاد
مرامنا الدعوة للخير والسداد   وفي ذلك نضحى بالرأس والفؤاد
سبيلنـــــا الجهـــــاد   سبيلنـــــا الجهـــــاد

ونظرة تأملية إلى هذه الفقرات الإنشائية البدائية ، تجلو للمفكر واقع النفس الأفغانية التي تنهض بعبء الجهاد هذه الأيام ، استجابة لحافز الإيمان الذي يملأ قلوب الجميع ، تصميما على النضال حتى النصر أو الشهادة ..

ثم لايفوتنا أن نقف قليلا على هذه الفقرة المؤثرة (شعارنا المتين تشييد الاتحاد) ففيها صورة بعيدة الغور لملال الطبقة المثقفة في هذه المخيمات من تفرق زعمائهم .. وسيكون لنا تعقيبات أخرى على هذه الظواهر تأتي في موقعها المناسب إن شاء الله ..

علم وعمل وصبر :

وجاء دوري للكلام فألقيت كلمة رعاها الله بلطفه ، وأفرغ عليها القبول بفضله ، وقد ترجمتُ فيها مشاعري بإزاء هذه المشاهدات والكلمات ،

وركزت على مواضع التلاقي بين الآيات المتلوة والواقع الذي فوجئنا برؤيته .. مذكراً بأن المحنة من سنن الله في المؤمنين ، الذين يريدهم ذوي عزيمة ووعي واستعداد دائم للجهاد . ووقفت ملياً على مضمون الإنذار الإلهي بالشدائد التي تعقبها البشرى لعباده المجاهدين الصابرين . وعرضت أثناء ذلك للمحن التي أنذر الله بها مؤمني الصدر الأول قبل حصولها ، ثم جاءتهم في صورتها الرهيبة أيام الفاروق حيث انقطع الغيث ، وقلّ الغذاء حتى أكل المسلمون الرماد ، فصبروا على وعد الله حتى أدركهم بالفرج ، وتتابعت عليهم النعم والانتصارات .. وفي ذلك درس لمسلمي اليوم في محنهم الراهنة ، وعبرة لكل من ألقى السمع وهو شهيد ..

ثم عمدت للكلام عن أسباب النصر في سنن الله ، وفي مقدمتها الالتزام بطاعة الله ورسوله ، وضربت لهم الأمثال من أحداث التاريخ الإسلامي ، ومن ثم عرَّجت على ما رأيت من تهاون التلاميذ بأمر الصلاة وخطر ذلك على نشأتهم ، وذكرتهم بروايات ابن مسعود وإخوانه (رضي الله عنهم) عن جمعهم بين العلم والعمل ، إذ ما قيمة أن يتعلم هؤلاء الأحداثُ في المسجد ، ثم لا يشاركون في الصلاة القائمة على مرأى منهم ومسمع ! ..

وختمت كلمتي أخيرا بأخذ العهد على المعلمين أن ينشئوا تلاميذهم على طاعة الله ورسوله ، وفي رأسها الصلاة في أوقاتها ومع الجماعة .. فرفعوا أصواتهم بالعهد المنشود ، فأشهدت الله عليهم ..

ثم وجهت كلمتي الأخيرة إلى الأحداث ، فأخذت عليهم العهد بألا يتهاونوا في ذلك الواجب وأن يستعدوا للصلاة قبل موعدها ، لكيلا يدخلوا في زمرة الساهين عنها ، المهددين بالويل من الله في قوله المنذر المبين : ﴿ فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون ﴾ .

وكان المترجم لكلمات اليوم الأخ الشيخ شمس الدين ، الذي توقف أكثر من مرة عند بعض المقاطع ليسترد قدرته على الكلام ، بعد أن غلبه البكاء ..

ولما قاربت الساعة غادرنا المسجد إلى بشاور مشيعين بالعناق والدعاء ، ثم لم ننتهِ إلى الفندق إلا لحظة الإفطار تماما .

سنة مهملة :

كان اليوم موعد عطلتنا الإلزامية ، إذ لم يكن ثمة من نضمن لقاءه من بقية الزعماء ، فاسترسلنا في النوم طويلا ، ثم نهضت لبعض أعمالي الخاصة ، فاغتسلت ، وكتبت بعض الرسائل ، وقبيل الصلاة جاء الشيخ علي يدعوني لمرافقته إلى مسجد أهل الحديث الذي سيخطب فيه ، ومضى الشيخ عبدالله مع الشمس ليخطب في مسجده من قرية ..

والصلاة في هذا المسجد مُمْتعة لما يرافقها من الخشوع والاطمئنان ، اللذين قلما تحس لهما وجودا في غير مساجد أهل الحديث من هذه البلاد . وبوسع قارىء هذه الحلقات أن يتبين ذلك من صلاة أكثر الإخوة الباكستانيين ، الذين لا يكادون يقيمون ركوعا ولا سجودا ، وإنما هي مجرد تحركات رياضية يغلب عليها طابع السرعة الخالية من كل ملامح الخشوع ، وتوشك ألا تتسع للتسبيح فضلا عن التلاوة ... ولكن حضورك صلاة الجمعة هنا ، حتى في مساجد أهل الحديث ، يعتبر محنة لا تعرف كيف تتفاداها ..

لقد قاربت الساعة ١٢'٣٠ دون أن يدخل المسجد سوى قلة من الناس لا تكاد تملأ زاوية منه .. وأقبل الإمام الراتب إلى الشيخ علي يطلب إليه أن يبدأ الخطبة ، فاستغربت ذلك وقلت : ألا تنتظرون اجتماع الناس ؟ .. فأجاب الأخ علي : لا حاجة إلى ذلك ، فالناس في الهند وباكستان ألفوا أن يكون حضورهم تباعا على مدى الساعة والساعتين ، وهي المدة التي تستغرقها الخطبة في العادة ! .. وبالفعل لقد بدأ الخطبةَ ولم يبلغ المصلون نصف المسجد الداخلي ، ولكن حبلهم تواصل فرادى وجماعات حتى ملئوا جوانب المسجد والفناء خلال ساعة وربعها ، وهي المدة التي استغرقها خطاب الزميل مع ترجمته إلى لغة القوم ..

وكنت قد نبهته إلى ضرورة تذكير الناس بالسنة التي يخالفونها ، وهي التبكير في الحضور يوم الجمعة ثم قصر الخطبة ، وإنما يتأخرون على ذلك الوجه كضرب من الاحتجاج الصامت على تطويل الخطيب الذي لا يقدّر طاقة النفوس ، فيمضي في الكلام ، ويمضون في التأخير ، حتى يكاد بعضهم

لا يدرك الصلاة ، أو لا يدرك إلا جزءا منها ، وحتى لتضيع موعظته سدى فلا يجد من يستوعبها أو ينتبه إليها ، اللهم إلا شريط التسجيل الذي لم نر له أثرا في أي مسجد ..

خطبة الجمعة مشكلة :

ولطول الخطبة في هذه البلاد أسباب تتصل بمفهوم القوم لحدود البلاغة وماهيتها ، وهي بعيدة كل البعد عن القاعدة الذهبية التي يحفظها كل عربي والقائلة : « خير الكلام ما قل ودل ... » .

وسأحدث القارىء بحصيلة ملاحظاتي في هذا الجانب عندما تحين مناسبتها إن شاء الله .

ومهما يكن من أمر فلا مندوحة عن القول بأن طول الخطبة التقليدي هذا في مساجد المسلمين من شأنه أن يلغي وظيفتها الشرعية ، فالمسلم الذي يعلم مقدما أنه مدعو لقضاء سُدْس يومه لسماع كلام يُنسي أوله آخره — على رأي الجاحظ — لا يجد متعة ذلك الاجتماع الأسبوعي ، الذي فرضه الله على عباده رعاية لمصلحتهم ، وتجديدا لحياتهم ، بل انه لينظر إلى تلك المناسبة على أنها مشكلة لا مندوحة من مواجهتها ، فهو يحتال عليها بحضور بعضها دون كلها .. وهي حقا مشكلة لا حل لها إلا بالعودة إلى الطريق الصحيح الذي حدده رسول الله ﷺ بقوله : « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مَئِنةٌ من فقهه ، فأقصروا الخطبة وأطيلوا الصلاة ... »[1] وبفعله الذي صح عنه أنه « لا يطيل الموعظة يوم الجمعة إنما هن كلمات يسيرات »[2] ومفصلات حتى ليحفظها السامع الحصيف من ألفها إلى يائها دونما مشقة ..

فمتى يعي خطباء المساجد هذه الحقيقة ، فيحققوا مهمتهم الأصيلة في تثقيف العقول حتى تتوهج بنور الله ، وفي علاج القلوب حتى تجد أنسها وأمنها وطمأنينتها في خشية الله .. ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

---

(١) اخرجه مسلم وابو داود ومئنة الشيء علامته

(٢) لمسلم وأصحاب السنن — انظر (جمع الفوائد) ١٨٨٥ و ٨٦

السبت : ٩/١٠

لم تكن الساعة قد جاوزت السادسة والنصف ــ صباحا ــ حين طرق باب غرفتي مرتين ، فاضطررت للنهوض استطلاعا للخبر ، وإذا رجل طوال جميل اللحية والسَّمت وعليه سيما العلم ، فسلم ورددت التحية بأُحسن منها ، ولكني لم أتمالك أن أذكِّره بأن هذا وقت لا يصلح للاستقبال ، ولا سيما في رمضان حيث يحتاج الصائم إلى المزيد من النوم بعد صلاة الفجر ، فاعتذر ومضى ، وشعرت أن ثمة رجلا أو رجالا كانوا معه فانصرفوا جميعا قبل أن أراهم ... ثم علمت بعد ذلك أن بابَيْ الرفيقين قد طُرق عليهما في ذلك الوقت أيضا ، ولكنهما لم يأبها .. فتوجه الطارق إليّ ، وكان ما كان مما أسفت له أشد الأسف . بيد أن عذري في ذلك الرد أن اللغط الذي شغل فضاء غرفتي من هذر المجاورين قد أرهقني وبدد نومي ، ثم لم أكد أغمض عيني عقب صلاة الفجر حتى بدأ هذر البُناة ــ الذي طالما أزعج الشاعر ابن الرومي ــ وقد عودوا نزلاء الفندق أن يبدؤوا عملهم على السطح الأعلى عقيب السحور مباشرة .. ولم يكن ثمة مهرب من بلائهم ، فوطنت نفسي على احتماله ، وبذلك خفَّ أثره عليّ .. حتى إذا أقبل هذا الفاضل يوقظني على ذلك الوجه المفاجىء كانت الأعصاب في ذروة التوتر ، فكان الرد الذي وددت أنه لم يكن . على أن ثمة خاطرة أثارتها هذه المناسبة في نفسي وهي أن إخواننا هنا وفي الهند ــ كما يقول الشيخ علي ، وهو المجرب الذي قضى بينهم عددا من السنين ــ لا يهتمون كثيرا بمراعاة المواضعات الاجتماعية التي تهمنا نحن مثلا ، فمجرد حصول التعارف بينك وبين أحدهم مؤدٍّ بنظره إلى رفع الكلفة ، فله أن يزورك ساعة يشاء من ليل أو نهار ، وقد تدعو واحداً منهم إلى طعام فيلحق به آخرون دون تقدير لظروفك أو استعدادك .. وكلمة (تفضلوا) تعتبر دعوة مسجلة في بطاقة لا جواب لها إلا القبول الفوري .. وعليك بعد ذلك أن تتدارك ما فاتك من هنا وهناك حتى لا تقع تحت طائلة التقصير .. وهذا الواقع الذي واجهناه طوال أيامنا في الفندق دعانا إلى التفكير في استئجار حجرة نخصصها للطوارىء ، ونستعد فيها حتى للفرش الإضافية ! ..

ومسوغـات :

ولقد رأينا لهذه الظاهرة بعض الآثار الغريبة ، ولعلي لا أذيع سراً إذا أشرت إلى ما يعانيه أخونا شمس الدين منها ، ذلك أن منزله المتواضع جدا لا يخلو من عديد النزلاء صباح مساء ، وليس لإقامتهم عنده أيام محدودة ، كحق الضيف في الثلاثة الأيام مثلا ، بل قد يمر على بعضهم الأشهر يشاركون زوجتيه وبقية أسرته في المطعم والمسكن ، حتى أنه اليوم لينوء تحت أعباء ثلاثين ألف روبية ديونا من أجلهم ، ولا سبيل إلى تسديدها من دخله الذي لا يزيد على ستمئة روبية في الشهر .

والحق أن ليس لهذه الظاهرة من تعليل ـــ فيما أرى ـــ سوى البساطة وطيب القلب ، ومما يؤكد ذلك ما لمسناه من كرم القوم وسماحة نفوسهم ، فلقد تتابعت علينا الدعوات الكثيرة خلال وجودنا في بشاور ، وزياراتنا للاهور وفيصل أباد وسواهما ، ولو استجبنا لها جميعا لكنا كل يوم في ضيافة جديدة ..

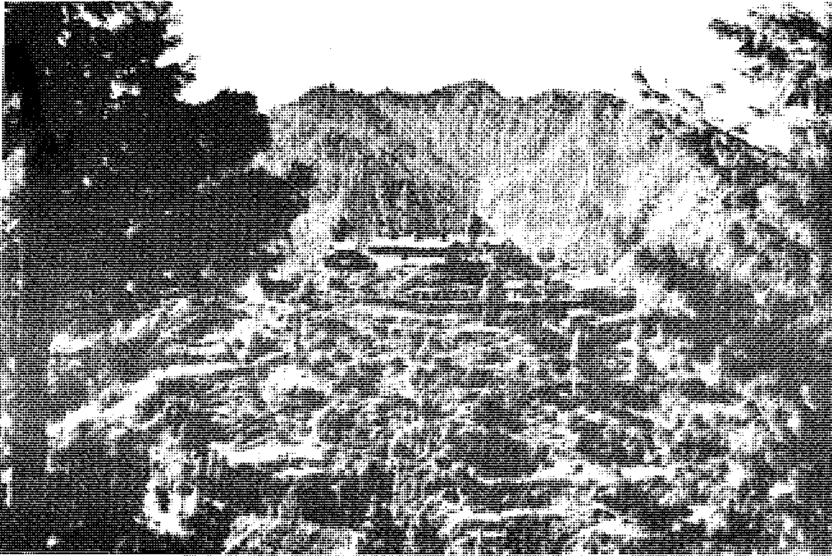
الالتزام بأدب الإسلام :

على أنه لا بد من القول بأن البساطة وطيب القلب لا ينبغي أن تطلق لهما حرية العمل دون رقابة من العقل والضوابط الاجتماعية ، وإلا كانتا كالشجرة التي لا تتاح لها يد المشذِّب ، فتأخذ سبيلها كيفما اتفق ، وفي ذلك جناية عليها وعلى غيرها .. ولا جرم أن خير منظم لمسالك الفطرة هو الإلتزام بأدب الإسلام ، الذي لم يدع وسيلة إلى السعادة الحقة إلا سلحنا بها ، وحسبنا من ذلك الأدب البناء توجيه الحق تبارك اسمه لأصحاب نبيه في سورة (الأحزاب) بوجوب الرعاية لحالة المَزور ، فلا يأتيه الزائر إلا مدعواً ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم ... ﴾ فإذا استوفى الزائر حاجته بعد الإذن كان عليه أن ينصرف راشداً خفيف الظل ، فلا يثقل على داعيه بالاضطجاع أو الاستزادة من الحديث ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ... ﴾ وحتى لا يُظن أن هذا خاص بنبي الله ، جاء توكيد ذلك في

سورة النور ، التي وضعت كل مسلم أمام مسئوليته اليومية في علاقته مع الآخرين ، فهي تنهانا عن الدخول على إخواننا إلا بعد الاستيثاق من إذنهم المشعر برغبتهم في ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها .. ﴾ وعلينا مراعاة حقهم في الراحة والخلوة فلا نلومهم إذا ما اعتذروا عن استقبالنا ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ... ﴾ .

أجل .. إن في التزام المسلم لأدب الإسلام خير ضمان لراحته ولصلاح مجتمعه ، الذي يريد الله أن يؤلف أفراده ﴿ خير أمة أخرجت للناس ... ﴾ ولكن ... هل نحن مستعدون للعودة إلى هذا النظام الرباني السعيد ؟ ! .. ولعمر الله ما أريد بهذا إلا التذكير المفيد .. و ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ ..

ولعمر الحق ان الاهتمام بهذه الجوانب من حياة المسلمين لواجب مُلْحَقٌ بواجب الدعوة إلى تقويم العقيدة ، لأن الإسلام ليس هو أركانه الخمسة أو دعائمه الإيمانية الستة فقط ، بل هو البناء الكامل الذي يتألف من آدابه وفضائله وأركانه جميعا .. وصدق رسول الله القائل : « الإيمان بضع وسبعون شعبة وأفضلها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »[1] .



(١) من حديثين صحيحين روى أحدهما الستة .

في متحف بشاور :

ولم يكن لدينا من عمل قبل الظهر ، بعد أن علمنا أن زعيمي الحزبين الباقيين مسافران إلى اسلام أباد ، فلا مندوحة من انتظار عودتهما ، ولذلك توجهنا إلى متحف الآثار لنستنطق محتوياته ، وفي ذلك فائدة لمثلي تمكِنه من الإلمام بخصائص شعوب المنطقة ، سواء في ماضيها البعيد أو حاضرها القريب ..

وكان الوقت أمامنا قصيرا ، اذ ان دوام المتحف ينتهي في الساعة الثانية عشرة ظهرا ، فلم يتيسر لنا الاطلاع على كل ما فيه ، بل اقتصرنا على دوره الأدنى وحده ، وكل ما فيه من المعروضات أنواع من التماثيل البشرية بعضها يسجل درجة عالية من الاتقان ، وبعضها الآخر لا يعدو أشكالا بدائية من التماثيل الخشبية ، ثم أصناف الأسلحة اليدوية من الخنجر الى البندقية المفردة ، ثم ضروب من النقود قديمها وحديثها ، ونماذج من الأختام ، وأنواع الحلي والملابس ، ثم المخطوطات الرائعة من المصاحف الى الدواوين الشعرية المصورة بأناقة مدهشة .. وبين هذه المخطوطات البالغة الروعة كتاب (الشاهنامة) ـــ سفر الملوك ـــ للشاعر الفارسي المشهور بالفردوسي مزدانا بأبرع الرسوم الموضحة ..

وفي قسم الملابس استوقفنا بعض ثياب الإمام المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد ، الذي فجَّر الثورة الإسلامية الكبرى بوجه الانجليز ، وكاد يحقق حلم المسلمين بإعادة الدولة الإسلامية الكاملة ، لو لم يفاجئه القدر بانفضاض القبائل الأفغانية من حوله ، ثم بانقضاضهم عليه ، حتى لحق بمواكب شهداء الإسلام مع أخلص أعوانه وأكرم إخوانه .. وكان الدافع إلى ذلك خدعة الانجليز الذين تسللوا إلى رؤوس هذه القبائل ، فألقوا في روعهم أن انتصار الإمام سيكون قضاء على مذهبهم الحنفي ، لأن الرجل وهابي ، وكل ما يريده من حروبه مقصور على نشر المذهب الوهابي المخالف لحقائق الإسلام .. وهي الفرية التي لا تزال تعشش في قلوب ورؤوس المضلِلين والمضلَّلين من أعداء الإسلام المصفَّى في كل مكان .. وإن كانوا بحمد الله في طريقهم إلى الانقراض والذوبان ..

مآسٍ لا تنسى :

وحان موعد الزيارة المقررة لأحد مخيمات المهاجرين فامتطينا سيارة العلماء التي حملتنا إليه .. وكان الحفل منظما كسابقه ، فاستقبلنا أهله بالتحية والتكبير ، واتخذنا مجالسنا على المرتبة المعدة ، وبدأ الحفل بآيات من سورة التوبة تذكر السامعين برحلة رسول الله ﷺ وجيشه الكثيف إلى تبوك في كبرى غزواته المباركة ..

وفي أعقاب التلاوة نهض مسئول التدريس في هذا المخيم محمد أسرار الله ، فألقى بلسان عربي مبين كلمة قوية ، استعرض فيها مشاهد من تاريخ القطر الأفغاني مليئةً بالكفاح من أجل الاسلام ، وممتدة من الحقبة التي أضاءها بنوره حتى الأحداث الراهنة ..

وقد مر أثناء عرضه ببعض المواقف من عهد الطاغيتين ظاهر شاه ، ومحمد داؤود ، والمآسي الدامية التي أنزلاها في العلماء لغير ذنب سوى دفاعهم عن دين الله ، وتنديدهم بالشيوعية التي لا غرض لها سوى القضاء على الإيمان والمؤمنين ، وسوق البلاد إلى هاوية الشقاء الذي لا يستوعب مداه إلا الله ..

وضرب مثلا بواحدة من هذه المآسي لا يحسن أن يجهلها المسلمون المهتمون بأمر دينهم ، وخلاصتها أن علماء المسلمين لما أحسوا إقبال ظاهر شاه على الارتماء في أحضان موسكو ، وقد أطلق أيدي أتباعها من ملاحدة الأفغانيين في رقاب المسلمين ، أوجسوا خيفة على دينهم وبلادهم فنصحوا له أول الأمر ، حتى إذا يئسوا منه تداعوا للاجتماع في مسجد (برل خشتي) وهو أول مسجد أنشىء في أرضهم بعد الإسلام ، وكان ذلك منهم نوعا من الاعتصام ، يريدون به أن يثيروا حمية الشعب ، وينذروه بالخطر الداهم ، فما كان من السلطة إلا أن قطعت عنهم الماء كيلا يجدوا ما يتوضئون به فيتفرقوا ، فما كان من الشعب إلا أن وافاهم بالماء في الدلاء ، وهناك عمدت السلطة إلى قطع النور عن المسجد ، فجاءهم الناس بالمصابيح ، فلم يكن من السلطة الغاشمة إذ ذاك إلا المجابهة بوسائل الموت ، فأطلقت عليهم النيران تحصدهم على صعيد المسجد ، الذي فاض

بدمائهم .. وكان حصاد هذه المجزرة ما بين مئتين ومئتين وخمسين من علماء أفغانستان . والذين قدرت لهم النجاة من الموت حُملوا إلى الأرجاء البعيدة ، ولم ينقض ذلك الليل حتى غسل القتلة أرض المسجد من آثار الجريمة ، وكأن شيئا لم يحدث ..

وتابع الخطيب ــ وهو مدرس سابق في كابول أثناء مأساة العلماء ، ومن بين الذين امتحنوا بألوان العذاب مع غيره من المدرسين والطلاب ــ فتحدث عن استمرار المحنة أيام محمد داوود أيضا ، وذكر أمثلة أخرى من البلاء الذي صبه على بقية العلماء والدعاة ، حتى قضى عليه الطاغية الثالث تراكي ومعه أسرته كلها .. ومن تلك الأمثلة ما أصاب الشيخ محمد إبراهيم حميمي على يدي محمد داوود من البلاء الذي دونه الموت ، وقد طُمست أخباره فلا يعرف أحد مصيره حتى الآن ..

زلازل ترد الوعي :

وتوقعت أن أدعى للكلام عقيب هذه الكلمة المؤثرة ، لكن الخطيب بدلا من ذلك أشار إلى كوكبة الأحداث فأقبلت على نشيدها الذي سبق إلقاؤه في المخيم الأول ، وكأنما أريد به أن يكون التتمة اللازمة لحديثه الدامي .. وأي رد أبلغ في هذه الحال من الكلام عن الجهاد ، والدعوة إلى الاستشهاد .. (سبيلنا الجهاد سبيلنا الجهاد) .

وهمس الشيخ أحمد جل في سمعي أن هؤلاء الثلاثة الشاغلين للصف الأول من المنشدين ، هم أبناء الشيخ الحميمي الذي سمعت نبأه الآن .. فكان لهذا التنبيه أثره المضاعف لانفعالي ، وتصورت أنني أشاهد من خلال هذه المآسي الحمراء مصَارع شيوخ المسلمين وهم يحرَّقون أحياء في ساحة مقديشو ، ومئات السجناء الأبرياء يدهمهم القتلة في محبسهم فيستحيلون في لحظات أشلاء تسبح بالدماء ، ومن قبلهم ومن بعدهم مواكب الأتقياء الأخفياء وهم يساقون إلى أعواد المشانق بأوامر السفاحين في مختلف الأرجاء ، ثم عشرات المدرسين والتلاميذ تحصدهم رشاشات العملاء في بيوت الله ، ولا ذنب لهم إلا المدارسة لكتاب الله ..

ولما جاء دوري للكلام رفعت الصمام عن منافذ الشعور الملتهب ،

فبدأت بمعاني الآيات الكريمة وموجبات الجهاد وأهميته في حياة المسلمين ، وكيف أعرضوا عنه فسُلبوا العزة والأمن والوطن .. وعرضت للسامعين صوراً من مآسي المسلمين في الفيليبين وفلسطين والحبشة والصومال والسودان وتايلاند وغيرها ، مبينا بواعثها الخلقية ، ثم نتائجها الإيجابية ، إذ كانت بمثابة زلزال ردَّ إلى المسلمين وعيهم المفقود ، وملأ صدورهم يقينا بأن لا حياة ولا عزة ولا حرية ولا أمن لهم إلا بالجهاد ، فهم الآن مجاهدون في كل مكان ، وإن تفاوتت مظاهر جهادهم بين مختلف الصور والأشكال .. وركزت أخيراً على الواقع الموجع الذي يعيشونه هم في هذه المخيمات ، ثم الجهاد العظيم الذي يخوضه شبابهم وشيوخهم في ساحات القتال لتغيير هذا الواقع ، ولم أكتمهم أن أخوف ما نخافه على قضية الأفغان هو اختلاف القادة أولا ، ثم تلك المحاولات المريبة التي يبذلها بعض من ينتسبون إلى الأفغان لإعادة الطغيان إلى حكم الأفغان .. وذكرتهم بأن لسكان هذه المخيمات دورهم الذي يجب أن يؤدوه في الضغط على القادة حتى يتفقوا ، وفي تفويت الفرص على أعوان الطواغيت حتى يكفوا عن محاولاتهم ويرتدعوا .. وبذلك تقربون إن شاء الله موعد النصر ﴿ وما النصر إلا من عند الله . إن الله عزيز حكيم ... ﴾ .

حوار مع السيد الجيلاني

في الساعة العاشرة طرق الشيخ عليٌّ باب حجرتي ليقول لي أن أناسا ينتظروننا في البهو لمرافقتنا إلى الرجلين اللذين ننتظر عودتهما من إسلام أباد . وهناك تقدمنا النزيل الذي أخبرنا أنه من أعوان الجيلاني ، إلى سيارة المرسيدس الفخمة ، التي أرسلتْ من قبل صاحبه لتحملنا إليه ..

وفي المقر الأميري الكبير ، وفي الفناء الذي يحتوي عدداً من السيارات ، كان رجال كثيرون ، ولعلهم قد حُشِدوا على هذا الوجه لنرى من خلالهم أهمية المكان وسعة النفوذ . ومن خلالهم سلكنا طريقنا إلى حيث أشير لنا ، ثم أدخلنا قاعة كبيرة فيها الأرائك الحمر ، وفيها العديد من الأعوان وتقدم

من بينهم السيد ، سليل الرجل الصالح الشيخ عبد القادر الجيلاني ، ليستقبلنا بالسلام والعناق ، وليجلسني أخيرا إلى جوار مقعده الذي يحتل صدر المجلس ..

وبعد المقدمات المعتادة ، والمجاملات التي لا مفر منها ، تطرقنا إلى الحديث المنتظر .. وقد استغرق دقائق طويلة ، وأعلن خلاله أنه لم يوقع ميثاق العلماء ولكنه مع ذلك موافق عليه كله ، إلا أنه يستدرك عليه نقطتين : الأولى طلبه إدخال بعض ممثلي المجاهدين في مجلس الشورى ـــ الثورة ـــ والثاني الإتفاق على إطار سياسي واضح ..

ووقفنا بعض الحوار حول المعونات ، فهو يرى قبولها من أي جهة ما دامت غير مقيدة ولا مشروطة .. وهي الفكرة نفسها التي سمعناها من حليفه الشيخ محمد نبي فقلت له : ان تقبل العون والجهة المقدمة له من الأمور الخاصة بمجلس القيادة الموحَّد ، فلا تنفرد بالتصرف في ذلك جماعة دون أخرى ، وربما كان من الواجب على المجلس نفسه أن يتلقى ذلك العون لا بصورة مباشرة ، بل عن طريق دولة إسلامية .

وأوضحت فكرتي هذه بأمثلة من إحدى المنظمات الكبرى إذ تعتبر مظلة يجتمع تحتها الشيوعي والصاعقي والمرابطي والأملي و .. والإسلامي وكل من أقسامها مرتبط بجهته الخاصة ، التي تتولى تمويله وتسليحه فلا يستطيع مخالفتها بشيء .. وهو واقع ينطبق على سائر الحركات التحريرية في بلاد الإسلام ، حيث وُضِع كل فريق تحت إبط مُموّله ، فهو يقاتل ويغتال ويعمل كل شيء يرضي ولي نعمته .

وتوكيدا لوجهة نظري ذكرت ما أعرفه من هذا الواقع عن ثورة الفيلبين الإسلامية ، وذلك أني اجتمعت بممثلي المجاهدين فيها وأنصارهم ، وعرضت عليهم ميثاقاً يؤلف بين فريقيهم فأقروه ، وفي المدينة زارني ممثلون عن الفريق الآخر فلما أطلعتهم على مضمونه أقروه كذلك ، ووعدوا بأن يعرضوا أمره على كبيرهم .. إلا أنهم لم يوفقوا إلى إقناعه لأنه مقيد بأفكار مُموّلة لا يستطيع عنها فكاكا .. وقد حدث أن جهة إسلامية عالمية قامت معه بمثل تلك المحاولة ، ودعته عددا من المرات لمواجهتها فلم يستجب ، لأن الحليف الممولِ لم يوافق على حضوره .. وكان عاقبة ذلك ما نراه من

استمرار الخلاف بين الزعامتين ، وبقاء المجاهدين في الفيلبين يقاتلون في جبهتين ..

أما تقييد العون بوساطة الدولة المسلمة فلحماية الثورة من الضغوط الخارجية ، التي من شأنها ألا تُعطي إلا بمقدار ما تأخذ ، وفي هذه الحال لا حرج أن يأتي العون للمجاهدين من أية جهة ولو أجنبية ، لأن تعاملهم قائم مع الدولة المسلمة لا مع أعداء الاسلام ، الذين لا يقدمون الطلقة إلا بثمنها من مصالح الإسلام والمسلمين ..

ولقد حاول السيد أن يسوّغ القبض من الجهات الأخرى بكونه غير مشروطٍ ، وبأن لهم أسوة بالدول الإسلامية التي تتلقى المعونات الخارجية غير المقيدة . فقلت : أنتم الآن ثورة ، فاذا أقمتم الدولة المنشودة فتعاملوا مع أيٍ كان وفق مصلحتكم ..

ولَقِيتْ حجتي سكوتا ولا أقول رضى .. ولا شك أنها كانت صدمة لمحاولي الاتصال بالجهات الأجنبية التماسا للعون .. تلك المحاولات التي وجهت إليهم أصابع الاتهام .. على أن الشيء الذي استمر مصراً عليه ومن حوله هو تمثيل المجاهدين في مجلس الشورى العام ، وهو أمر لا أرى فيه بأسا ، بل هو أحد المرتكزات التي أقمت عليها مقترحاتي لمجاهدي الفيلبين ، ولكن يقال ان قادة المنظمات الأخرى — أو بعضهم — لا يقبلون هذا المطلب ، وسنقف على وجهة نظرهم فيما بعد .

ولم يعد ثمة حاجة للبقاء فانصرفنا من ذلك الاجتماع مودّعين بالدعاء ، وخرج لتشييعنا ولد السيد وزوج ابنته ، وكانا في حلتين من البياض المترف .. وحول عنق الثاني منهما قلادة ذهبية تسترعي الانتباه .. وكان الرجال في الخارج والممر غير قليل ، وبينهم حملة الرشاشات ، وغير بعيد منهم السيارات المختلفة الأنواع .. وفي المرسيدس الضخمة استأنفنا المسير باتجاه المقر المجدِّدِي ، وعلى الطريقة نفسها كان اللقاء .

عند السيد المجددي :

السيارات الخمسة تملأ صدر الفناء ، والرجال على اختلافهم يملأون ردهات البناء الممتاز .. وفي الدور ما فوق الأرضي فُتِح لنا باب المكتب

الخاص ، وتقدم الشيخ صبغة الله يسلم ويعانق ، ومن ثم اتخذ كل مقعده المناسب حوله ..

وبدأ الحوار بالعبارات المألوفة ، ثم تطرقنا إلى الموضوع الرئيسي ، الذي لم يعد خافيا على أي منهم .. وسرعان ما اقتحم الشيخ المعاقل الشخصية ، إذ جعل يوزع التهم على كل من لا يحظى برضاه ، وخص منهم جلب الدين بدفقة كثيفة ، إذ يقول ان رجاله يقاتلون المجاهدين لكي يصرفوهم عن مواجهة العدو .. ويتهم السياف بأنه احتجز الملايين عن المجاهدين ، ولا يزال مصرا على احتجازها ، على الرغم من انفضاض الاتحاد الذي كان يرأسه ..

ثم يصرح بصيغة الجزم أن اتحاداً ثلاثيا تم بينه وبين الجيلاني ومحمد نبي .. فيأتي ذلك منه توكيدا لما لاحظناه في حديث الأخير .. ودليلا جديدا على أن انقلاب نصر الله منصور على صاحبه إنما كان بسبب من هذا التصرف ، الذي يعتبره نصر الله ومؤيدوه خرقا لميثاق العلماء ، وتعميقاً لهوة الخلاف بين المنظمات الإسلامية ..

ثم زاد على ذلك فصرح بأن هناك تنظيما للإطار السياسي يقوم بترتيبه الشيخ محمد يونس خالص ، وقد بدأ بعرضه على حليفه الجيلاني لدراسته .. وأحسبه إنما أراد بذكر الشيخ محمد يونس إشعارنا بأننا تلقاء وضع جديد من شأنه إلغاء كل ما سبق من اتفاق ، أو إلزام الموقعين للميثاق بقبول الحزبين موضوع الاعتراض دون قيد ولا شرط ! ..

بيد أن ناحية هامة قد برزت في ذلك الحوار ، وهي أن الشيخ صبغة الله أكثر مرانة من صاحبه الجيلاني ، إذ انه أظهر استعدادا لقبول الميثاق كله إذا كان ذلك محققا للتوحيد . ولعل ذلك عائد إلى رواسب الماضي لكل من الاثنين ، حيث كان الجيلاني من أخصاء الطاغية ظاهر شاه ، على حين كان المجددي وأسرته كلها موضع نقمته ونكاله ، وقد ذُكر لنا أن لصبغة الله أخاً في لاهور لا يزال يلح عليه بالتزام سبيل الإسلاميين وحدهم ..

وبانتهاء المقابلة رافقنا إلى الدور الأرضي محفوفاً بخاصته ، ولم يدعنا حتى أخذنا أمكنتنا في السيارة، واتفق أن اقترب أحد الناس من الشيخ للسلام عليه ونحن في الطريق إلى السيارة ، فانحنى له وبالغ في الانحناء ، وعلى

طريقة الشيخ شمس في إنكار ما يراه مخالفاً للهدْي النبوي ، نبه الرجل إلى خطأ عمله ، وأن الإسلام لا يجيز هذا الانحناء لغير الله ، بيد أن الرجل رد عليه قائلا : هذا إسلام وهابي لا نقبله ! ..

وهكذا يثبت هذا المسكين أنه لا يزال في المسلمين من يحمل مثل هذه العصبية العمياء ، التي سبق أن دمرت الثورة الإسلامية بقيادة ابن عرفان الشهيد ... ونسأل الله أن يحفظ هذه الثورة الإسلامية الأخرى من أمثال هذا المخبول الذي ألغى عقله واكتفى بتقليد ما وجد المخبولين عليه ..

إلى الشيخ نصر الله :

وحسب الاتفاق وافانا الشيخ أحمد جل في اليوم التالي ، فعرضنا عليه ما وصلنا إليه ، فكان من رأيه أن تكون الخطوة التالية معالجة الخرق الجديد بين الشيخين نصر الله ومحمد نبي ، فإذا استطعنا إعادة المياه إلى مجاريها انتقلنا إلى متابعة المساعي الأولى .. ورأى أن الإتصال بالشيخ محمد يونس يساعد على إصلاح ذات البين . ولم أكن على اقتناع بهذه الخطة ، ولكني اضطررت لقبولها نزولا على رغبة رفيقَيَّ ...

في هذه الأثناء جاء من يؤذننا بوصول الشيخ المجددي لرد زيارتنا ، فأسرعنا لاستقباله ، وفي حجرة الشيخ عبد الله حصل الاجتماع به ، حيث قضينا بعض الوقت في حديث عن الموضوع ، فأبدى الرجل سروره بما أجريناه من الاتصال به وبالجيلاني ، إذ كانت الوفود السابقة ، سواء من السعودية ، أو الجماعة الإسلامية في بشاور ، أو الإخوان المسلمين من الخارج ، تتجنب التلاقي معهما ، ولا يكتفون بذلك حتى يومئوا إلى الإسلاميين بتجنبهما .. ومعنى هذا أن اتصالنا بهما كان نوعا من رد الاعتبار نستحق عليه الشكر الجزيل .

ثم شيعنا الشيخ وعدنا إلى الشيخ أحمد ، ولم نلبث إلا يسيرا حتى مضينا جميعا إلى مكتب الشيخ محمد يونس ، الذي استقبل الفكرة ببالغ السرور ، وأعلن أنه تحت تصرفنا .. ومعه واصلنا الطريق إلى مقر الشيخ نصر الله .. الذي أقر كل ما عملناه ، وأبدى غاية الاستعداد لقبول ما نقرره . وتكلم

الشيخ محمد يونس بأسلوبه الحكيم فسأله إذا كان له من شرط فقال : نعم ، هناك أمور لا بد من حصولها ، أولها تطبيق ما جرى عليه الاتفاق من وقف التعاون مع الحزبين المختلف عليهما ، ريثما ينتهي البحث في موضوع الاتحاد العام ، ثم إلزام الشيخ محمد نبي بتقديم كشوف مفصلة عن أموال الحركة ..

ورد الشيخ محمد يونس بأن هذه أمور سيجرى تداركها من قبل مجلس الشورى ، إذ هو الذي سيتولى تصفية الحسابات كلها ، ثم تأتي البقية بطبيعتها ..

وودعنا الشيخ نصراً شاكرين على ما وجدنا لديه من حسن الاستجابة وكريم التعاون .. وعرجنا في العودة على مصلًى جماعة الشيخ يونس .. وعقيب صلاة الظهر طلبوا إليّ إلقاء كلمة على الحضور ، الذين جلُّهم من أهل العلم والفضل ، وفيهم واحد وصف بأنه قاضٍ سابق في المحكمة العليا بكابول ..

جهاد العلماء :

وأدرت موضوع الكلمة حول الجهاد في الإسلام ، معناه ووسائله وآدابه وغاياته ، وضربت له الأمثال من حياة الرسول ﷺ وصحابته ، ثم عرضت لجهاد العلماء من أمثال صلاح الدين وموسى بن نصير ، اللذين كانا يتدارسان حديث رسول الله ﷺ مع حَفَظَته في قلب المعركة . وذكرت اهتمام السلف بأمر الجهاد ، ومثلت له بالصحابي الذي بلغ من الكبر عتيا وظل مع ذلك يقوم بالتدرب على الرمي خشية نسيانه ، وبالتابعي الجليل الآخر ، الذي كان فاقداً إحدى كريمتيه ، وقد أوغل في الشيخوخة وتهيَّب أن يتخلف عن الجهاد ، ولما نوقش في ذلك ، وذُكِر بعجزه وكبره أجاب : لا أجد لي عذرا بعد قوله تعالى : ﴿ انفروا خفافا وثقالا .. ﴾ فإن لم أستطع الضرب والطعن والكر والفر فلا أقل من أن أحفظ متاع المجاهدين وأقوم بالمستطاع من خدمتهم ..

ولم أنس أن ألح بهذه المناسبة على وحدة الصف حتى لم أدع فرجة للتهرب منها ..

وبذل الشيخ يونس جهده في طلب الشيخ محمد نبي على الهاتف لإتمام ما بدأناه في موضوع الإصلاح بينه وبين زميله الشيخ نصر ، حتى اذا يئس من معرفة مكانه ، اتفقنا على أن يعاود البحث عنه ، ويخبرنا بالموعد المناسب .

والآن ، وبعد الخامسة مساء أيقظني جرس الهاتف الذي بجانبي ، واذا صوت الشيخ يقفني على نتيجة مسعاه ، ويحدد موعد التلاقي مع الشيخ محمد نبي بما بعد تراويح الغد ــ الثلاثاء ــ ان شاء الله .

حملة شعواء :

في الساعة ٣٠ر٩ وافانا ممثلا العلماء ، ثم أعقبهما الشيخ محمد يونس خالص ، ومن الفندق انتقلنا جميعا إلى دار الشيخ المجددي ذات الحديقة الجميلة ، ثم إلى قاعة الاستقبال داخل المنزل ، وهي جميلة ونظيفة ومفروشة أطرافها بالمراتب الاسفنجية البسيطة فوق بساط بسيط ، وكان الجو حارا ولكن مروحتين تلطفانه بعض الشيء :

وافتتح الشيخ خالص المجلس بآيات من كتاب الله وثيقة الصلة بالموضوع ، ثم تلاها بمقدمات من الحكمة والموعظة الحسنة ، إذ قارن بين حالتنا هنا في هذا الجو الملطف الناعم ، وحال المجاهدين الذين يواجهون لفح الهجير ونيران العدو ، وكأنه يعرّض بسلوك بعض الزعماء الذين غفلوا عن واقع أولئك الذين يتحملون العبء الأكبر من مشاق العناء والبلاء ، ثم انتهى من ذلك إلى الأمر الذي اجتمعنا من أجله .. على أن رد الفعل من رب المنزل لم يكن مشجعا ، فقد انطلق بالطعن والقدح في شخص نصر الله ، فكنت أستمع إليه وأنا أتمتم في أعماق نفسي : ليبارك الله نصر الله الذي لم نسمع منه حتى الآن كلمة ذم في أحد قط .

وظل الشيخ صبغة الله مصراً على رفض التفاهم مع نصر الله ، الا أن يعود إلى منظمته عضوا عاديا . وتكلم المشايخ محاولين تخفيف حملته عبثا ، ولم يتزحزح عن موقفه قيد شعرة ..

وإصرار على الرفض :

وهنا قلت : دعونا نُفْضِ بما نعلمه صريحا ودون غمغمة . إن هذه

النعوت التي يقذف بها الرجل لم نسمع مثلها من أحد ، وهذا يعني انها نظرة خاصة ، واذا كان مثل هذا الجرح الصغير يعجزنا علاجه فكيف بالجرح الكبير ! ..

وعاد الشيخ خالص إلى الكلام بأسلوبه الحكيم ، فنبه المجددى إلى الخطر الذي يجره تشدده ، الذي من شأنه أن يُحدث تكتلات أخرى ليست في صالح القضية . وضرب لذلك الأمثال ، ومن ذلك أنه هو نفسه عندما انفصل عن جلب الدين لم يكن معه سوى رجل واحد فقط ، وها هو ذا اليوم يقود منظمة كبيرة لها مكاتبها ومقاتلوها ووزنها .

ثم انتهى إلى أن وضع أمام الشيخ الأمرين التاليين ليختار منهما الأرضى له :

١ ـــ عودة نصر الله إلى مركزه السابق نائبا لرئيس الحركة ، مع عودة الأمور كلها إلى وضعها الأول .

٢ ـــ أو ترشيحه من قبل الشيخ محمد نبي للشورى ضمن العشرة الذين سيقدم أسماءهم .

بيد أن المجددي أصر على ألا يتجاوز العضوية العادية ، ثم أعلن تنصله من كل صلة بالموضوع . فقلت : ولكن المعلوم أن ثمة تكتلاً بين المجددي والنبوي .. وهذا يعني أن لك سلطانا غير منكور على الأخير .. فسكت ولم يحر جوابا .. ولم يعد ثمة ما يقال فخُتم الاجتماع بمثل ما بدأ من الآيات البينات ، على أن يقوم الشيخ خالص بالبحث عن الشيخ محمد نبي وتعيين موعد للقائه .

وعدنا إلى الفندق وفي نفسي غير قليل من الأسف على جهد يضيَّع دون مردود ..

لقد كان قلبي غير مرتاح إلى هذا المسعى منذ الخطوة الأولى ، والآن ازددت يقينا بأن الأولى بنا كان عدم التعرض لموضوع الخلاف بين نصر الله وصاحبه ، والانصراف بكل طاقتنا إلى استكمال محاولة التوحيد العام .. ولكن ذلك كان رأي الشيخ جل والأخوين ، ولم يعد أمامنا مندوحة عن مواصلة السير إلى آخر الشوط .. ولقد أصبحت أخشى أن يكون إخفاقنا في هذا الجانب سببا في تعثر المساعي الأخرى ..

ولا أنسى كلمة ألقى بها الشيخ صبغة الله أثناء الحوار كشفت الستر عن أهم أسباب نقمته من نصر الله ، إذ ذكر أن أخا له قد استشهد ، وجاء الناس على اختلافهم لتعزيته فيه إلا نصر الله .. ونحن لا ندري ملابسات الأمر ، ولكن هذا الجفاء من الشيخ نصر ــ إذا حدث فعلا ــ لا يعدو أن يكون خطأ لا يتلاءم مع ما لمسناه من خلائقه السمحة الرقيقة .

عناصر المعارضة في باكستان :

وكان موعدنا مع الشيخ جل بعد العاشرة من ضحى الثلاثاء التالي ، إلا أن هاتفا منه قد أنبأنا أنه متأخر قليلا . فاتصلنا بالشيخ برهان الدين رباني بغية زيارته فأخبرنا بأنه قادم إلينا بمجرد فراغه من العمل . وفي الساعة ١٢'٣٠ حضر مع أحد العلماء من جماعته ومعه حارساه المسلحان ، كشأن زملائه الذين لا يتحركون إلا على هذه الشاكلة ، ولعل ذلك عائد إلى حذرهم من أعداء الثورة ، الذين لا يستبعد أن يدفعهم الشيوعيون للإيقاع بهم في أي مكان ... وحتى الشيخ خالص ، الذي كان أقلهم مرافقة للحرس ، لم يكن يغفل عن سلاحه الشخصي ، فهو أينما كان مطوق بحزامه المحشو بالطلقات ، ومحتفظ بمسدسه المدلًّى على جانبه دائما . وهذا الحذر هو بعض ما يجب على هؤلاء القادة بإزاء أعدائهم من الشيوعيين الذين لا يكتفون بقتالهم في ساحات الموت ، بل إنهم ينتشرون من حولهم حيثما أقاموا أو تحركوا .

لقد حدثنا الأخ شمس الدين ببعض أنباء هؤلاء العملاء .. فيقول : إن مجموعات من مهاجري الأفغان قد نزلوا في مدرسته « الأثرية » بانتظار تحويلهم إلى المخيم الذي سيهيئه لهم المسئولون ، فكان الشيوعيون في تلك المحلة يتصلون بهؤلاء المهاجرين ليوبخوهم على مفارقة بلادهم ، ويقولون لهم : لقد ضيقتم علينا مجال العيش ، فلماذا تفرون من الحكم الشيوعي وهو سبيلكم إلى الخلاص من الظلم والشقاء ! ..

ولا يستغربنَّ القارىء وجود هذه الطغمة من عملاء اليهودي ماركس في

باكستان وجرأتهم على القيام بمثل هذه الدعاية .. ففي هذا القطر العزيز تجتمع التناقضات العجيبة لتؤلف جمهور المعارضة ، التي قد تختلف على كل شيء ، إلا كره الإسلام ومقاومة كل ما يمتّ إليه بصلة ..

ولعل القارىء يكون أشد استغرابا إذا علم أن مؤمنين من المنسوبين إلى السلفية ، والمواظبين على أداء شعائر الإسلام في هذه البلاد ، يؤلفون قطاعا كبيرا من أنصار بوتو ، ولا يكتمون تعلقهم به وبحزبه علانية وبكل تصميم ! ..

أجل .. من حق هؤلاء القادة أن يكونوا على أتم الحذر من عملاء موسكو فلا يفارقوا أسلحتهم أو حرسهم المسلح .. ولكن .. ألا يحق لنا أن نلقي على أنفسنا هذا السؤال : ولماذا يتكلف الروس أو أذنابهم في كابول ارسال من يحاول اغتيالهم أو اغتيال أحدهم ، وهم يرونهم قائمين بمهمة تدمير أنفسهم بهذا الخلاف الذي يذهب بهيبتهم وقوتهم ؟ ! ..

يبحثون عن مظلة :

ولنعد إلى الأخ الشيخ برهان الدين :

لقد قضينا معه قرابة الساعة نستعرض ما وصلنا إليه خلال اتصالاتنا بزملائه ، وكان التجاوب تاما بيننا وبينه ، على أنه أكد لنا مجددا أن إلحاحه على ضرورة إشراك الجيلاني والمجددي ومعهما النبوي في الاتحاد انما باعثه الخشية من أن يصبحا بؤرة خطر على حركة الجهاد كلها .

فهناك منظمة يسارية شديدة الخطر تعمل تحت اسم (شعلة جاويد) وهي مؤلفة من الماركسيين الماويين ــ التابعين للصين ــ وقد انتشروا في مختلف الجبهات يبحثون عن مظلة ينضمون إليها ، وسبق لهم أن التحقوا بصفوف بعض المنظمات ، ومنها الجمعية الإسلامية ، فلقوا منهم الألاقي ، حتى اضطروا إلى مجابهتهم وتصفية جيوبهم ، وذهبت فلولهم تفتش عن ملاذ آخر .. فإذا حصل الانفصال بين المنظمات الإسلامية وغيرها كان المجال واسعاً لقبولهم في صفوف الحلف الثلاثي الجديد ، فيكون ذلك سببا لعملية تخريب لا حصر لنتائجها ..

ويقول الشيخ برهان إن هؤلاء من نفس النبعة المتمثلة في (مجاهدي خلق) الذين يوشكون أن يدمروا الثورة الإسلامية كلها في إيران .. ولا سبيل إلى تفادي خطرهم إلا بالقضاء على كل ملاذٍ لهم بين المجاهدين .

عبرة من تاريخنا :

وردتني هذه المعلومات إلى ذكرى وقعة الجمل التي ذهبت بآلاف المسلمين ، في تلك المذبحة التي دبرها شياطين ابن السوداء ، إذ رأوا أن أصحاب رسول الله على وشك أن يرجعوا إلى وحدتهم ، فيفوتوا عليهم فرصتهم الوحيدة إلى تغيير المسيرة النبوية ، ولا مردود لذلك سوى انكشاف أمرهم ، ثم القضاء عليهم جزاء ما اقترفوا من اغتيال الخليفة الثالث وبإفساد الحياة الاسلامية ، فما كان منهم إلا أن قاموا بضربتهم الكبرى في ظلمات إحدى الليالي ، فهجموا على معسكر عليّ من جانب ، وعائشة من الجانب الآخر ، فأوقعوا في خَلَد كل من الفريقين أنه ضحية غدرة الجانب الآخر .. وهكذا حقق المجرمون بغيتهم ، ودفعوا المسلمين إلى معركة أغرقت الأرض بدماء الأبرياء .. ولا تزال جراح الأمة الإسلامية تنزف من آثارها حتى اليوم ..

أجل .. إن التاريخ ليوشك أن يعيد نفسه في هذه الوقائع فلا مندوحة والحال هذه من استصحاب هذه المعلومات خلال خطواتنا التالية .. ولقد أمسيت على ثقة من أن عناصر من أولئك الشياطين تعمل عملها في أكثر من منظمة ، وهي التي تثير المشكلات وتخلق العقبات بوجه الاتحاد المراد ، وبخاصة بعد التجارب العديدة التي قام بها قبلنا وفود قدمت من مصر ومن سورية ومن السعودية ومن الكويت ، فلم تحقق أي تقدم نحو الوحدة السليمة ، بل إن هذه الوفود لم تستطع رتق الفتوق الجديدة في صفوف المنظمات القائمة نفسها .. فالمهمة إذن ليست دعوة إلى وليمة أو حضور سهرة سمر ، بل إنها في الحق لجهاد وجهود ، ولن ينفع فيها إلا أن تنهض بها جهة ذات نفوذ وقوة ، تضع الخطة وتفرض تنفيذها ، وفي مقدمتها تتبع هذه العناصر الإبليسية ، واقتلاع مخالبها ، ثم القضاء على مخاطرها بكل الوسائل الممكنة ..

بقايا الطاغوت :

وليس من الحكمة كذلك أن ننسى أو نتناسى تلك العناصر الأخرى ، التي لا تقل خطرا عن (شعلة جاويد) وهي تحتل مكانها بقوة في كلا الحزبين ، وبخاصة حزب المحاذ الجيلاني .. إنها بقايا الطاغوت ، الذي جر على أفغانستان كل محنها ، وقد زودتها التجارب السياسية الماضية بكل الخبرات التي تمكنها من التأثير ، وبات معلوماً بالتواتر أن القاسم المشترك بينهم هو رفض كل تفكير يخالف العصبية القومية المجردة من كل أثر للدين .. وهي نفسها الركيزة التي تجمع بينهم وبين الشيوعيين الدين يعتبرون المساجد رمزاً لما يسمونه الاستعمار العربي ، الذي لا يجوز استمراره بعد اليوم في أفغانستان .

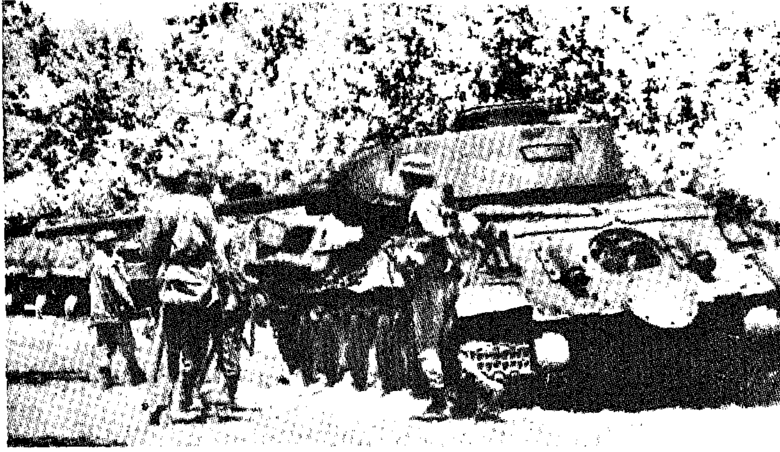
وإذن فلا مفر من الأخذ بعين الاعتبار خطر كل من هؤلاء وأولئك في محاولاتنا القادمة ، ولكن .. ما دام أحد الشروط في ميثاق العلماء هو استبعاد كل من يثبت انحرافه عن الخط الإسلامي ، بوساطة الثلاثين مزكيا الذين سيتولون التمحيص والتدقيق لحياة كل مرشح ، فلن ينفذ منهم إلا النقيّ الذي لا مأخذ عليه ولا غبار إن شاء الله ..

ومع ذلك فلا ينبغي أن تغيب عنا حقيقة كبيرة ، وهي أن هؤلاء المزكين لن يكونوا من الملائكة ، فلكل منهم التزاماته نحو منظمته التي اختارته لهذه المهمة .. والمعصوم من عصمه الله ..

لمن يدفعون ؟

في الساعة ١٠،٤٥ قدم المشرف التعليمي لأبناء المهاجرين الشيخ أحمد جل ومعه زميل له من الشيوخ ، فأخبرانا أن الشيخ محمد يونس يرى أن نحضر إلى منزل المجددي ، وسيوافينا هو إلى هناك عقيب التراويح .. وقد توقعنا أن يكون ذلك الموعد قد تقرر بالاتفاق مع الشيخ الرباني كما وعدنا ، والمنتظر أن يكون اجتماعا موسعا وحاسما .

ومضينا مع الشيخين ، واستقبلنا الشيخ المجددي ، وفي مجلس خاص جعل يشكو متاعبه الكثيرة ، ومنها الأمراض المختلفة ، والضغوط الفادحة



التي تلاحقه في المكتب والبيت .. وذكر أن عشرات لحقوا به إلى هنا يطالبونه بالمال والسلاح والذخيرة والمِيرة .. وليس في يده ما يسد حاجتهم ، لأنه لا يتسلم أي عون ، حتى أصبح مدينا بنصف مليون دولار . وقال : إن المجاهدين يلحون عليه بطلب ما يأكلونه ، وقد اضطر أن يقترض لهم لتدارك حاجتهم زيادة على ما عليه من القروض . وقد جاء الدائنون يقاضونه كذلك ، فأجابهم : « ليس لدي ما أدفعه سوى سيارتي فخذوها ، وأولادي فبيعوهم » فقلنا له : إن هذه الأزمات المحرجة مؤقتة وهي في طريق الانفراج بمجرد حصول الوحدة إن شاء الله .. لأن سبل العون ستنفتح يومئذ وسيدفع المحسنون وهم مطمئنون .

وذكرناه بما سبق على لسانه من أن الكويتيين يتساءلون : لمن يدفعون ؟ .. وقد كثرت الأيدي غير النظيفة ، التي تعمد إلى الابتزاز باسم الجهاد ، فتبعث الشك في قلوب الذين يريدون التبرع .. وقد سماهم الشيخ أحمد جل لصوصا ..

مصلحون ومشاغبون :

وأقبل القوم فوجا إثر فوج ، وكان أولهم محمد نبي ومعه عدد من أعوانه .. وانتقلنا إلى قاعة الاستقبال . وبعد قليل وصل الشيخ محمد يونس ، ولم يبق ما يستدعي تأخير البحث .. فافتتح الشيخ محمد يونس الكلام

بحكمة وإنذار ، إذ أعلن للحضور أن محطة الأعداء في كابل أذاعت اليوم أن قائداً لإحدى منظمات الثوار في بشاور قد انفصل عنه مساعده ، متهما إياه باختلاس ثلاثمئة ألف دولار .. وفسر ذلك بأن أخبارنا تتسرب إلى عدونا فيبني عليها ما يشاء من الدسائس والمفتريات ، فعلينا أن نسد بوجهه باب الاستغلال بإعلان تجمعنا الذي سيكون أكبر تكذيب له .

وجاء دور الشيخ محمد نبي فقدم بكلمة طيبة خلت من أي تعرض لأحد ، إلا أنه كرر ما سبق أن قاله لنا ، وهو أن الأمر كله بيد مجلس الشورى ، وأعضاؤه هم الذين قرروا فصل نصر الله ..

وأشار إلى الحضور من هؤلاء الشوريين فقال : هذا حجة الله .. رئيس شوراه وكبير علمائهم .. وهذا فلان قائد أحد القطاعات ، وذاك حافظ للقرآن ، وهذا عالم .. و ..

وبدأ حجة الله يسترسل في كلام طويل بالأفغانية .. ثم تلاه الذي سمي قائدا ، وهو شاب تبدو على وجهه ملامح الصرامة ، فراح يصول ويجول .. وأعقبه آخر وآخر .. وفهمنا من ذلك كله اصرار القوم على موقف الرفض من الشيخ نصر الله واستصغار شأنه .. ثم عرضوا رغبتهم في أن يؤخروا جوابهم بهذا الصدد ليتداولوا أمرهم بينهم ثم يأتونا بالنتيجة ..

ولمحت من هذه الظواهر أموراً لم أسترح إليها . فما أشك أن الموقف كان مرتبا قبل الاجتماع ، وأن ثمة مصلحة شخصية في استبعاد نصر الله ، لأن وجوده في الحركة معرقل للاتجاه الذي استُجِروا إليه ، وأخيراً أرى في محاولة تأخير الجواب نوعا من التمييع للموضوع ... ولهذا لم ألبث أن عقبت على ذلك كله بهذه الكلمة الصريحة : إن الأمر أيسر من أن يتسع للتأخير ، فالمطلوب واضح وهو إعادة المياه إلى مجاريها كخطوة أولى في سبيل الاتحاد ، الذي يتطلع إليه المسلمون في كل مكان ..

وهنا عاد الفتى الشاكي السلاح إلى جولاته وصراخه المتحمس .. فقلت له مقاطعا : ما جئنا إلى هنا لنقوم بمباريات خطابية .. إننا بحاجة إلى كلمة خير لا إلى فتح سجلات السيئات ، فإن لم يكن لديك شيء من الخير فخير لك أن تدعنا وشأننا الذي جئنا من أجله ..

وهمس الشيخ علي في أذن الشيخ يونس برأي الرباني ، وهو أن يرشح

نصر الله للمجلس الأعلى من قبلهم ، أو عن طريق إحدى المنظمات الأخرى .. فعرض الأمر على الحضور فنال موافقة الجميع ، وبذلك انتهينا من الاجتماع الذي استمر إلى الواحدة بعد منتصف الليل ..

والحق أن الشيخ يونس كان موفقا وصريحا حين أشار إلى عناصر السوء ، التي تريد وضع العصى في العجلات ، فتحول دون تصالح محمد نبي ونصر الله ، لتعطي جهات الرفض حجة جديدة ، لتعطيل الاتحاد ..

وكذلك كان للشيخ جل موقف صالح في الرد على المشاغبين ، إذ بين لهم الخطر الذي يترتب على موقفهم في النهاية ، وهو ليس في مصلحة أحد سوى المُصِرِّين على تعطيل التعاون الذي يفرضه الإسلام .

أحداث ودروس :

وهكذا كان يومنا ـــ الخميس ـــ كثير الأحداث والدروس ، ولعل من أهمها ما سمعناه من الشيخ برهان الدين رباني عن منظمة المجددي ومشاركتها الفعالة في حركة الجهاد ، ومن ذلك ـــ يقول الشيخ برهان ـــ : أن معركة حامية خاضها أعوانه أسفرت عن استشهاد سبعين منهم ، ومصرع تسعمئة من العدو ، وقد أقيم لذلك حفل لاستقبال المعَزين في دار المجددي .

ويذكر الرباني كذلك أن ملحمة خاضها فصيل من إخوانه ، وأقبلت طائرات العدو لمساعدة الشيوعيين ، ولم يكن لدى المجاهدين سلاح مضاد لها ، فاستعانوا بجماعة المجددي فأمدوهم لفورهم بقاذفَين للطائرات ، وبهما أسقطوا أربع نفاثات وواحدة عمودية (هليوكبتر) .

على أن ثمة أنباء مؤسفة قد ألقيت إلينا كذلك ، وخلاصتها أن مجموعة أحد الأحزاب قد استدعت طائفة من مجاهدي الجمعية الإسلامية فجاؤوها مطمئنين ، وإذا هم يحاط بهم ، ثم ينفجر لغم على مقربة منهم فكان ضحيتَه واحد من المدعوين .. ولولا رحمة الله لقضي على أفرادهم جميعا . وقد تمكن بعض مجاهدي الجمعية من أسر عدد من هذا الحزب فيما بعد ، ولكنهم ما لبثوا أن أفرجوا عنهم وردوا إليهم حريتهم وأسلحتهم ، بعد أن اعترف هؤلاء بخطئهم وأعلنوا اعتذارهم ! ..

ولقد أكد لنا الشيخ برهان أن من وصاياه إلى اخوانه أن يقابلوا كل أذى من الحزب بالصبر ، وأن يضعوا سلاحهم اذا حاول أولئك قتالهم .. وانه ليحزنني والله أشد الحزن أن أنقل هنا ما أثقل مسامعنا من أقوال عن ألوان من العدوان يشنه بعض مقاتلي الحزب على بيوت المسلمين ، الواقعة قريبا من مناطق الحزب ، حتى ليضطرون أهلها للجوء إلى الأعداء من أجل حمايتهم .. ولكني مع ذلك لا أقطع بالباعث عليه ، فقد يكون للحزب الإسلامي حجة لا نعرفها ومنظور لا نحيط به .

هذا إلى ما يقال عن تصرف قادة بعض فصائل الحزب في غنائم المجاهدين ، فبدلا من أن يعطوهم منها ، تنفيذا لشريعة الله وتقديرا لبلائهم ، يبيعونها إلى القبائل الحرة صاحبة السوق الخارجة على القانون .. وقد سمعت من أحد الثقات أن اثنين من ذوي قرباه يجاهدون في صفوف الحزب الإسلامي ، وقد غنم كل منهما عددا من الرشاشات الروسية في احدى المواقع ، فعُوِّضَ أحدهما بجزء ضئيل لا تتجاوز نسبته العُشر من استحقاقه ، وجُرد الآخر من غنيمته كلها فلم يعوض بشيء ..

وميض وضرام :

وأعود هنا لأكرر ما أسلفت الإشارة إليه من حسن الظن بقائد هذا الحزب بناء على معلوماتي السابقة عنه ، والتي لم يزدها لقائي الشخصي له إلا وثوقا ، ولكن هذا وذاك لا يستطيع إبطال ما يقال .. والمرء الذي تتهاوى على سمعه هذه الأنباء المؤسفة لا يسعه إلا أن يتساءل : كيف يمكن أن يحدث هذا كله بين إخوة في السلاح والإسلام ؟ .. اللهم إلا أن تكون هناك أيد مريبة هي التي تحرك هذه الفتن لتقتطف ثمراتها السامة فرقة جديدة ، لا يفيد منها سوى أعداء الإسلام في أفغانستان وما خلفها .. وإني إذ أنقل أخبارها إلى كل من يهمهم أمر دينهم لأردد مع الشاعر إنذاره القديم بما تتمخض به الأحداث الصغيرة من عواقب كبيرة ، لا تزال تتفاعل صُعُداً حتى تذهب بالدول والأمم :

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرامُ
فإن النار بالعيدان تذكى ... وإن الحرب أولها كلام

ولئن صح ما يتناقله الرواة من تلك البوادر فقد تجاوزت الوميض إلى الضرام ، وامتد شواظ اللهب ليلتهم الأخضر واليابس .. ولا حول ولا قوة إلا بالله ! ..

مجلس أعلى للعلماء :

وراجعنا حساب أعمالنا فقررنا أن نباشر الخطى في طريق المرحلة التالية ، وهي إعداد الجو لاجتماع القادة كلهم ، حيث نطرح قضية الميثاق الموقع من قبلهم ، ليحدد كل منهم موقفه بإزائه ..

وبدأنا الاتصال بجلب الدين حِكمتيار ، فعيَّن موعدا للقاء الساعة الثامنة من صباح غد ــ الجمعة ــ حيث يكون بانتظارنا في مقر الحزب .

وفي الساعة الخامسة وافانا الشيخ محمد يونس إلى الفندق ، واتفقنا معه على أن نحاول أولا الجمع بين حكمتيار والرباني .. ومن ثم نتابع سبيلنا مع كل منهم ، حتى إذا ذللت العقبات جمعنا بينهم على صعيد واحد ..

ثم هناك فكرة أخرى أول ما انقدحت في خاطري ، وعرضتها على الأخوين ، والآن يطرحها الشيخ محمد يونس ، وهي أن علينا ، إذا أخفقت مساعينا مع الزعماء ، أن نتخير فئة من صالحي العلماء ، نتفاهم معهم على خطة جديدة يكون العلماء فيها هم أهل الحل والعقد ، فيتألف منهم المجلس الأعلى الذي يمارس السلطة العامة على الجميع ..

بل إن من رأيي أن نعمل لتنفيذ هذه الخطة سواء نجحت مساعينا مع الزعماء أو أخفقت ، فبها نضع الجميع أمام واقع لا يستطيعون تجاهله ، وبخاصة إذا أحسن أولئك العلماء استعمال تأثيرهم في مخيمات المهاجرين ، الذين لا يبرحون يشكلون القاعدة الشعبية لعلماء الدين .. ولقد لمسنا في بعض هؤلاء المشايخ استعدادا حسنا للقيام بكل ما يجب عليهم في سبيل ذلك ولله الحمد ، وإن كان بعضهم قد قلل من استعداده في هذا الجانب شعوره بالحاجة إلى الراتب الذي يتقاضاه من منظمته ! ..

أول الغيث

الجمعة ٩/١٦

لم تكد الساعة تبلغ الثامنة حتى كنا عند المقر العام للحزب الإسلامي ،

وهناك لقينا بعض الحرس المسلح كأنه ينتظرنا ، فتقدمونا إلى المدخل ، وحسب العادة بقي الرجل في كرسيه حتى أطللنا عليه ، فنهض للسلام علينا .. وأشار إلى رجل من خاصته متين البنية بارز النشاط فاتخذ مكانه في مقابلته استعدادا للترجمة بيننا وبينه ..

وبدأت الكلام بالحمد لله والصلاة والسلام على نبي الهدى ﷺ فذكَّرت بما وصلنا إليه من موافقة سائر القادة على تنفيذ الميثاق .. ولفت انتباه السيد جلب الدين إلى الغليان ، الذي شرع يظهر بين المهاجرين تعبيراً عن نقمتهم من هذا التفرق ، وركزت على ما تحمله هذه الظاهرة الملموسة من بوادر ليست في مصلحة أي من المنظمات ..

ومن ثم تطرقت إلى ما علمنا عن تصرفات رجاله في الجبهة ، فذكَّرته بما تواتر من تلك الأخبار المؤسفة ، وحذَّرته من أن يكون بينهم من لا يريد الخير للمسلمين ، ولا يضمر نية الجهاد الحق ..

وعرضت كذلك لموضوع الماركسيين الذين يبحثون عن مظلة ، وأكدت أنهم واجدوها حتما ، إذا استمر واقع الخلاف ، لدى إحدى المنظمات ، وفي ذلك خطران عاجل وهو التحريش بين صفوف المجاهدين ، وآجل هو القفز إلى منصة الحكم أو التخريب عقيب الانتصار ..

ولم أنس أن أحذره كذلك من الوقوع في الفخ الذي علق به قادة الحركات الإسلامية في الجزائر ومصر وإندونيسية وغيرها .. حيث بذل الإسلاميون دماءهم وأموالهم لتحقيق النصر ، ولكن سرعان ما انقض الملاحدة على الغنيمة ، بالوثوب إلى سدة السلطان عن السطوح أو عن طريق الأبواب الخلفية ، ودون تردد عجلوا بإقامة المجازر للمجاهدين ، تلك التي نراها حيث نظرنا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ..

وأخيراً طرحنا فكرتنا عن تأليف مجلس من كبار العلماء يكون من صلاحيته التوجيه ، واستبعاد العناصر الدخيلة ، وله الرأي الأعلى في قيادة الحركة بعد استكمال الوحدة ..

وأدلى أخونا الشيخ علي بكلمة لطيفة ومفصَّلة حول الموضوع ..

ولقد حاول جلب الدين أن يثير بعض المشكلات الجانبية ، فذكر قضية نصر الله والسياف ، ليقطع بأن أي اتحاد لا يمكن تحقيقه بدونهما ..

ورددت عليه بأن موضوع نصر الله سينتهي بترشيحه عن طريق إحدى المنظمات ، وثقتنا بدينه وفضله تجعلنا مطمئنين إلى قبوله هذا التدبير ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأخ السياف ، فدخوله سيكون عن مثل هذا الطريق .. ومهما يكن من شيء فالذي نحن في مسيس الحاجة إليه هو اختصار المشكلات لا زيادتها ، وتقديم التنازلات بدلا من إثارة المتاعب وافتعال العقبات .. وأفضل الرجال هو أكثرهم تنازلا وتيسيرا ..

والحق أن الذي ألفيناه لدى السيد جلب الدين هذه المرة كان فوق المتوقع ، إذ ما كدنا نفرغ من هذا الحوار حتى انتهينا إلى الاتفاق التام ، فقد أعرب عن موافقته على كل ما عملنا وما عرضنا ، وأبدى استعداده لحضور الاجتماع العام الذي نعمل لتهيئته دون قيد ولا شرط .. بل إنه أبدى موافقته على تأليف مجلس العلماء الذي سيكون له القول الفصل في كل أمر يتصل بموضوع الجهاد .

والمشهور في أوساط العارفين أن تشدد جلب الدين في شروطه لقبول الاتحاد ، هو الذي أخر تحقيقه حتى الآن .. لذلك لا مندوحة عن التساؤل عن الأسباب التي ليّنت جانبه إلى هذا الحد ..

بوادر مؤثرة :

كان بين زوارنا أمس في الفندق بعض المشايخ ، ومنهم علمنا لأول مرة أن مجموعة من عقلاء المخيمات مشوا في شبه تظاهرة إلى مكاتب هؤلاء القادة ، وأنذروهم بحزم أن الصبر على تفرقهم بلغ حد الانفجار ، ولا بد من حسم لهذا الوضع ، فإما الوحدة ، وإما القيام بعمل بين المهاجرين وفي عمق المجاهدين ، يؤدي إلى انقاذ الموقف بأي ثمن ..

وقد أكد ذلك المتحدث أن هذا الغليان قد وصل إلى مجالس الشورى في صميم المنظمات ، إذ تحرك بعض مشايخها للمطالبة بالاصلاح العاجل ، وأصبحوا يعلنون سخطهم على زعمائهم بكل صراحة .. حتى انهم

لينذرونهم بالتخلي عنهم ولو أدى ذلك إلى قطع وظائفهم التي ليس لهم من مورد سواها ..

وفي المناسبة نفسها تكلم رجل تبدو عليه ملامح القوة والصرامة ، فكان مما قاله : إنه مسئول عن احدى قطاعات القتال ، وقد أنذر رئيس منظمته أنه سيتخلى عن مركزه هناك إذا استمرت على موقفها المتخاذل من قضية الاتحاد ..

أفيكون هذا الاتجاه الحادّ هو الباعث على تطور موقف جلب الدين ؟ ! ..

ولكي نعثر على الجواب الصحيح لهذا التساؤل يحسن بنا أن ننتظر ريثما نتم جولتنا على بقية القادة ، فنرى إلى أي مدى بلغ أثر تلك التظاهرة في سلوكهم المعهود ..

تهم خطيرة :

وأقرأ الساعة في مذكراتي تلك بقية من كلام أولئك الزائرين لا أرى أن أغفلها في نهاية هذه الفقرة ، ذلك أني سألتهم عن حجم العون الذي يتلقاه المهاجرون ومواعيده ، فأكدوا لنا أن المملكة السعودية أكثر المصادر سخاء ، فهي تدفع لهم الحبوب والسمن وما إلى ذلك دون تحديد لموعد دوري ، وكذلك الحكومة الباكستانية التي تتلقى معونات الأقطار الإسلامية ، فهي توزع عليهم بين الحين والآخر ما يقارب الخمسين روبية لكل فرد دون تفريق .

ثم يؤكد هؤلاء بكلامهم وصمتهم الموافق أن ما يصل إلى المستحقين من هذه الواردات لا يقدر بأكثر من نصفها ، أما الشطر الآخر فيأخذ سبيله إلى أيدي الكبار من أتباع بوتو وغيرهم من الملاحدة والشيوعيين المنبثين في دوائر الدولة ! ..

وإنها لتهمة خطيرة تكاد تبلغ حد التواتر .. وفي الوقت نفسه توشك أن تتجاوز حدود المعقول ، بالنسبة إلى بلد يعلن أنه في طريقه إلى تحكيم شريعة الله ، ثم يكون في دوائره كل هذه العناصر المحاربة لدين الله .. ولكن

هذا الاستغراب سيزول من ذهن القارىء عندما يفكر معي بتلك الكلمة ، التي أفضى بها إليَّ أخ من فضلاء الهند ، هو الآن فيما بلغني مدرس في إحدى جامعات المملكة ، إذ يقول ان شيوعيا باكستانياً من أنسبائه قد زارهم في بهوبال ، ولما سألوه عن التطورات السياسية في بلده أجاب : لقد أصبحنا نحن الموظفين في حكومة باكستان نصلي لضياء الحق .. يريد أنهم انتقلوا من التصريح بالكفر إلى النفاق في الدين .. ومعنى ذلك أن شيئا ما في أجهزة الدولة لم يطرأ عليه أي تغيير حقيقي حتى ذلك اليوم ! ..

قوة الحزب الإسلامي :

ولنعد إلى وصل ما نحن بصدده ...

لقد غادرنا مكتب الحزب الإسلامي نحمل أملا جديدا في غد أفضل إن شاء الله ، وقد خرج معنا رئيسه مشيِّعا حتى حملتنا السيارة التي دعا بها من المجمّع المجاور ، الذي أطللنا منه على ما لم نر مثل سياراته كثرة في سائر المنظمات الأخرى ، وهذا ما يؤكد صحة ما يقال من أن تلك المنظمة هي أقوى المؤسسات الأفغانية الست .. وذلك على الرغم من انفصال ثلاث شعب عنها هي التي يقوم عليها الآن المشايخ الثلاثة : خالص ورباني ومحمد نبي .. وإني لأتساءل : لو استمرت وحدة هذا الحزب متماسكة .. أكنا بحاجة إلى كل هذه المتاعب ؟ ثم لماذا تم ذلك الانفصال ؟ ..

في كتاب (الأفغان والاجتياح الروسي) محاولة صريحة للرد على هذا السؤال .. ولكنها صراحة غير شافية ، وفي تقديري أن في شخصية هذا الإنسان جلب الدين نزعة استبداد هي المسئولة بالدرجة الأولى عن تلك النهاية .

إن في ذلك الجسد النحيل ، وخلف تينك العينين النفّاذتين ، لشخصية مؤثرة مشحونة بالاعتداد .. وهو بهذه الخاصة جدير بأن يعطي الخير الكثير ، وأن يعطي الشر الكثير أيضا .. والضمان الوحيد لانضباطه في الطريق السوي هو ثقافته الإسلامية العميقة ، وتمثله للفكر العميق الذي تنطوي عليه مبادىء المصلحين الكبيرين المودودي والبنا .. والله المسَدِّد والموفق وإليه الأمر كله ..

بقيت ملاحظة أخيرة أحب أن أستدركها الآن ، وهي أن السيد جلب الدين كان يسمع كلامنا العربي مكتفيا به عن الترجمة ، فإذا شاء الكلام عمد إلى لغته القومية فنقلها إلينا ذلك الترجمان ، الذي استرعت فصاحته انتباهنا ، ولكننا لا ندري أكان يستوعب كلامنا كاملا أم يفوته بعضه ؟

الضابط الصالح :

وأقبل علينا مدير الفندق غلام ــ رب ــ محمد ليجدد دعوته إيانا للإفطار في مسكنه الواقع في الدور الأعلى وحضر معنا على المائدة بعض الرجال بينهم مسئول الأمن العام في منطقة بشاور .. وكانت فرصة طيبة تلك التي جمعتنا بهذا الرجل الصالح محمد أمان الله .

إنه رجل عسكري ورياضي من رأسه إلى أخمصه ، ربعة القوام ، مدمج البنية ، ثاقب النظرة ، قليل الكلام ، ولكن في كلامه تقريرا واستيعابا . وقد سرَّني علمه بالتاريخ الإسلامي ، ورغبته في الاستزادة من المعرفة الدينية . وقد أفاد كثيرا من رحلاته العديدة مع رؤساء باكستان وآخرهم ضياء الحق ، الذي رافقه في أكثر من جولة وشهد معه غسيل الكعبة المشرفة .

ويبدو أنه كان على علم بمساعينا للتوفيق بين قادة المجاهدين ، فلم يضنّ علينا بمرئياته في شأنهم ، وقصارى ما لديه عنهم أنه لا يتوقع لهم اتحادا ، ويتهمهم بهواية المنصب وما يجر إليهم من المنافع .. وهو يفضل منهم الشيخين محمد يونس والرباني ، ويرى أن فيهم من يعمل لإعادة الملكية إلى الأفغان ..

وقلت لهذا الضابط الواعي : إن جمع هؤلاء القادة على رجل واحد في قيادة واحدة وتنظيم واحد ، من أسباب القوة التي لا غنى عنها في هذه الملحمة الهائلة ، وفيها مصلحة عامة لباكستان نفسها ، ونحن نتصور أن الرئيس ضياء الحق أقدر الخلق على تحقيق هذه الوحدة بين المختلفين لو شاء .. فهز رأسه بإشارة الموافقة ..

جامعة الشمس :

السبت ٩/١٧

كان موعدنا مع الشيخ أحمد جل الساعة ٩٫٣٠ صباحا ، وها هي ذي العاشرة ولمّا يصل ، فلا مفر إذن من التحرك لئلا يضيع يومنا دون فائدة .

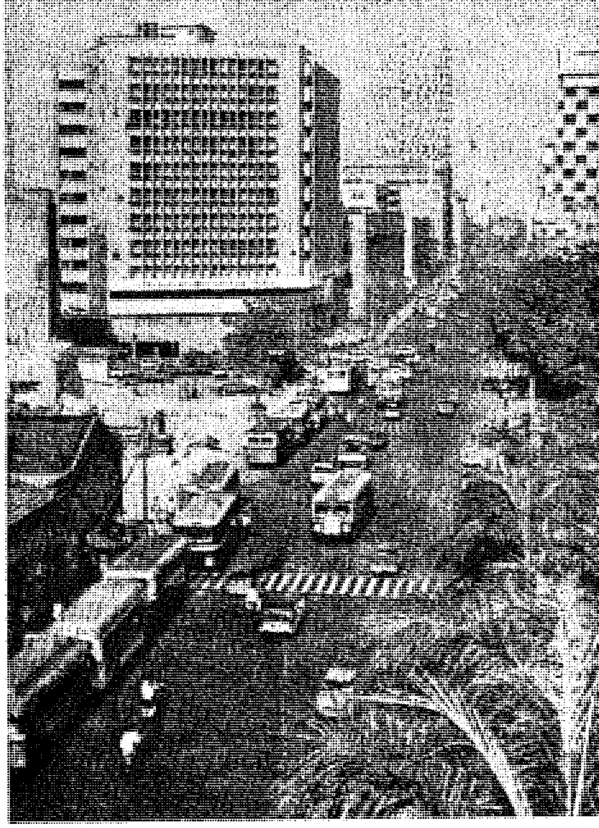
وركبنا (البندة) ـــ عجلة الخيل ـــ ومضينا إلى مكتب الشيخ خالص فلم نجده ، فرأينا أن نقصد إلى منطقة الجامعة ـــ جامعة بشاور ـــ لنقضي لبانتنا من مشاهدتها ، ولاستطلاع أحوال مدرسة شمس الدين ، التي يسمونها (الجامعة الأثرية) .

وبعد مسيرة غير قصيرة دخلنا منطقة تيكهال ، ووقفت العربة تلقاء مبنىً شعبي ، متواضع لنهبط منها إلى جامعة الشيخ شمس .

أول ما يستقبلك من هذه المؤسسة التعليمية بوابتها الحديدية ، وهي أحدث شيء فيها ، ثم البئر الغزيرة التي تغذي المدرسة والمسجد بمائها الثَّرِّ .. ثم المطبخ الذي تستلقي أمامه القدور الراسيات ، بمثل أحجام أشباهها من مطابخ المحترفين في حواضر المملكة ، ولم نكن بحاجة لتحديد مهمتها فهي لا تعدو إعداد الوجبات اليومية للطلبة ومن معهم .. وعلى يسار الداخل ذلك المسجد الذي يقال إنه لا يرى مصليا من أهل المحلة إلا يومي العيدين ، لأنهم يؤدون صلواتهم في مساجد أخرى ، وبجوار المسجد شاهدنا حجرة كبيرة يتحلق فيها عدد من الأحداث والشباب حول شيخ لهم ، يفسر لهم بعض الآيات الكريمة وأمام كل منهم نسخة من القرآن الكريم .

ومن ثم يمتد صف من خمس غرف كان كلها خاليا بسبب الإجازة الصيفية ، إلا اثنتين ، تستعمل إحداهما مكتبا للإدارة ، وفيها الدفاتر والسجلات ، التي تحتوي أسماء الطلاب وجداول الامتحان ، وحسابات المؤسسة . أما الأخرى فكان فيها عدد من الأحداث يتوسطهم أكبرهم ، وهم يحفظون ما يعيَّن لهم من الكتاب الحكيم .

واستمعنا إلى بعضهم يتلو علينا بعض محفوظاته ، في ترتيل مجوَّد . وأثناء ذلك حضر شيخ التحفيظ ، وهو متوسط السن كفيف ، وسمعنا منه كذلك



بعض الآيات الكريمة .. وأراد الشيخ شمس أن يظهرنا على بعض جهوده ، فأشار إلى اثنين من الطلاب فنهضا ليتقابلا ، ومن ثم جعلا يتحاوران بعربية سليمة ، يسأل أحدهما الآخر عن عمله ووجهته ، فيجيب معرِّفا نفسه بأنه طالب علم ، ويستمر الحوار حول شئون من العقيدة ، يفصل كل منهما ما يعرف منها على الوجه الصحيح ، ثم يفترقان مزودين بدعاء كل منهما للآخر .

وأطللنا على دواخل الغرف الأخرى ، وإذا في بعضها أسرَّة من الخشب المجدول بالحبال ، من ذلك النوع الذي يستعمل للجلوس وللنوم في الاستراحات الشعبية ، التي تكثر خلال الطرق الطويلة بين حواضر المملكة .. وقد شهدنا الكثير منها أثناء سفرنا البري ما بين بعض المدن الباكستانية ، ولا بد لمثلنا بإزاء هذه الظاهرة المشتركة ، من أن يتساءل : أي البلدين نقل عن الآخر هذه الصناعة ومتى بدأ ذلك النقل ؟ ..

وعلمنا من الشيخ شمس أن هذه الغرف مخصصة لنوم الطلاب ، الذين يقيم معظمهم في المدرسة أثناء أشهر الدراسة ، وعلى تلك السرر الشعبية يستلقى الكبار منهم ، أما صغارهم فيتخذون مهاجعهم تحتها ! .. ويبقى للدراسة تلك الردهة المسقوفة على امتداد الحجرات ، حيث تأخذ كل مجموعة مكانها في مقابل إحدى الغرف بالهواء الطلق .. والويل للطلاب والمدرسين إذا انهمر المطر ــ وما أكثره في هذه الربوع ــ وهبت الرياح الباردة اللاسعة ! ..

مدرسة فقيرة ولكن ..

ولاحظت بحذاء الرصيف المسقوف قبراً قد أحيط بسورٍ فقيرٍ ، فلم أصدق عيني أول الأمر ، وسألت الشيخ شمس ، أليس هذا قبراً ، فأجاب انه قبر رجل صالح دفن هنا قبل إنشاء المدرسة بعشرات السنين ، وقد استفدنا من وجود المنزل والأرض الموقوفة له ، ولم نجد قدرة ولا فرصة لإزالة القبر حتى اليوم ، ولكنه قبر مهمل حماه الله من زيارات الزائغين فلا يقصده منهم أحد .

ومن الظواهر المحزنة هنا خلو البقعة من المرافق الضرورية .. فليس هنالك منها سوى مجموعة من الصنابير مُدَّت بجوار البئر ، وغير بعيد منها مقاسم للطهارة ، ثم مقصور للاستحمام ولا باب لأي منهما ! .

ودعانا الشيخ شمس إلى السطح ليرينا قطعة أرض واسعة ، يقول انهم راغبون في شرائها ، وتساوي ثلاثمائة ألف روبية ، وهو مبلغ باهظ تنوء به أعناق المحسنين الممولين لهذه المؤسسة ، التي بلغت موازنتها السنوية للعام المنصرم أكثر من هذا المبلغ .

وقصارى القول انها مدرسة فقيرة ، ولكنها على فقرها وبساطة وسائلها ، تعتبر من الثغور الهامة لحماية العقيدة الصحيحة ولتثبيت المعاني الإسلامية الحقة ، في وسط لا يكاد يعرف من دينه سوى المواريث التي تخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .. ولعمر الحق انها لجديرة من أجل ذلك بالعون والتشجيع لتشق طريقها نحو المستوى الذي تستحقه جهود العاملين فيها ..

غلو يحدث معارك

على أن ثمة انطباعات تراودني أثناء هذه الجولة ، وأرى أن أضعها بين يدي قارىء هذه الحلقات لعلها مؤدية إلى خير .

إن المفكر الملابس لأصناف الناس هنا لا يستطيع أن يتجاهل تلك العصبية التي تجعل من سواد المسلمين في الهند وباكستان فريقين ينظر كل منهما إلى الآخر شَزْرًا .

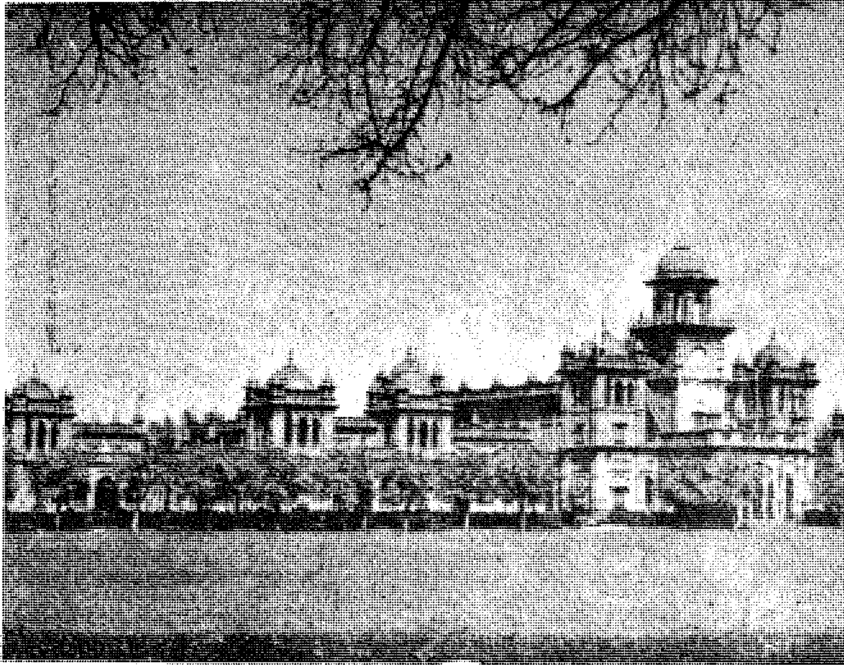
فها هنا غلاة الأحناف الذين يتخذون من المذهب دينا لا يحيدون عنه قيد شعرة ، مهما واجههم من الأدلة المعارضة من الكتاب والسنة .. وليس هذا خاصا بالعامة ، بل هو مؤسَّس في قلوب الكبار من العلماء ، ومتحدّر الى الحاضر من أبعاد الماضي .. وقد طبعهم هذا على التقليد الضرير ، ولو ساقهم التقليد الى مخالفة التوحيد ، الذي به أرسل النبيون ، وكافح من أجله المصلحون .

وكرد للفعل بوجه ذلك التعصب انبثقت الحركة السلفية ، وكانت في مبدئها نوعا من المراجعة العلمية ، نهض بها علماء كبار من الأحناف تحرروا من ربقة التقليد ، ونظروا في الأدلة الثابتة من الوحيين ، فأخذوا بها وإن خالفت المذهب ، وبذلك حققوا المبدأ العظيم الذي قرره أئمة أهل السنة والجماعة ، من وجوب تقديم النص القطعي على كل رأي اجتهادي .. ولكن هذه النزعة سرعان ما اصطدمت بالرفض البات من قبل المقلدين ، ورافق ذلك الرفض هجوم قاس على أولئك المصححين ، مما أدى في مرحلة تالية إلى ذلك العنف الذي نحسه اليوم في أوساط الكثرة من السلفيين .

وهكذا انتهى الأمر بين الفريقين إلى ما يشبه الحرب .. فهؤلاء يواجهون متعصبة التقليد بالتسفيه والتثريب ، فيرد المقلدون بأشد من ذلك ، حتى لقد يصل الأمر الى حد الإعتداء بالضرب ، وهذا شمس الدين نفسه يخبرنا أنهم قد يهجرون النوم في بعض الليالي ، وهم مستعدون بالعصي والسلاح للدفاع عن أنفسهم وأهليهم بوجه المقلدين ، الذين يتوقعون أن يتسلقوا عليهم أسوار البيوت بين الحين والآخر .. وكثيرا ما تلقّى هذا الرجل أذى مخالفيه ، مما ضاعف نقمته منهم ، فراح ينقب في عشرات الأسفار لالتقاط المآخذ الواردة

في كتب المذهب ، أو مؤلفات الشيوخ المتأخرين ، حتى ألف في ذلك كتابا حشد فيه الأكداس من هذه المآخذ بل المثالب ، مقترنة بذكر قائلها ومكانها وأرقام الصفحات التي تحملها .. واني لأخشى أن يطبع هذا المؤلف ذات يوم فيكون سببا لفتن أخرى لا تسر سوى أعداء الإسلام .

وطبيعي أن يتفاوت حجم هذا الخلاف بين الفريقين حسب تباين المواهب والتربية ، حتى ليكون بين غلاة الأحناف (البريلوي) الذي يعيش تحت ركام الخرافات والإنحرافات ، فليس أبغض إليه من دعاة التوحيد ، وحتى لترى بينهم من لا يجيز الصلاة وراء الإمام في المسجد النبوي ، فهو في الصف ولكنه لا يتابعه في ركوع ولا سجود .. وحتى ليكون بين أهل الحديث طوائف الخوارج الجدد من جماعة التكفير والهجرة وأشباههم ، المنتشرين هذه الأيام في مختلف بقاع العالم ، حتى بين مسلمة السود في القارة الأمريكية .



جامعة بشاور

الأعداء الثلاثة :

وتثير هذه الخواطر في نفسي ذكرى ذلك الرجل الذي حدثني بخبرة صديقه الشيخ شمس ، ففي قصته صورة أخرى من التطور التائه الذي انتهى إليه بعض الثائرين على التقليد .

هذا الرجل يدعى محمد ابراهيم ، ويضاف إلى اسمه صفة (السلفي) على طريقة أمثاله من الذين فارقوا منهج المقلدين في الهند وباكستان .. وهو من مقاطعة (تورستاد) في أفغانستان ، ويصفها الشيخ شمس ــ الأفغاني الأصل ــ بأنها المقاطعة الوحيدة التي خلصت من الخرافات ، ومنها انطلقت الثورة الإسلامية ضد الشيوعيين ، وهي الآن محررة لا حكم فيها لغير الإسلام ، وكل من فيها خاضع لشريعته .

ويقول الشيخ شمس ان الفضل في استنقاذها من عبادة القبور ومن سلطان الخرافات والمروجين لها من الدجالين ، إنما يعود إلى الشيخ محمد إبراهيم السلفي هذا ، الذي توسع في قراءة الحديث الشريف ، فأعلن إنكاره لكل ما يخالفه ، وناظر العديد من المتعصبين فأفحمهم ، ولكن ذلك أدى به اليوم إلى لون من الانحراف الجديد يتعذر انفكاكه عنه .. ذلك أن الرجل قد داخله الغرور بما صار إليه فتوهم (الوصول) إلى مرتبة الاجتهاد المطلق ، على أسلوب بعض الطرقيين الذين يظنون أنهم انتهوا إلى الحقيقة المطلقة .. وبذلك فارق إجماع الأمة في الكثير من الأحكام كقوله ببطلان الزواج بين المتزانيين ، وأن ليس على المسلم اتيان الرواتب ، وإذا أدرك المسبوق الركعة الأولى خلف الإمام دون الفاتحة نهض لقراءتها ثم يجلس ويسلم دون ركوع ولا سجود ! .. إلى غير ذلك من التصرفات التي لا مسوِّغ لها سوى التصور الشخصي القائم على الغرور المحض ..

وفي ظني أن كل هذه الاضطرابات الفكرية ، وما سبقها ، وما نعانيه اليوم من دعوات إلى التحوير في اتجاه الفقه الإسلامي باسم التحديث ، وما نواجهه من دعايات شيطانية لهجر السنة النبوية في الهند وباكستان ، وبلاد العرب .. كل أولئك إنما منشؤه أعداء الفكر الإسلامي الثلاثة : الغلو والجمود والغرور .. وإنها لمحنة بل فتنة تدع الحليم حيران .. وكل محاولة

لتصحيح هذه الأوضاع الشاذة ستبوء بالإخفاق الذريع ، إذا لم تبدأ بالقضاء على أولئك الثلاثة .. والسبيل إلى ذلك وقوف دعاة الحق عند حدود المنهج القرآني المنادي أبدا بكل متصدر للهداية أن : ﴿ ادعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادلْهم بالتي هي أحسن ... ﴾ وليس من الحكمة أن يقسوَ الطبيب على مريضه ، وتنقلب الموعظة إلى تجريح ، ويستحيل النقاش العلمي ضربا من الدفاع عن الذات .. والمعصوم من عصمه الله ..

جامعة عالمية :

ومن ذلك الرباط الإسلامي الفقير ــ الجامعة الأثرية ــ امتطينا (البندة) باتجاه جامعة بشاور وإنها لجامعة عالمية حقا ، سواء من حيث المساحة الهائلة ، أو من حيث أنواع الكليات التي شاهدنا منها كليات الزراعة والطب والهندسة والشريعة .

والحدائق خلال هذه الكليات رائعة الجمال على ما ينقصها من العناية ، ولعل أروع ما فيها من نباتات الزينة تلك الأشجار من السرو ، الذي تغطيه ، من الرأس إلى الساق ، لفائف ضخمة رشيقة من القطيفة السُندسية ، على ارتفاع أربعة من الأمتار .. وهي كثيرة العدد وتؤلف في مداخل كل من الكليات نمطين متناظرين يستوقفان بجمالهما الأبصار ..

أي إنسان هذا !

كان المقرر أن نواصل طريقنا في (البندة) إلى مقر الأستاذ السياف ، لمتابعة البحث معه في المهمة التي نوشك أن نفرغ من الإعداد لها . ومما لا شك فيه أن هذا الرجل ، ذا الشخصية القوية المهيبة لدى الجميع ، يعتبر إحدى المشكلات التي لا بد من محاولة حلها .. ولكن شمس الدين وجه العربة وجهة أخرى لم نفطن لها لجهلنا البقعة التي نسير فيها ، وبعد دقائق أشار للسائق فتوقف ، فترجلنا لنمضي معه ، في زقاق ترابي تتدفق بجانبه المياه الملوثة ، حتى انتهى بنا إلى منزل قروي متواضع ، وجدنا عند مدخله

سريرا من الخشب المشبَّك ، وعليه شيخ تضاءل لحمه ، وسَمُقَ جسمه ، وفي عينيه حزن منظور ، وكان عاري الصدر يتبرد من الحر ، فلما رآنا أبى أن يصافحنا إلا بعد أن يرتدي قميصه .. وعرَّفه الشيخ شمس لنا بأنه قاضٍ سابق في (كُنُر) من الأفغان ، وقد استقال في عهد ظاهر شاه لينقطع إلى العلم والتعليم .. ثم اضطر أخيرا إلى مغادرة بلده ، ووطنه ومنزله الجميل ذي الحديقة الغناء ، وهو الآن نزيل شمس مع أسرته المؤلفة من سبعة أفراد .

ولقد علمنا أن في هذا البيت المتواضع ، غير هذه الأسرة المشردة ، وغير أسرة شمس نفسها ، أسرتين أخريين تقيمان معهم منذ زمن .

ودعانا صاحبنا إلى داخل منزله فإذا ثَم حجرتان بدائيتان لو عرض ما فيهما من أثاث لما بيع بأكثر من مئتي روبية .. اللهم إلا مكتبته العامرة بأصناف المجلدات ، المرتبة أحسن ترتيب ، في خزائن لا تناسب بينها وبين محتويات الغرفتين .. شأن بيوت أهل العلم ، الذين شُغِلوا بعقولهم عن بطونهم ، فلا يهمهم أين يجلسون ويستلقون ويطعمون ، وإنما يهمهم من مأواهم فقط أن يتوافر فيه الكتاب الذي يقرؤون .

وحاولت أن أتبين ، بطريقة غير مباشرة ، إذا كان يستوفي من هؤلاء النزلاء الدائمين أجراً ما ، ولمح هو بذكائه ما أريد فأجاب : إن هؤلاء قوم من المؤمنين أناخ عليهم الزمن بكلكله ، فعليّ أن أبذل كل ما أستطيعه لتخفيف محنتهم .. وذكر أنه كان يشتري كيلاً من الحليب كل صباح فصار يشتري اثنين للإفطار ، ويأتي بالمتيسِّر من اللحم فيزيدون من مرقه ليكفي الجميع ، والبركة من الله ..

ومساء أمس جاءنا برجلين من مهاجري الأفغان ، وقص علينا من خبرهما ما خلاصته أنهما ، وأسرهما وآخرين معهم ، يريدون الانتقال إلى أحد المخيمات التي سيقادون إليها ، وليس معهم ما يسدد أجور السيارات التي تحملهم وأمتعتهم ، فهو يلتمس منا إعانتهم على ذلك .. فأعطيناهما الفا وخمسمئة روبية ..

وهذه إحدى وسائله في مساعدة المعوزين من المسلمين .. فأي إنسان هذا الذي لا تكاد ترى له نظيرا في دنيا الناس ؟

بؤس وإيمان :

ويأبى الشيخ إلا أن يرينا بعض فضائل ذلك القاضي النزيل ، فاستقدم بنتاً له في الخامسة من سنيها ، ورجا من والدها أن يكلفها تلاوة ما تيسر من كتاب الله ، فقرأت صدرا من سورة (يسٓ) كأحسن ما تكون القراءة من طفل في مثل هذه السن ، ثم أمرها أن تسمعنا أسماء الله الحسنى ، فراحت تسردها باتقان على النحو المروي في المصحف المطبوع في باكستان .

وانها لظاهرة تسترعي الانتباه وتستدعي الطويل من التأمل ، أن نرى شيخا أحاط به البؤس الى هذا المدى ، ومع ذلك لم يشغله بلاؤه عن تنشئة طفلته على روح الايمان ، وتوثيق علاقاتها بمنزل القرآن .. ولا جرم أن شعبا يحتفظ بكل هذه الخصائص لا يعقل أن تهزمه الدعوات القائمة على الاضغان ، والمدمرة للقيم المميزة لجنس الإنسان .. وودعنا القاضي الصابر على قضاء الله ، بعد أن رجوت منه بالحاح أن يتقبل مني هديتي التشجيعية لابنته ، التي آمل أن تكون في قابل أيامها من الصالحات العاملات لإعلاء كلمة الله ، في ظل هذا الكتاب العزيز الذي ضمن الله به لعباده الهداية للتي هي أقوم .

المجاري الرهيبة :

ومن ثم رجعنا إلى العربة التي كانت تنتظرنا على مدخل الزقاق ، وكان علينا أن نغطي أنوفنا بأطراف المناديل ، حماية لرئاتنا من الروائح التي يطلقها ذلك المجرى الملوث على جانب الطريق .. ولكنها حماية مؤقتة لا يمكن استمرارها ما دمت مضطرا للتحرك في شوارع بشاور ، ولعل القارىء يتوهم أن ذلك قد يكون محصورا في بعض المناطق دون بعضها الآخر .. بيد أن الواقع غير ذلك ، فأنت أينما مضيت في شوارع هذا البلد الجميل ، وبخاصة تلك الرحبة الرائعة التخطيط ، لا تكاد تفقد منظر واحد أو اثنين من هذه المجاري الرهيبة على جوانبها .. أضف إلى ذلك هاتيك المجمّعات الخطرة ، المنتشرة في مختلف الأماكن لاستقبال أكداس القمامة ، وهي عبارة عن مزابل مسورة على ارتفاع متر أو أكثر ، وقد تركت في أحد

جدرانها فتحة خاصة لادخال الفضلات .. التي تمر عليها الأيام حتى تتخمر وتتحلل وتملأ الفضاء بالروائح الخانقة . وقد سبق أن شهدت مثل هذه المجمّعات في إندونيسية وأشرت إليها في الحلقة الخاصة بمدينة دنباسر في جزيرة بالي .. ومهما أنس لا أنس تلك الظاهرة العجيبة التي شهدتها في أبرز الأمكنة من الشارع العام ، الذي يقع فيه فندقنا (جرين اوتل) وهي حجرة مِرحاض أقيمت في أحد المجاري ليقضي فيها الناس حاجتهم المخففة والمغلظة على مرأى من المارة ، ودونما حاجز يحجبهم عن الأعين ! .

ولا أنسى كذلك أن واحدا من أكبر تلك المجاري شهدناه يتدفق بأمواهه الكثيفة السوداء في أحد الشوارع ، وهو يحمل فضلات قسم من البلدة ، ولا بد أنه متفرع من نهر كبير .. ولا أدري كيف أصف شعوري للقارىء وأنا أنظر إلى الأطفال المهمَلين يتطوحون فيه سابحين محبورين ! .

وقد كان لأحد هذه المشاهد المفجعة أثره المنفِّر في نفس زميلنا الشيخ عبد الله السنيور ، اذ آلى ألا يُدخلنَّ جوفَه لحم دجاج بعده أبدا .. ولعله قصر تلك الألية على دجاج بشاور خاصة ، ذلك أننا شهدنا هذا الدجاج في أحد مناطقها يحسو شرابه من ذلك الماء الملوث ، ويلتقط طعامه من الحشائش النابتة على جوانبه ..

إن الناظر لهذه المقاذر المكشوفة ، هنا وفي الفلبين وإندونيسية والهند ــ وفي نيجيريا أيضا ــ ليتساءل مندهشا : كيف يستطيع الإنسان الحياة ، بل التنفس في مثل هذه الجِواء المسمومة ؟! .

ولقد خطر لي ، تلقاء هذه المرئيات المدمرة لصحة الانسان ، والمهيئة لكل الأوبئة التي امتازت بها هذه المناطق ، أن مسئولية تصحيحها لم تعد خاصة بأهلها وحدهم ، بل هي عامة ملقاة على عاتق العالم المتمدين كله . فعلى المؤسسات الدولية ، والمنبثقة عن هيئة الأمم ، أن تنهض بعبئه عن طريقين :

١ ــ اصلاح هذه المجاري وتغطيتها مهما كلفت من أموال وجهود .

٢ ــ القيام بحملة توعية صحية في كل جزء من هذه الربوع ، يشارك فيها الأطباء وخطباء المنابر وسائر وسائل الإعلام ، من سينما وتلفاز ومنشورات ومصورات تدخل كل بيت وحي ودسكرة .

وبذلك يمكن أن تقدم للبشرية أجل الخدمات ، ولا سيما بعد أن تقلصت مساحة العالم ، حتى لم يعد ثمة بلد بمنجى من بلاء البلد الآخر ، وبعد أن تطورت التربية الصحية حتى اختفت مجارير العهد الفرعوني المكشوف من كل مكان في العالم إلا هذا الشرق المسكين .

وتوقفت بنا العربة مقابل دارة السياف المطلة على الشارع العام ، وسألنا عنه حرسه المسلح على الباب ، فأجابوا أنه غير موجود ولا يعرفون متى يعود .

وفي هذه اللحظة وقفت سيارة صغيرة أنيقة بجانبنا ، ودعانا صاحبها لمصاحبته إلى الفندق فقبلنا دعوته شاكرين .. وعلمنا بعد أن هذا الفتى من السواح الباكستانيين ذوي اليسار ، الذين يؤلفون شطر السكان ، مقابل السواد الأعظم من المقترين والمحرومين ، وهو ينزل الفندق نفسه ، والظاهر أنه شاهدنا هناك فأكرمنا بحق الجوار ، جزاه الله عنا كل خير .

مع ضابط الأمن :

وكان لدينا متسع من الوقت لنزور ضابط الأمن ، الذي أفطرنا معه عند مدير الفندق ، فاتصل به هاتفيا ، وبعد قليل وصلت سيارته فحملتْنا معه إلى مكتبه .

ونعِمَتِ الجلسةُ ، فقد أتاحت الفرصة لأحاديث صالحة حول موضوع المجاهدين ، واختلاف قادتهم ، وأهمية ذلك كله بالنسبة إلى باكستان .

وعرضنا لهذا الفاضل وجهة نظرنا ، وأوضحت له تقديراتي الشخصية بالنسبة إلى القضية الأفغانية وركزت بخاصة على العناصر التالية :

١ ــ إن الزحف الروسي المزود بكل الطاقات المتطورة إنما يبطىء زحفه لا لمجرد العجز ، ولكن محاولة لتوسيع شقة الخلاف في مجموعات المجاهدين ، وذلك ببث المفسدين خلال صفوفهم .. وقد لمسنا بوادر ذلك بالقتال الذي ينشب في ساحات المعارك بين المجاهدين ، مما لم يعد أمره مجهولا ..

٢ ــ إن هذا من شأنه إيهانُ حركة الجهاد حتى تفقد ثقة الشعب ، وبذلك تنفتح الطريق أمام الروس إلى حدود باكستان ، التي يؤلف مجاهدو

الأفغان اليوم بالنسبة إليها حاجز الأمان ..

٣ ــ إن الخطر الذي سينجم عن انهيار جدار الجهاد الأفغاني ــ لا سمح الله ــ إنما يوجه إلى باكستان بالدرجة الأولى ، لأنها ستقع يومئذ بين فكي التنين الهندي الروسي . ومعلوم أن الهند الوثنية لا تدّخر وسعا لاسترداد الأرض التي تعدها جزءا لا يتجزأ من إلّهها الأكبر ، ولا حاجة لذكر نوايا موسكو نحو باكستان ، بعد كل الذي اقترفته بحقها في حربها مع الهند ، التي أدت إلى تقسيم الدولة الواحدة إلى اثنتين ..

٤ ــ يضاف إلى ذلك كله وضع الحركات المعارضة في داخل باكستان ، وقد بلغنا أن هؤلاء مستمرون في التسلح عن طريق القبائل الحرة ، التي تتاجر بالممنوعات على اختلافها دون مانع ، وعلى مرأى ومسمع من أجهزة الدولة كلها ..

٥ ــ ومن هنا ندرك أن القضاء على الفرقة القائمة بين منظمات الجهاد ، وإلزام قادتها بالوحدة التامة السليمة ، أمر لا مندوحة عنه لمصلحة باكستان ولسلامتها ، التي لا تهم الشعب الباكستاني وحده ، بل تخص العالم الإسلامي بأجمعه ، لأن كل ضعف في جزء من وطن الإسلام هو ثغرة تفتح في حصون الأمة الإسلامية بأسرها .

هذا إلى أن تحقيق الوحدة بين هذه المنظمات أمر في نطاق الممكنات لدى حكومة باكستان حتى الآن ، وكل تأخير في هذا الجانب قوة للعدو المتربص على جانبيها .. وإذا بدأت طلائع الخطر فلن تتوقف عند حد معين والعياذ بالله ..

وكان الضابط وزميل له يصيخان بعمق إلى هذه التقريرات ، التي كانت تصل إلى وعيهم من طريق الترجمة الدقيقة التي تولاها الشيخ شمس ، فلم يكتف بمعانيها كاملة ، بل يضيف إلى كل فقرة منها ما رافقها من انفعال وإشارة .. وفي النهاية قال الضابط محمد أمان الله : إن هذا سيصل إلى الرئيس بأسرع وقت ..

وهنا تدخل الأخ الشيخ علي ليقول للضابط : واسمح لي أن أقول لكم : إن هذا الشيخ الذي يترجم عما يدور في صدورنا ، بل عما في صدور المسلمين في كل مكان ، قد سبق أن برهن عن حبه الكبير لباكستان بما

كتبه في الدفاع عن مصالحها في الصحف والمجلات والمؤلفات في مختلف المناسبات .. ولعل الرئيس ضياء الحق قد علم بمقاله الذي نشرته بعض صحف المملكة عقيب تنفيذ حكم العدالة في ذي الفقار علي بوتو تحت عنوان « دفاعا عن الحق لا عن ضياء الحق » . فكان يومئذ أفضل رد على أعداء الحق من المشاغبين أنصار القتلة والمجرمين .

فبدت على الضابط المفكر ملامح الرضا لذلك ، وقبل فراقنا إياه قال : إن اجتماعكم مع المشرف الأعلى لشئون المهاجرين سيكون ذا فائدة ، وسأهيىء الفرصة اللازمة لذلك يوم غد إن شاء الله ..

مع الكَمِشْنَر

الأحد : ٩/١٨ :

في الساعة العاشرة جاءتنا سيارة الضابط السيد محمد أمان الله وفيها زميله لتحملنا إلى (الكمِشْنَر) كبير المشرفين على شئون المهاجرين ، وعند المبنى الخاص ترجلنا لنصعد الدرج إلى الدور الأول ، والتقينا الرجل في مكتبه البسيط المتواضع ، وكان لقاء أخويا كريما ، شعرنا خلاله أنه على وعي ودين وبعد نظر بعيد . ومما زاد أنسنا بالرجل إحسانه العربية فهما ونطقا ، ولما سألته عن ظروف إتقانها أجاب أنه درسها في باكستان على نفسه أولا ، ثم انتقل إلى جدة حيث عمل نائبا للسفير مدة ثلاث سنوات حصَّل منها ما حصَّل ، ولكنه يأسف لأنه لم يتقن السوقية الدارجة هناك . فقلت له : هنيئا لك ذلك ، لأن السوقية التي تأسف لجهلها هي ضرَّة العربية ، والشرف كل الشرف أن يتقن المسلم لغة القرآن ، التي شرفها الله بكلامه ، وأكرمها بلسان أبلغ خلقه ﷺ ..

ومن ثم أخذنا في الكلام عن قضية الأفغان والخطر الشيوعي على باكستان والعالم الإسلامي ، ووقفت ملياً على حركة الجهاد في عمق الأفغان باعتبارها حاجز الأمان لباكستان ، ثم على اعتبار باكستان حاجز الأمان بالنسبة للبلاد العربية وسائر الأرجاء الإسلامية .. وكان التركيز على واقع الخلاف بين قادة المجاهدين وتأثير هذا الخلاف على مصير القضية كلها ، من حيث كونه إما مؤخِّرا للنصر ، وإما مؤديا للهزيمة في النهاية ، وكلاهما

بلاء وشقاء ..

ثم لفتُّ انتباهه إلى مصائر الحركات الإسلامية السابقة في تركية والجزائر ومصر وإندونيسية وغيرها ، حيث قفز الكفرة والملاحدة إلى قمة السلطة بعد النصر ، فسرقوا جهود الإسلاميين ، وأحالوا الدولة إلى أداة لضرب كل ما هو إسلامي ، حتى صُفي الإسلاميون ، أو كادوا ، في هذه البقاع ، وأصبحوا اليوم بين قتيل وسجين وشريد وطريد ..

وكررت ما قلته للضابط محمد أمان الله من أننا ، وعشرات الوفود مثلنا ، لن يستطيعوا التوفيق بين هؤلاء المختلفين ، الذين ثبت لنا أن بينهم من لا يهمهم من الأمر سوى استبقاء الأُبهُّة المزعومة ، والحفاظ على سيل المنافع الواردة عن طريق الحكومة الباكستانية وغيرها .. وبينهم كذلك الصالحون الذين يبتغون وجه الله ، ولكنهم مشبعون بالظن أنهم عَصَب القضية ، فلا نصر إلا عن طريقهم وبقيادتهم ! . وهؤلاء ، وأولئك لا سبيل إلى اقناعهم بتعديل أفكارهم وخططهم إلا عن طريق الضغط الرسمي ، وعن طريق التلويح بقطع الموارد إلا بعد الاتفاق ..

وجاءت أجوبة السيد عبد الله هذا متفقةً مع أفكارنا تماماً . وخلاصة ما انتهينا إليه هو أن الإتحاد السداسي هو الشكل الأفضل ، فاذا تعذر لم يكن بد من تجميع ذوي الخط الإسلامي المتقارب .. وفي رأيه أن ذلك هو المتوقع حصوله ولو بعد حين .

من تاريخ القلعتين :

ومن مكتب الكمِشنَر أخذنا سبيلنا لى القلعة ، التي طالما منيت نفسي باستطلاع أخبارها .. لأعلم مدى التساوي بين ظاهرها المحبب وباطنها المغيَّب .

وعلى مقربة من المدخل استوقفنا بعض الجنود من الحرس ، ولم يسمحوا للسيارة بالمرور إلا بعد الاستيثاق من رقمها ، وكونها هي التي وصلتهم الاشارة بشأنها ..

وبمجرد أن تجاوزنا المعبر الخارجي بدأنا نشرف على عظمة هذا الحصن .

إن في مظهره الخارجي لصورة باهرة لروعة التنظيم والتخطيط ، حتى ليُخيَّل لناظره أنه حديث عهدٍ بعبقرية المهندسين ، وبراعة المنفِذين ، فاذا احتواك داخله رأيت مدى التطابق بين المظهر والمخبر ..

لقد تجولنا بين أقسام هذه القلعة ، فاذا هي تجمع بين القديم والحديث في نسق متكامل ، فكثير من أبنيتها المتناثرة هنا وهناك جديد يؤلف مكاتب الجند ومهاجعهم وما إليها .

وقد استقبلنا قائدها العقيد (محمد أكرم صاحب) باللطف المعهود في الباكستانيين ، وبعث معنا دليلاً يطوف بنا بين معالمها ..

والقلعة تقع في وسط بشاور ، ومن أعلاها يطل الرائي على المدينة محيطة بكل جهاتها على امتداد بعيد ، يؤكد ما أخبرنا به مرافقنا من أن سكانها لا يقلون عن المليونين ومئتي ألف . وتبدو المدينة كالحديقة العظيمة لكثرة ما ينهض خلالها من أصناف الدوح .

والمساجد التي طالعتنا تفوت الإحصاء ، وأكبرها ذاك الذي يسمى (مسجد مهابان خان) ذو المنارتين المتباعدتين الذاهبتين في أجواز الفضاء .

وفي القلعة مسجد أنيق يظهر أنه غير قديم ، وعلى بعض شرفاتها المدافع ذات القذائف الكروية ، وتنتشر خلالها نباتات الزينة المزهرة ، حتى شجر الصبار الأملس ، وصبَّار الزينة ذو الفروع العمودية ..

وكل ما في القلعة من أقسام وبخاصة القديم منها ، موحٍ بأنها إنما بنيت لإيواء الجند ، ولتكون مركزا للمراقبة ، حسب المألوف في قلاع الجند القديمة ..

ولما عدنا إلى مكتب القائد استدعى أحد معاونيه من ذوي الخبرة بتاريخ القلعة ، فكان مما ذكره أن بانيها هو مؤسس الدولة المنغولية الامبراطور (بابر) ويعني الأسد بالفارسية ، ويعرف ذلك من مذكراته (بابر نامه) التي تؤكد أنه أقام فيها ..

وبابر هذا هو (ظهير الدين محمد) الجد الرابع للحاكم الصالح أورنك زيب عالمكير .. وقد عُرفت الدولةُ التي أنشأها بالولع في إنشاء القلاع التي تجمع بين الفن والقوة .

واستوضحنا هذا الخبير عن القلعة الأخرى (قنطرة أتاك) التي عبرنا بجوارها أثناء الطريق بين راول بندي وبشاور ، فأثبت ما عرفناه من كونها مبنية منذ أيام جلال أكبر ، صاحب القلعة التي زرناها في مدينة أكرا بالهند ، وكانت منفى ولد شاه جهان ، الذي قضى فيه بقية حياته ، مطلا منها على ضريح زوجه الأثيرة (ممتاز محل) ..

وكان مع هذا الضابط الخبير كتاب يظهر أنه يحتوي تاريخ هذه المعالم بالانجليزية ، فسألناه عما إذا كان من الممكن الحصول على نسخة مثله في مكتبات بشاور أو سواها ، فنفى ذلك وقال : إنه ممنوع التداول .. وليس لديه نسخة ثانية من الكتاب ..

ومن تمام التعريف بهذه القلعة أن يعلم القارىء بأنها على أهميتها لا يمكن أن تقاس بالقلعة الحمراء في دهلي ، ولا بأختها في أكرا ، من حيث أفانين الترف ، وعبقرية الفن ، إذ لم نر في أقسامها المختلفة أي أثر للنقوش والزخارف ، والمرقشات المنزلّة بالحجارة الكريمة ، وإنما هي مركز للمراقبة متين يؤدي مهمته كاملة في فرض هيبة الدولة ..

ومن الآثار المحدثة هنا ذلك العمود القصير المظهَّر بالفسيفساء ، يعلوه لوح من رخام خططت على صفحته أسهم تشير إلى مختلف الجهات المحيطة بالقلعة ، وعند منتهى كل سهم اسم البلد أو المَعْلَم الواقع في ذلك الجانب .

وكذلك ألفينا في بعض حجرات القلعة مكتبة صغيرة ، ولكن فيها كتب قيمة ، ومن أعلى القلعة أشرفنا على مباني الكليات المخصصة للبنات .

وفي ختام الزيارة شكرنا المسئول الكبير ومعاونيه ، ثم عدنا أدراجنا إلى الفندق بالسيارة التي كانت تنتظرنا .

وها نحن أولاء في الساعة ٦’٢٠ لا نزال نترقب قدوم رسول جلب الدين لمرافقتنا إلى أحد مخيماته .. ولكن الراجح أنه لن يقدم بعد هذا الوقت ، وما ندري سبب ذلك التأخر ومع أن الاتفاق قد تم هاتفيا مع وكيله على أن يوافينا مندوبهم حوالي الخامسة ، ولعل الوكيل نفسه قد نسي وعده ، أو نسي أن يبلغ رئيسه ذلك الوعد .. ومهما يكن السبب فقد فاتت الفرصة وبات علينا أن نترقب لحظة الإفطار لنتخفف من متاعب النهار ..

في الجامعة الأشرفية :

وفي ضحى اليوم التالي وفد علينا الشيخ أحمد جل ليبلغنا أن اجتماعا ، يضم أكابر المشايخ وممثلي المهاجرين ومندوبي المنظمات ، منعقد الآن في مسجد الجامعة الأشرفية ، وهو يدعونا لحضوره ، على ألا يشعر المجتمعون بأن حضورنا مدبَّر من قبل .. فترددت بادي الرأي وسألت الشيخ : أليس في ذلك تطفل على القوم وإحراج لهم ؟ .. أوَليس الأفضل أن ننتظر مقرراتهم فنستأنف السعي على ضوئها ؟ .. إلا أن الشيخ لم يرَ بأساً في حضورنا ، بل يتوقع أن يكون خيرا للقضية على رأيه ..

وهكذا توجهنا بالجيب الذي جاء به واخوانه إلى مسجد الأشرفية ، القائم في بعض أطراف بشاور .. وهناك دعينا إلى قاعة المكتبة لنستريح فيها ريثما تأتي مناسبة الدخول على القوم ..

وانتهزنا تلك الفرصة لنستوضح موضوع هذه الجامعة ، فإذا هي ذات قاعات خمس على مستوى هذه المكتبة من حيث السعة ، كأكبر ما تكون قاعات الدرس ، ويقول قيِّم المكتبة ان طلابها يسكنون المساجد حيث يتلقون بعض الدروس على مشايخها ، ثم ينطلقون لالتماس حاجاتهم الضرورية من المحسنين ، لأنهم من الغرباء الذين لا عائل لهم ولا مورد .. فإذا حان موعد الدروس المقررة هنا أقبلوا لتلقيها ، ولتناول الوجبات المخصصة لهم من الطعام ..

والغرباء كلمة يطلقها الناس هنا على الفقراء . وما أصلحها تعبيرا عن واقع هؤلاء الذين قُضِيَ عليهم أن يعيشوا غرباء عن مجتمعهم الذي ــ كما يقول أحد الاخوة ــ لا يعترف بهم إلا في أحوال الشدة ، التي تستدعي الدفاع عن الدين أو الوطن .. فهناك فقط يكونون في المقدمة ، وعليهم أن يتحملوا العبء الأكبر من التضحية في سبيل الكيان العام .

العالم المغلَق :

وكان ذلك الأخ يصف مجتمع الغرباء في حرارة ، ويقارنه بوضع الطبقة المقابلة من ذوي اليسار ، الذين ــ على حد تعبيره ــ يعيشون في نعيم

يحجبهم عن مآسي الآخرين .. ويمثل لذلك بواقع المدلّلين من أبنائهم ، الذين تحملهم السيارات الفارهة إلى المدارس ، التي لا يحلم بها هؤلاء المحرومون .. ومن هذه المدارس يبدأ طريقهم إلى كل الأسباب التي تؤمن لهم الترقي نحو أعلى المراتب ، على حين يظل أولئك الغرباء في نطاق شقواتهم ، ثم لا يلدون إلا الأشقياء من أمثالهم ، لأن أبواب الحياة مغلقة بوجوههم ، فلا منفذ لهم إلى خارج عالمِهم المغلق .. حتى التعلم الرسمي لا حق لهم فيه بعد المرحلة الابتدائية ، لأن على طالب التقدم العلمي أن يدفع التكاليف ، ولا مال لديهم ، فيبقى ذلك الطريق مقصورا على ذوي المال وحدهم .

وفي رأي الفتى أن هذا الوضع المأسوي ، هو الذي يفتح على هؤلاء البؤساء منافذ السموم ، فيهيئهم للوقوع في آحابيل المحتالين من دعاة المذاهب الهدامة ، سواء في باكستان أو الأفغان .. بل إنه هو الذي يجمِّد هذه الطبقة المحرومة في أسفل السلم الاجتماعي ، إذ يلزمهم حالة التخلف والانشغال بالتماس القوت ، فلا يتيح لهم الاقتراب من مراكز القوة ، التي تظل أبدا حكراً على الطبقة الممتازة .

ومن ثم ينفذ الفتى إلى الحديث عن الحزب الإسلامي ــ الذي ينتمي إليه ــ فيقول : من أجل ذلك يعلن حزبنا أنه يكافح لتحقيق الحرية والعدالة جميعا ، العدالة التي يقررها الاسلام لتكريم الإنسان .. وهذا هو السبب نفسه الذي يبعث الخوف في صدور الأثرياء فيعلنون حربهم الضروس عليه .

ولعل القارىء لم ينس بعد ما أسلفته في حلقة سابقة من صور الفقر ، الذي يحرك لسان هذا الفتى بكل ذلك الوصف المثير ، وأضيف إلى هاتيك الصور ما حدثني به الأخ الشيخ علي مشرف ، الذي قضى عدة سنين مدرسا في الهند وباكستان ، إذ يقول : من الأمور المألوفة جدا أن الأسرة من هؤلاء تعيش في حجرة واحدة ، الزوجان والأبناء وغيرهم ، وقد يأتيهم الضيف الذي لا بد من إيوائه فيشاطرهم المبيت في تلك الحجرة . ويزيد قائلا : حتى أولو اليسار منهم ــ أو كثير منهم ــ لا يختلف أمرهم عن ذلك كثيرا ، فقد يكون لأحدهم المبنى الكبير ، وفيه الرجل وزوجه وأولاده وأزواجهم وأبناؤهم ، حتى ليبلغون العشرات ، فلا يتجاوز حظ الأسرة منهم

الغرفة الواحدة .

والظاهر أن أزمة السكن هذه شاملة لشبه القارة الهندية بأسرها ، ولا أزال أتذكر تلك الكلمة التي سمعتها ذات يوم من أخ في بومباي ، إذ قال : إن الرجل هنا قد يكون من كرماء الناس فيحيط ضيفه بضروب الإعزاز والإيثار بيد أنه لا يستطيع دعوته للمبيت ، لأنه لا يملك المكان الذي يتسع له في منزله ..

صادع بالحق :

وقدم الشيخ أحمد جل وآخر من المشايخ المجتمعين في القاعة المجاورة ، ودعوانا للدخول عليهم فمضينا وحيّينا ثم جلسنا حيث أشاروا في صدر المكان . وكان المتكلم أثناءئذٍ شيخاً في الأربعينات تبدو عليه ملامح الفطنة والكياسة والفضل ، فواصل حديثه بلغة القوم ، ورغبة منا في استيعابه دعونا أحدهم الشيخ جلال الدين ، وهو طالب في السنة الثالثة من كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية ، وأحد الذين سمحت لهم الجامعة بتأجيل دراستهم للعمل في صفوف المجاهدين ، فجعل يترجم لنا معاني الفقرات التي يلقيها الرجل ، فإذا هي ضمة طيبة من أزاهير الخير والحق ، إذ كان يتعرض لواقع هذه المنظمات ، فيصف قادتها بأنهم مفارقون لمصلحة الأمة ، متشاحنون على الدنيا ، وإن على الجميع أن يتماسكوا فلا ينقادوا وراءهم كيلا يكون مصيرهم النار التي وعد الله بها أمثالهم ..

وكان الحضور ، ولا يقلون عن الخمسين ، يتفاعلون مع خطابه المؤثر ، وبعضهم يرفع صوته بتصديقه .. والظاهر أنه كان آخر المتحدثين قبل دخولنا ، وقد علمنا فيما بعد أنه من شورى الشيخ محمد يونس خالص ، الذي لم يحضر هذا المجلس ، ولم نتمكن من رؤيته منذ أيام بسبب مرضه ، وأن اسمه أحمد جل أيضا .

علماء فوق الحكام :

وأعقبت خطبة الشيخ لحظةُ صمت أتاحت لكل سامع أن يراجع بعض

مضمونها على الأقل ، وإثر ذلك دعانا كبار المشايخ إلى الكلام ، وقدَّمني زميلاي ، فحمدت الله وصليت على نبيه المبعوث رحمة للعالمين وقد وفق الله فكانت كلمة جامعة حركت القلوب ، واستمالت الأفهام ، فأثارت الحماسة في السامعين ، حتى أعلنوا إصرارهم على وجوب تحطيم الحواجز القائمة بين المنظمات ، وإعادتها صفا واحدا ..

لقد حرَّضت القوم على إعلان تذمرهم من هذا البطء في تحقيق الاتحاد المتفق عليه في ميثاق العلماء ، ودعوتهم إلى تقرير النبذ لكل واحد يتلكأ في هذا الطريق . وركزت على إلهاب الغيرة والنخوة في صدور أهل العلم ، على اعتبار انهم هم وحدهم أهل الحل والعقد ، وعلى الجميع أن يأخذوا بتوجيههم أو يخلعوهم ، وذكرتهم بنماذج من رجال العلم في الإسلام ، أولئك الذين كانوا بإخلاصهم لله واستحضارهم لجلاله فوق الحكام ، وموضع الرهبة في أعين الظُّلام .

وفي نهاية الحديث قلت للمشايخ : لو كنت أتحدث إلى غير أهل العلم لأخذت عليهم العهد بالتزام ما اقتنعوا به ، أما أنتم فحسبي أن أذكركم بالعهد الذي قطعتموه على أنفسكم لله منذ اليوم الذي وطنتم فيه أنفسكم على النهوض برسالة العلم.

وبذلك استكمل اجتماع العلماء مهمته ، وانفض الجميع بعد أن أكدوا تصميمهم على متابعة الموضوع حتى يكرهوا الزعماء على تنفيذ الميثاق الذي وقعوه ..

وشاركنا بدعوة الزعماء :

وفي الجيب نفسه عدنا إلى الفندق ، وقد نَهَكنا النصب والحرّ .. وما كدنا نفرغ من صلاة الظهر حتى غلبنا النوم .. ثم لم تكد الساعة تتم الثالثة حتى دق باب حجرتي ، فهببت من نومي لأجد اثنين من المشايخ يعرضان عليّ ورقة تحمل بعضَ الأسطر وهما يقولان : هذه دعوة وجهناها إلى قادة المنظمات كي يحضروا كلهم ضحى الغد إلى قاعة الأشرفية في تمام الساعة التاسعة ، وقد جئناكم لتوقعوا في ذيلها معنا ..

وسرني هذا التدبير ، الذي أرادوا به مواصلة الضرب على الحديد الحار

حتى لا يفقد مرانته . ولا جرم سيكون لتوقيعنا على الدعوة أثره في تجميعهم ، وبخاصة بعد أن تغيَّب عن اجتماع اليوم ممثلو مجالس المجمَّعات الثلاثة التابعة للجيلاني والمجددي ومحمد نبي ..

في معسكر المجاهدين :

وفي الساعة ٥'٣٠ وصلت سيارة الحزب الإسلامي لتقلنا إلى معسكره ، الذي قيل إنه يبعد قرابة التسعة عشر كلم . واعتذر مندوبه عن تأخرهم عصر أمس ، إذ لم يكن الخبر قد بُلِّغ إلى الرئيس جلب الدين .

وانتهينا إلى المكان المقصود غير بعيد عن الحقول الخضراء ، بخلاف المخيَّمات الأخرى التي زرناها من قبل ، والواقعة في أطراف البقاع الجرداء .. وكان الفرق ملموسا بين الذي نراه هنا ، والذي شهدناه من قبل ، فبينا تواجه هناك مشاهد التعاسة تسربل كل شيء ، تجد نفسك هنا تلقاء ظواهر القوة ماثلة في المكان وفي السكان على السواء ..

وكان المدخل مغلقا بالحاجز المتحرك ، فلما استوثق الحرس من أمرنا رفعوه فتجاوزناه إلى الخيمة المجاورة ، وكل ما فيها يوحي للناظر بأنه أمام مكتب المسئول عن المعسكر ، الذي تقدم لاستقبالنا بابتسامة لطيفة لم تستطع أن تحجب عن وجهه ذي اللحية المهيبة ملامحَ الجندي الحازم .. وقد علمنا فيما بعد أنه واحد من مئات الضباط الذين انفصلوا عن الجيش الأفغاني ، ليلتحقوا بمجاهدي الحزب الإسلامي ..

ولفت نظري في جانب من الخيمة ساق صناعية تنتهي بحذاء جديد ، فسألت عن شأنها فقيل ان صاحبها مجاهد فقد ساقه بلغم في ساحة القتال . وكان هناك رجل آخر يستمع لما يقال ، فلما رأى اهتمامنا أخذ يحدثنا بالعربية ـــ العُمَّالية ـــ عن نفسه بأنه أحد المجاهدين ، وقد أصيب في رأسه وبطنه ، ولا يزال تحت العلاج منذ سبعة أشهر ... ويقول انه عوَّد نفسه هذه العربية من خلال وجوده في المدينة المنورة ، حيث كان يعمل في إحدى المؤسسات قرب جبل أحد ..

أنتم لا نحن الخطباء :

وبعد استراحة يسيرة دعينا لصلاة العصر قبل ميعادها المألوف عندهم

قرابة العشر من الدقائق .. وفي المسجد الخاص بالمعسكر ، وعلى مقربة من القدُور الكبيرة المنصوبة لإعداد وجبة العشاء للألف من نزلائه ، الذين يقضون فيه إجازتهم ، بعد أن غادره بقية الآلاف التسعة للقيام بنوبتهم في قتال الأعداء ، أدينا الصلاة مع الجمهور الذي ملأ ساحة المسجد المزوَّد بالمراوح العالية ..

وعقيب الصلاة قدَّمني للكلام الأخ محمد زمان مزمِّل الذي رافقنا من الفندق ، والذي سبق أن عرَّفنا نفسه على أنه متخرج بالليسانس في كلية الشريعة بمكة المكرمة ، وأنه يعرفني من خلال ما قرأ من كتبي في جامعة الملك عبد العزيز .

وبعد الحمد لله والصلاة والتسليم على قائد خير المجاهدين الغرّ المحجلين ، قلت للقوم : لو كنت أتكلم في أي جمع من الناس سواكم لشعرت أن عليَّ أن أؤدي واجبي كمعلم أو موجِّه .. أما معكم فأشعر أن حاجتي إلى التعليم منكم أكبر من حاجتكم للاستماع إليّ .. ذلك لأننا نتكلم فقط ، وأنتم تعملون ولا تتكلمون . نحن ندعو إلى الجهاد في سبيل الله ، وأنتم قد بعتم أنفسكم لله ، وقدمتم رؤوسكم ابتغاء مرضاته ، ولا غرض لكم سوى إعلاء كلمته .. فأنتم الأساتذة ونحن التلاميذ ، وأنتم الخطباء ونحن المستمعون والمنتفعون ..

وطفقت أتحدث عن الجهاد في كتاب الله وتوجيهات رسوله ، وأذكِّرهم بمواقف خالدة من التاريخ الإسلامي ، منذ أن قامت دولة الله في المدينة حتى العهد الحاضر .. وعرضت لـهم مشاهـد مـن مصائر الشهداء ، ومنزلة الشهيد عند الله .. وقلت : إنكم الآن لتجددون ماضي ذلك الجهاد ، الذي بلغ إلى حد أن يتسابق الأب وابنه إلى الشهادة ، فلا يتراضيا إلا باللجوء إلى القرعة ، وبذلك تُحيون المُثُل العليا التي امتلأ بها تاريخ هذه الأمة .. وتعيدون في الوقت نفسه أمجاد آبائكم الأقربين ، التي سجلوها في معاركهم الخالدة مع أعظم دول عالمهم، فأثبتوا للدنيا عظمة الإسلام الذي أحيا به الله قلوب أسلافهم الأولين ، أيام كانوا يجوبون القارة لتبديد ظلام الوثنية ، ولتعبيد الطريق أمام دعاة الإسلام لنشر أنوار الله ، وإخراج عباده من عبادة العباد والحجارة إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن

جور الأديان إلى عدل الإسلام .. ولقد أثبتم كآبائكم أن الإسلام لا يزال حيا دفاقا في صدور الأحفاد كعهده في صدور الأجداد .. وهاهي ذي وقائعكم مع ملاحدة الروس وأذنابهم تثبت أنكم خير خلف لخير سلف من هذا الشعب الأفغاني العظيم إن شاء الله ..

دفقات روحية :

وقفزت إلى ذهني صورة الساق الصناعية التي شهدتها في سرادق القيادة ، وحديث ذلك المجاهد المصاب ، فقلت والبكاء يغالبني : واني والله الذي لا إلّه إلا هو لأتمنى أن تكون تلك الساق مكان ساق لي ذهبت في سبيل الله ، وأن تكون تلك الرصاصات التي أصابت رأس ذلك الأخ وبطنهُ قد كانت في رأسي وبطني وعيني ، ما دام وراء ذلك مغفرة الله ورضوانه ..

وشد ما هزَّت هذه الكلمات أعصاب السامعين فانطلقت تكبيراتهم تشق أجواز الفضاء ..

ولقد تناوب على ترجمة خطبتي التي استغرقت قرابة الساعة الأَخوان محمد مزَّمل وشمس الدين ، فأوصلاها إلى قلوب الجمهور بكل ما انطوت عليه من دفقات روحية تعجز عن تصويرها الكلمات وحدها ..

ولما هممنا بمغادرة المسجد لقينا العَنَت الكثير من زحام الناس ، الذين أكبوا علينا عناقا وتقبيلا ، حتى خشيت على نفسي الهلاك ، لولا أن أعانني المسئولون عن ذلك الاجتماع .. تماما كما حدث لي في زانبوانغا بالفلبين ، وفي تركيسر بالهند ..

من غنائم المجاهدين :

ومع لحظات الغروب الأخيرة انتهينا إلى الفندق بتلك السيارة ، التي كان لها في خيالنا معنى مُمَيَّز لأنها إحدى الغنائم الكثيرة ، التي أفاء الله بها على عباده المجاهدين من الأعتدة الروسية .

وذكَّرنا الأخ مزَّمل ، وهو يفارقنا عند مدخل الفندق ، أنه عائد إلينا بعد الإفطار ليحملنا إلى مضافة الحزب ، حيث نشهد بعض الأشرطة السينمائية ، التي تحتفظ ببعض صور المعارك الحية ، التي خاضها إخوانه .

وكان أمامنا غير هذه الزيارة موعد آخر لزيارة الشيخ محمد يونس الذي لا يزال معتكفا في منزله بسبب المرض ..

الأمر الواقع :

والظاهر أننا اقترفنا خطأ اصطلاحيا في موعدنا مع مزمِّل ، فقد فهمنا من ذكر الإفطار أنه الوجبة الكاملة ، ومعنى ذلك عندنا أن يأتينا عقيب الطعام ، ولكن الإفطار بمفهومه هو كسر الريق بالتمر والماء ، أما ما وراء ذلك فهو العشاء ..

وعلى أساس من تقديرنا أوصينا مطعم الفندق على الطعام المألوف ، فلما فرغنا من صلاة المغرب وصل المطلوب وتهيأنا لتناوله ، ولم نكد نأخذ اللقمة الأولى حتى طُرق الباب ، وإذا هناك كوكبة من الرجال وافدين مع الشيخ شمس ، فلم يكن بد من دعوتهم للمائدة الممدودة حسب العادة المعهودة ، وفي اللحظة نفسها أطل الشيخ مزمل يستعجلنا لمرافقته إلى دار الضيافة التابعة للحزب الإسلامي ! ..

ووقفت مشدوها بإزاء هذه الدعوة المفاجئة ، واعتذرت وأصررت على الاعتذار ، وأصر هو وألح على ضرورة الاجابة .. وأكد أن جلب الدين ينتظرنا مع بعض المدعوين على العشاء .. ودخلت مع المزمل في جدال غير قصير حول الدعوة الأصلية ، فقد كان المعلوم لدينا أننا مدعوون لشهود بعض الأشرطة السينمائية فقط ، على حين كان تقديره أنا سنجمع لديهم بين الطعام والمشاهدة .. وتغلب منطقه أخيرا إذ لم نجد مناصا من قبول الأمر الواقع ، الذي قد يكلفنا ما لا نحب ،لأنه سينزع عنا عاصفة الحياد بنظر القادة الآخرين ، الذين سبق أن اعتذرنا عن قبول أي دعوة صدرت منهم للإفطار ..

وهكذا تركنا الطعام للشمس ورفاقه الثلاثة ، ومضينا في سيارة الحزب إلى مضافته التي لم نعرف موقعها إلا بعد أن وقفت بنا على مقربة من جامعة بشاور ..

العيون المسحورة :

وهناك وجدنا مع رئيس الحزب الإسلامي عددا من الرجال بينهم مهندس

تخرج حديثا في أمريكة ، وآخر كان أستاذا بكلية الهندسة في جامعة كابل ..

وفي قاعة معدة لاستقبال الضيوف جلسنا قليلا نتداول الحديث في مختلف الشئون . وتطرق أحد الأخوين إلى موضوع العقيدة وتفاوت الناس بإزائها ، فعقب بعضهم على ذلك بكلمة وصف فيها أثر الدجالين في ضعفاء العقول ، حتى ليغيرون في أعينهم أعيان الأحداث ، فإذا رأوا (شيخهم) يكرع الخمر كذبوا أبصارهم ، وحاولوا إقناع غيرهم بأن ما يبدو لهم من حيث الظاهر خمورا لا يعدو في الحقيقة أن يكون شرابا طهورا ، وإذا سئل أحد المخدوعين لماذا يحلق هذا الشيخ لحيته وقد أمر بإعفائها رسول الله ، أجاب بكل ثقة : ذلك ما ترونه بأعينكم القاصرة أما العارفون فيرون لحيته تملأ صدره .. وهكذا القول في موقفه من الصلاة ، فأهل (الظاهر) يتهمونه بتركها لأنهم لا يرونه يؤديها في مسجد ولا منزل ، ولكن مريديه يؤمنون بأنه مواظب على أدائها في الحرمين الشريفين ..

وتذكرت هنا بعض الأساطير التي يتناقلها الناس عن ألسنة (المؤمنين) بذلك المتبوع ، منها قصة الإمام الذي جاء يقرّعه لتركه صلاة الجمعة ، فوعده بأن يحضرها عنده في الغد ... وجاء الغد وصلى خلف ذلك الإمام ، ولكنه قطع متابعته في الركعة الثانية ، ولبث جالسا حتى أتم الشيخ الصلاة بالناس ، وانصرف إليه يسأله عن سبب قعوده ، فكان جوابه : لقد تابعتك ما دمت مع الله ، فلما انصرف قلبك إلى دوابك وأموالك انصرفت عنك ..

وهذه الغنوصية ، الصارفة عن السنن الكونية ، هي القدر المشترك بين أصحاب النحل الباطنية دون تفريق ، واني لأذكر بهذه المناسبة ذلك الداعية الإسماعيلي العريق ، الذي كان يتردد عليَّ في سورية قبل أكثر من ثلث قرن ، ليثير المشكلات التي عالجها في كتابه المضحك (الفلك الدوار ..) وكلما قرعنا مسمعه بالحجة الدامغة من العلم والوحي ، عمد إلى التفسيرات الباطنية التي ورثها عن أسلافه المهوِمين في عالم الأخيلة .. واتفق أن كانت الصحف العالمية تتحدث تلك الأيام عن زواج معبوده (آغا خان) الجد بالفرنسية خادمة المطعم ، وعرضنا لعينيه إحدى هذه الصحف وفيها صور العروسين ، فلم يجد ردا على ذلك إلا قولته المكررة : هذا ما ترونه أنتم ،

أما الحقيقة فهي أبعد ما تكون عما تظنون .. وما أشبه الليلة بالبارحة ! .

الطريقة والحقيقة :

وكان آخر ما بلغني من أخبار ذلك الرجل ما حدثني به أمس أحد الاخوان ، وهو أن وفدا من الشيوخ قد قصد إليه في دارته الأنيقة ، وعلى رأسهم أكثرهم اشتغالا بحديث رسول الله ﷺ وتحلقوا حول أريكته على الأرض ، وجعل هذا العالم يخاطبه في انكسار وتذلل حتى ليقول له : (اني مستعد لتقبيل قدميك اذا أنت استجبت إلى رجائنا بالإتحاد مع بقية المنظمات ..) فما كان جوابه إلا أن قال : (بصفتي حفيد رسول الله لا يسعني أن أرفض الإتحاد .. ولكن عليكم أن تمشوا خلفي بغير تردد ..) .

وكان من العسير على عقلي أن يتقبل مثل هذا الخبر المزعج ، لذلك توقفت بإزائه حتى سألت عنه أحد الثقات ، فأثبت صحة الرواية . ثم أضاف : لقد فعل الشيخ ذلك بصفته من (المريدين) .

ومعنى هذا أن بين المريدين شيوخاً من حملة العلم ، إلا أنهم يستوون مع أجهل الأتباع في مثل هذه المواقف ! ..

أما كيف يحدث هذا ، فتفسيره عند (العارفين) فقط ، لأنه من مستلزمات (الطريقة) التي يختص أهلها وحدهم بعلم (الحقيقة) ولا حقيقة إلا ما يقرره (الشيخ) وخلفاؤه ، وعلى رأسهم ورثته الأقربون من متلقي (مدده) على مر الدهور ! ..

وحسب هذا الرجل (المودرن) أن يكون من نسل ذلك الجد القديم الصالح حتى يحمل كل خصائصه من الولاية والبركة واستحقاق الطاعة المطلقة ! ..

إن هؤلاء المريدين ليعرفون أن والد صاحبهم كان ضابطا في الجيش العراقي ، وقد وفد إلى بلدهم سائحا أو زائرا ، ولعل آباءهم هم الذين استقدموه لزيارتهم ، ومع ذلك لم يروا مناصا من بيعته لمجرد كونه بضْعةً كريمة من ذلك الجد الكريم .. ولا عليه بعد ذلك أن يكون ملتزما فضائل أصله أو مفارقها ، بل له أن يختار لحياته الاسلوب الذي يريد ، لأن القوم قد ألغوا إدراكهم فلا يرون إلا ما يريد لهم أن يروه ، ولا يسمعون لأحد كلاما

بازاء أمره ونهيه .. وهكذا انتقل السر إلى ولده هذا ، فهم في يده كالعجينة يصنع منها ما شاء من الأشكال وينفحها ما شاء من الأحوال .. حتى يصير الأمر بأهل العلم منهم أن يجلسوا بين يديه ، وأن يقدموا على تقبيل قدميه ! .

ووفقا لهذا المنهج يأتي تفسيرهم لكل تصرف يصدر عن الرجل ، ولو كان من هذا التصرف أن يحتضن بين أصحابه القياديين رجالا عُرفوا بمحاربة الإسلام ، حتى ليصفون — في بعض منشوراتهم — صحابة رسول الله وتابعيهم ، من ناشري دين الله في أفغانستان ، بأنهم مستعمرون ، وأنهم أعداء القومية الأفغانية ولغتها ! . وحتى ليكون بينهم من تضبطه السلطات الباكستانية متلبسا بجريمة الإتصال لاسلكيا بحكومة كابل الشيوعية ! .

عِبَر لأولي الألباب :

وعلى المائدة واصلنا الحديث ، وسألنا الإخوة عن مجريات الأحداث في جبهة القتال ، فكان الجواب مبشرا بمزيد من الخير ، وقال الاستاذ جلب الدين : إن النصر دائما في جانب المجاهدين ولله الحمد .. وقص علينا بهذه المناسبة خبر الحادثة التالية :

يقول : كان بين أسرانا اثنان من العدو ، أحدهما روسي والآخر تركماني . ولما أراد الإخوان التقاط صورتهما معا رفض التركماني الظهور



بجانب الروسي احتقارا له .. مع أن التركماني لم يكن لديه من علم بالإسلام خارج نطاق الشهادتين ، ولكنه ، شأن كل مسلم في المستعمرات السوفيتية ، مشحون بالكراهية لذلك الجنس . وأثناء التحقيق معهما تبين أن

الروسي لا يعرف له أباً ، على حين كان التركماني يذكر أسرته ويسمي أفرادها واحداً فواحداً ، مما يؤكد أن الشيوعية لم تستطع إذابة الذات المسلمة كما صنعت بالشعوب الأخرى ..

ويقول جلب الدين : لقد عرضنا على التركماني أن نرده الى أهله فأبى وأصر على أن يجاهد معنا أعداء الإسلام ..

ويقول أيضا : ان هناك مسلماً آخر من أسرى الروس يقاتل معنا ، ولكنه يرفض أن يوجه نيرانه إلى غير الجنس الروسي ، أما الشيوعي الأفغاني فيأبى قتله لأنه ليس مستيقنا من كفره .!..

وكم في هذا وذاك من عبرة تستحق التأمل والتعمق ...

الاجتماع الحاسم :

الثلاثاء : ٢٠ /٩ :

في الساعة التاسعة دق جرس هاتف الفندق ، وكلمنا الشيخ أحمد جل يخبرنا أن القادة قد شرعوا في التوافد ، وأنه ينتظر وصولنا ، فلم نلبث إلا ريثما استوقفنا ركشكَيْنِ فامتطيناهما إلى الجامعة الأشرفية ــ مكان أمس ــ وعلى الفور أخذونا إلى قاعة الاجتماع ، التي ضمت حتى الان قرابة العشرين من الرجال ، فيهم من رؤساء المنظمات الشيخان جلب الدين وبرهان الدين رباني ، وآخرون من كبار العلماء .. وسلمنا وجلسنا حيث أريد لنا من صدر القاعة ، وما هي سوى دقائق حتى تتالى بقية الرجال ، وكان منهم الشيخ محمد نبي وبضعة نفر يمثلون المجددي والجيلاني والشيخ محمد يونس خالص ، اذ كان الأولان مسافرين ، والثالث لم يبرح فراش المرض .. وبعد قليل وصل قريب العشرين من ممثلي المهاجرين ..

وامتلأت القاعة ، وكانت الظواهر تدل على أن أمورا جدية توشك أن تحدث حتما . وقدّم القوم محمد نبي لرئاسة الاجتماع تقديرا لسنه .. وافتتحه باسم الله ، ثم أرادوا أن أبدأ الحِوار فسميت الله وقدمت لما سأقوله بخطبة الحاجة من حديث رسول الله ﷺ ثم مضيت اذكّر وأثير وأعظ وأحذر وأنذر .. ووقفت بعض الكلام على أحداث التاريخ فعرضت لموقف جيش المسلمين إبان معركة اليرموك ، في عهد الصديق رضي الله عنه اذ كانت عدة العدو لا تقل عن مئتين وأربعين من الآلاف ، ولا يزيد عدد المسلمين على السبعة وعشرين ألفا ، وقد تأخر النصر فاستنجدوا بالخليفة ،

الذي كتب إلى سيف الله خالد يأمره بالتوجه لنصرتهم ، فزحف لفوره من العراق إلى الشام بتسعة آلاف مقاتل ، لم يكادوا يذوقون طعم الراحة حتى بلغوا ساحات اليرموك غبَّ خمسة أيام فقط ، قطعوا خلالها المرحلة التي لا تجتازها القوافل بأقل من شهر ..

خطة سيف الله :

وما إن التقى خالد باخوانه حتى أخذ بدراسة الوضع على الطبيعة ، فتبين له أن تخلف النصر انما جاء من تفرق جيش المسلمين الى قيادات مستقل بعضها عن بعض .. فما لبث أن قام فيهم خطيبا ، يذكرهم بأن هذا يوم من أيام الله ، لا مكان فيه لفخر أو تنافس على منزلة ، وأن خوضهم المعركة على ذلك الوضع موهن لقوتهم ، مقابل عدو يقاتلهم على تعبئة واحدة ، ويرميهم عن قوس واحدة .. فلا بد من تغيير منهجهم بتوحيد القيادة ، على أن يتداولوها جميعا ، فيكون كل منهم قائدا عاماً في يوم ، وهو يقدم نفسه ليتولى أمرها في اليوم الأول .

وماكاد يفرغ من عرضه حتى ارتفعت الأصوات بالموافقة دون أي خلاف ، وشاء الله أن يقضي بهزيمة العدو منذ الصدمة الأولى .. وانما تم ذلك بعون الله ، ثم باستجابة الصحابة لدعوة خالد بمجرد اقتناعهم



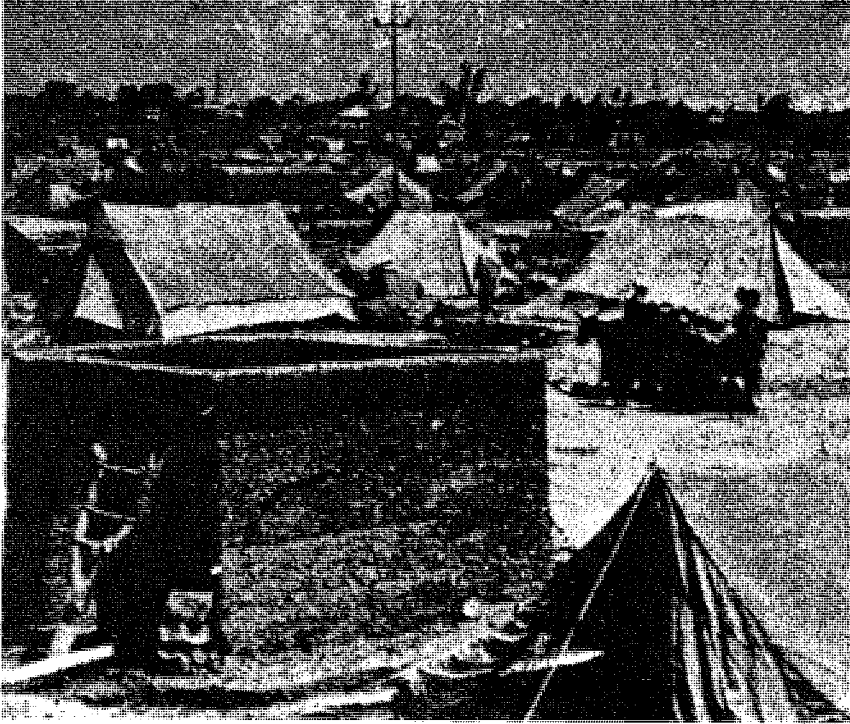
بسدادها .. ثم تابعت . ذلك هو مثل الوحدة التي جعلها الله مناط القبول

فالنصر ، انتزعتُه لكم أيها الإخوة من ماضي هذه الأمة التي لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها ..

ثم ماذا ؟!

وهناك مثل معاكس أقدمه إليكم من تاريخنا المعاصر ، وقد حدث عام ١٩٤٨ يوم زحفت جيوش الدول العربية السبع لمقاتلة اليهود وتحرير فلسطين من شرهم . وأنتم تعلمون أن اليهود لم يكونوا يومئذ يؤلفون جيشا منظما ، ولم يكن لديهم العُدَد الحربية الكافية ، ومع ذلك كانت النتيجة هي التي ترونها اليوم ، التهاماً لأرض المسلمين من كل جانب ، وغارات لا تنتهي على مخيَّمات اللاجئين والعزل من المدنيين .. ولعلكم سمعتم أمس واليوم أنباء الغارات اليهودية على لبنان ، التي أسفرت عن مئات القتلى ، ودمار القرى والمساكن على رؤوس أهلها .. فما الذي أوصلنا إلى هذا الدرك من الهوان ، وما الذي انتزع من أيدينا أزمة النصر أمام شراذم من شذاذ الآفاق ، أيام زحفت جيوشنا السبع لانقاذ فلسطين ؟ ..

هذا السؤال طرحه بعض الناس على أحد المفكِرين من العرب . قال



السائل : كيف حدثت هزيمة سبع دول على يد عصابات من أولئك الصهاينة ، الذين لم تكن لهم دولة ولا تنظيم دولي بعد ؟ ..

فكان جواب هذا المفكر باختصار : لقد هُزِمت جيوشُ الدول العربية السبع لأنها كانت سبعاً ..

شعب عظيم ولكن ..

وهنا تساءلت : ألا ترون أيها الفضلاء أن التاريخ يكاد يعيد نفسه في أفغانستان ؟ .. ومن عجيب الاتفاق أن عدد المنظمات يقارب عدد الدول السبع نفسها ، وهي تقاتل على تعبئة متفرقة بل متدابرة أحيانا ، فلا تكاد تتصل فيما بينها بأي سبب من التعاون .. فماذا تنتظرون من وراء هذا التفكك إلا تأخير النصر أو تحقق الهزيمة ؟ لا سمح الله ..

لقد لمسنا بأيدينا ، وسمعنا بآذاننا ، أن هنا شعباً مصمماً على الجهاد حتى يطهر دياره من رجس الكافرين ، وهو شعب مجرَّب يرث أفضل خصائص البسالة والصبر والإيمان ، فاذا حدث له ما يحرمه ثمرات جهوده فمرد ذلك إلى تناحر القادة ، الذين لم يكونوا على مستوى عظمة هذا الشعب ..

لقد أثبت الشعب الأفغاني أنه من أكثر الشعوب وعياً لمعنى الحرية والعزة ، وأملكهم لقوة الشكيمة وحرارة الايمان ، يوم تغلب على أكبر قوة استعمارية في العالم .. ولا يزال ذلك الروح متغلغلا في أعصاب أبنائه صغارا وكبارا حتى اليوم ، وذلك ما لمسناه من خلال التصميم العظيم الذي يتجلى في كل من اتصلنا به من أفراده وقادته وشيوخه .. ولكن هذا الشعب العظيم ينتظر القيادة العظيمة ، التي لا تنازع فيها ولا خلاف ، ليحقق معجزة اليوم ، بالتغلب على كفرة الشيوعية العالمية ، كما تغلب من قبل على ذئاب القوى الاستعمارية ..

ونحن لا نتهم أحدا من قادة المنظمات ، بل اننا نحترمهم ونقدرهم ، ولكننا ننكر عليهم تفرقهم وتنابذهم ، ولا نحترم أخطاءهم .

تذكير وتحذير :

وهنا رأيت أن أوجه بعض الكلام إلى أهل العلم من الحضور بوجه خاص فقلت : هذه الرؤية ينبغي أن تكون الضابع المميز لأصحاب الفضيلة علماء

الكتاب والسنة ، لأنهم بحكم صلتهم بهذين المصدرين الأعليين يمثلون أهل الحل والعقد .. ومن أجل ذلك يتمتعون بتقدير جماهير الشعوب الإسلامية مهما تقلبت الأحوال ، فعليهم أن يستمسكوا بتراثهم الروحي ، فلا يكونوا مجرد أتباع للزعماء ، بل واجبهم الأول أن يكونوا المصلحين لهم ، المصححين لمسيرتهم كلما أوشكت على الانحراف ، وهذا يعني أن عليكم أيها العلماء أن تكونوا ضابط الشريعة لتصرفات الزعماء ، فإذا رأيتم من أحدهم أيا كان زيغاً عن جادة الحق ، أو تهربا من الاجتماع على الوحدة ، كان من حقكم بل من واجبكم أن تعلنوا واقعه ، وتحكموا بخلعه على رؤوس الأشهاد ، والويل للعلماء إذا نسوا هذه المهمة وتقاعسوا عن تحقيقها ، فيكونوا إذ ذاك من أكبر الأسباب في فساد الحياة ، إذ يفقدون ثقة العامة ، فينزعون من صدورهم حق التقدير لهم ، ثم تكون السيطرة على المجتمع لأصحاب الأهواء ، ممن لا يرعَون في عباد الله إلاًّ ولا ذمة ..

ومن هنا جاءت الحكمة القائلة : (إذا صلحت الحياة ، وعم الخير كان الحكام وراء العلماء ، وإذا فسدت الحياة وطمَّ الشر كان العلماء وراء الحكام ..) .

الله الله في دينكم :

وهكذا مضيت في عرض أفكاري على الوجه الذي رأيته أكثر إثارة وتأثيرا . ولم يفتني أن أذكِّر الحضور بما ينتظره العالم الإسلامي كله من هذا الاجتماع ، الذي قد يقرر مستقبل الحركة الإسلامية ، لا في الأفغان وحدها ، بل في كل مكان على مدى طويل ..

وأخيرا ختمت حديثي بإلهاب عواطفهم وأنا أقول : فالله الله في دينكم وأمتكم وفي آمال المسلمين بكم .. وانظروا ماذا تريدون أن نحمل عن أنبائكم إلى مَن وراءنا في مدينة رسول الله ﷺ وفي شتى أنحاء العالم الإسلامي ..

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

عاصفةٌ وسَكَنَتْ :

وشعرت أن الجو كان على مستوى عال من التفاعل بكلامي ، وقد أكدت أثَره تلك الترجمة الوافية ، التي تولاها فضيلة الأخ الشيخ أحمد جل ، وهو الخبير الحاذق باللغتين ، إلى جانب إخلاصه العميق لدعوة الاتحاد .

وأعقبني المهندس السيد جلب الدين بكلمة مفصَّلة أبدى فيها تصميمه الصميم على تنفيذ الميثاق .. إلا أنه أطلق بعض الإشارات إلى موضوع الأستاذ السياف والشيخ نصر الله ، وعلى الرغم من لطف هذه اللمسات لم تمر دون بعض ردود الفعل ، إذ تحرك لها الشيخ محمد نبي وأنصاره ..

وهناك انبرى رجل متين محبوك البنية كأنه أحد المقاتلين ، وجعل يقول : دقيقتين دقيقتين فقط .. ولكن الذين حوله حالوا دون مراده ، وكادت تحدث فتنة ، وتقدم بعض الحرس المسلح يحاول إخراجه ، فاضطر إلى السكوت ، ولم يتح لنا أن نعرف ما يريد وعن أي الجهات يتكلم ..

وتدخلتُ في الموضوع المثار فقلت : إننا لعلى ثقة بأن الشيخ نصر الله والأستاذ السياف ، وهما اللذان عرفنا فضلهما وأخلاقهما وإخلاصهما ، لن يرضيا أن يكونا سببا في تعويق هذا الاتحاد ، مع العلم بأن مشكلتهما قابلة للبحث من قبل المجلس الأعلى بعد تشكيله ..

وبذلك سكنت الضجة التي حركتها ملاحظات الأستاذ جلب الدين .

وجاء دور الأستاذ الرباني فألقى كلمة هادئة طيبة أرضت السامعين ، وفيها كذلك التصميم الحاسم على تنفيذ الميثاق المتفق عليه .

لا مجال للتردد :

وهنا طرحت سؤالي : هل ثمة من اعتراض أو استيضاح ؟ ..

وجاء الجواب من أحد الشيوخ ، الذي قيل أنه مندوب الشيخ صبغة الله المجددي ، فأبدى بعض الملاحظات الخفية وختمها بالموافقة التامة ..

وعقيب هذا ارتفع صوت مندوب الجيلاني ، وقد سمعت بعضهم يدعوه بالدكتور فاروق ، فأخذ يثير الاشكالات ، ومن ذلك قوله : إن كثيرين يتقولون علينا بأنا ذهبنا إلى مصر ، ومضينا إلى أمريكا ، وعملنا كذا وكذا . لذلك نرى أنه لا بد لمصلحة الاتحاد من ايضاح الخطوط العريضة لسياسته العامة قبل الشروع في تنفيذه ..

وتوقعت أن يكون وراء هذا الكلام محاولة لتأخير النتيجة التي جاهدنا للحصول عليها ، فعقبت على كلمته بأن تقرير السياسة العامة من صلاحيات المجلس الأعلى ، وفي الميثاق تعريف صريح بهذا الموضوع .. وأما الاتصالات الخارجية فقد كانت تجري بشكل إفرادي من قبل بعض المنظمات ، وهو تصرف خاطىء ، ومن شأن الاتحاد القضاء على هذا الضرب من الفوضى ، بتوحيد الجهة التي تخوَّل القيام بها على أساس من المصلحة العامة .. وعليه فلا مجال لاعتبار أي من الأمرين مشكلة تستدعي التردد ، أو تعرقل العمل الأكبر الذي نجتمع من أجله .

القرار الأخير :

وبعد أخذ ورد كلف أمين سر الاجتماع ، وهو موضع الرضى لدى الجميع ، أن يلخص مقرراته في نقاط محددة ، وينهض الرجل ليقرأ ما حضره من ذلك ، وبعد إجراء بعض التعديلات استقر الوفاق على ما يلي :

١ ـــ وجوب إمضاء الاتحاد حسب المقرر في ميثاق العلماء المذيل بتوقيع الجميع .

٢ ـــ تحديد يوم السبت ـــ بعد يومين ـــ لاجتماع آخر يقدم فيه كل فريق أسماء مرشحيه الخمسة للمجلس الأعلى ، ومعها أسماء مختاريه الخمسة لدراسة أحوال المرشحين .

٣ ـــ يلي ذلك اجتماع آخر في يوم الخميس التالي ، تتم خلاله عملية تأليف المجلس الأعلى ، بعد تصفية المرشحين من العناصر التى لا تستحوذ على قبول المزكِّين ..

وهكذا وضع المسئولون ومندوبو الغائبين توقيعاتهم في ذيل البيان ، إلا مندوب الجيلاني الذي لم يوقعه إلا بعد أن كتب في ذيله بعض التحفظات التي لا تهم أحدا غير حزبه .. واستدراكا لكل ما يتصور أن يثيره ذلك التحفظ في المستقبل أضفنا بموافقة الجميع إلى نقاط الاتفاق العبارة التالية :

إن تخلف أي منظمة عن الدخول في الميثاق لا يؤخر تنفيذه من قبل المنظمات الأخرى ، وسيظل أمر انضمامها إلى الميثاق مفتوح الباب أمامها على شرط التزامها بكل نصوصه ..

وبذلك تم ولله الحمد أفضل ما نتطلع إليه ، وطلب إليَّ المشايخ والقادة أن أختم الاجتماع بالدعاء ، وقد ألهمني المولى بعض الضراعات المؤثرة ، ختمتها بالفقرة التالية :

« اللهم وسلِّط قهرك على كل شاذٍ عن هذا الاتفاق ، أو مثيرٍ للعقبات في طريقه ، واجعله يا ربنا من المنبوذين المفضوحين ... » .

وكان الجميع يؤمنون على دعائي بحرارة تنم عن صدق النية ...



وعَمَّت الفرحة الجميع :

وهكذا غادرنا الاجتماع بعد خمس ساعات كانت حمَّاماً ساخنا لم تخفف من حرارته المراوح الثلاث ، وخرجنا متعانقين فرحين ، سائلين الله أن يُتم نعمته بإنفاذ الاجراءات المقررة في الاجتماعين القادمين ..

هذا ولا بد من الاشارة إلى أنه من الأسباب الفعالة ، في الوصول إلى هذه النتيجة ، شيوع روح التذمر في صفوف المهاجرين ، الذين حضر ممثلوهم العشرون ، إلا أنهم لم يتكلموا لأنهم وجدوا الأمور سائرة في الطريق المنشود .. ولا ننسى كذلك أثر بعض قادة المعارك الذين أعلنوا لزعمائهم

أنهم لن يقبلوا التعاون معهم إلا في ظل الاتحاد ..

وفي حديقة الجامعة أقبل العديد من الحضور ، وبخاصة المشايخ ، يهنئوننا بما انتهينا إليه ويؤكلون علينا ضرورة البقاء في بشاور حتى نشهد الاتحاد المرموق حقيقة ملموسة ...

وبمجرد وصولنا إلى الفندق اتصلنا بفضيلة نائب رئيس الجامعة الدكتور عبد الله الزائد ، نبشره بما وفق الله إليه من الخير الذي عمت فرحتُه الجميع ..

مفاجأة غريبة :

كان موعد زيارتنا للشيخ يونس بعد التاسعة ، ومن حسن الحظ أننا بلغنا الفندق قبل رسوله ، وما لبث أن وافى بسيارته الجيب ومعه آخر .. فانطلقنا بها مسافة غير قصيرة حتى بلغنا منزله في ضواحي بشاور ، والظاهر أنه قد آثره للهدوء الذي يكتنفه ثم لما يمتاز به من السعة ، فهو ذو فناءين يحيطان بالمسكن ، رأينا في أحدهما بعض الأنعام من ذوات الدر ، وفي الآخر أنواع الشجر والزهر ..

وتحت مظلة من الفسحة الداخلية لقينا الشيخ مع بعض اخوانه ، وقد جاءوا ـــ كما أخبرنا ـــ لتلاوة الأجزاء الثلاثة الأخيرة من كتاب الله في صلاة القيام . وكان مريضا يشكو التهاب المجاري البولية ، فذكرت له أن مثل هذا كان يحدث لي فأعالجه بحمَّام من بخار ورق الفول اليابس ... ولكن تعذر علينا تعريف الفول ، وَتَرَكَ لبعض من عنده أن يجتهد في الحصول على المطلوب ..

ولم يطل مقامنا لدى الشيخ فحسونا الشاي الأخضر، وعرضنا عليه ما انتهينا إليه .. وما لبث أن عقب على ذلك بخبر جديد ، وهو أن وفداً من الكويت قد أرسل إليه ، بالاتفاق مع الشيخ حسين قاضي أمير الجماعة الإسلامية في منطقة بشاور ، منشورا موقعا من جلب الدين وبرهان الدين ، وفيه إعلام بقيام اتحاد يتألف منهما ومن الشيخ خالص نفسه ، والشيخ محمد نبي ، والشيخ نصر الله منصور ، والأستاذ السياف ... ويطلب مُرسِلا المنشور من الشيخ محمد يونس أن يذيله بتوقيعه ، على أن يظل ذلك أمرا مكتوماً ..

كانت مفاجأة غريبة حقا .. وتساءلت في سري : ألا يمكن أن يكون هذا التدبير سابقا لما وصلنا إليه ؟ .. وسألت الشيخ : متى تلقيت هذا المنشور ؟ .. فقال : يوم الخميس .. أي قبل خمسة أيام ، فقلت : لعل ذلك كان قبل الاستيثاق من نجاح مساعينا ، وما الإشارة إلى سريته إلا توكيد لهذا الأمر ، على ألا يُعلَنَ إلا بعد اليأس من حصول الاتفاق الشامل ..

والحق لقد صَدَمَنا رأي الشيخ يونس ، إذ خيل إلينا أنه قد يكون ثمة تدبير معاكس ، وكلام مثل ذلك ربما لا يراد به مفهومه العربي لدينا ، ولكن الشك بين بعض الاخوة أمر سبق أن لمسناه من قبل ..

وهنا أخبر الشيخ خالص أيضا أن آخر ما وصله من أنباء المجاهدين من جماعته أن رجال « فلان » ! أحاطوا بمئة منهم ، وجردوهم من أسلحتهم ... وتطرق من هنا إلى القول بأن ضحايا الخصام بين المجاهدين في ساح القتال قد بلغوا حتى الآن عددا لا أجرؤ على ذكره هنا .. ولا حول ولا قوة إلا بالله ! ..

ويعقب الشيخ قائلا : إن من الخير أن تقفوا على حقيقة الأمر ، وتتصلوا بالشيخ حسين القاضي لبحث الموضوع واطلاعه على ما انتهيتم إليه ، فلعل



تقاربا في وجهات النظر أن يتم بينكم . ثم يؤكد ما سبق أن وعد به من أنه على أتم الاستعداد لقبول كل ما نقرره أخيرا .

وانفضضنا من عند الشيخ ، وفي عزمنا أن نقوم بزيارة لمكتب الجماعة الإسلامية ضحى الغد ، لاستطلاع الوقائع المستجدة إن شاء الله .

مع وكيل الجماعة الإسلامية :

وفي اليوم التالي ، إذ كنا على وشك التحرك نحو ذلك المكتب ، فاجأنا الشيخ أحمد جل بقلومه ، فجلسنا معه في ردهة الفندق حتى الساعة الحادية عشرة ، وقد فهمنا منه أن كل شيء يجري وفق المرام ، وأن اتفاق أمس كان بشرى سارة لكل من علم به من الاخوان .. وأنعِمْ بها من بشرى ..

ومن ثم افترقنا لنأخذ سبيلنا إلى مكتب الجماعة دون أن نعلم الشيخ أحمد بما اعتزمنا ، لئلا يتسرب القلق إلى صدور القوم .. إلا أننا لم نجد المسئول الذي نريد في البناء الفخم ذي الأدوار المتعددة ، فحملتنا سيارة الجماعة إلى منزله بعيداً عن قلب المدينة ، وهو منزل فوق المتوسط ، وعلى مدخل الفناء استقبلنا الشيخ حسين ذو السَّمت الصالح ، وأجلسنا حيث كان يستريح على شرفته المظللة . وقد لاحظنا على النضد أمامه مجلداً من « فقه السيرة » .

وتداولنا مختلف الأحاديث كان بينها استطلاعات وجهتها إليه عن القاديانية ، فكان جوابه مؤكِدا أنهم لا يزالون في المراكز العليا من مؤسسات الدولة والجيش ، وإن تأخرت منزلتهم عن الشأن الذي كان لها أيام ظفر الله خان ..

ويقول عن القاديانيين إنهم لا يزالون مصرين على نحلتهم التي كانوا عليها قبل قرار علماء العالم الإسلامي بإعلان مفارقتهم للإسلام ..

ومن هنا نطل على بعض أهم العوائق في طريق الشريعة الإسلامية ومحاولات تطبيقها في باكستان ، وبخاصة إذا أضفنا إليها ذلك الخبر الذي تلقيناه من أحد الاخوان ، وهو أن قضاة في المحاكم أنذروا الرئيس ضياء حق بأنهم سيعتزلون القضاء إذا عُيِّن بينهم أحد علماء الشريعة الإسلامية ! ..

وتطرقنا من هناك إلى حديث الاتفاق ، وكان ملخص رأيه أنه لا يؤمل باستمراره ، ومع ذلك فهو مستعد لمساعدتنا في كل ما نتوصل إليه من الخير ..

وغادرنا الرجل دون أن نشعره بخبر الشيخ خالص ، فلم يعلم أن لنا علماً بالتدبير الذي قاموا به لتأليف الاتحاد الخماسي . ولقد فارقت الشيخ وأنا أكثر اقتناعا بأن تدبيرهم لم يكن إلا ضربا من الاحتياط لا يقدمون على تنفيذه إلا في حال إخفاق المساعي العاملة للتوحيد العام ..

محاولة ذكيـة :

وفي الساعة السادسة قدم لزيارتنا أخَوان من خريجي جامعتنا ، عرفت أحدهما من قبل في مجلس الشيخ السياف ، وألقى الثاني لأول مرة هذه الساعة . وقد أخبرنا هذا أنه تخرج في كلية الشريعة قبل عامين ، وهو الآن يعمل في الجمعية الإسلامية نائبا للشيخ برهان وعضواً في شوراه ..

ووجدت لدى هذا الأخ رغبة في أن يحدثنا عن مشكلة الاتحاد وما يلابسها ، فاستأخرته ريثما أتم ما كنت أسطره من هذه المذكرات .. فغاب قليلا في حجرة الشيخ علي ، ثم قدم إليَّ مع الأخوين وقد فرغت من آخر كلمة .



وباهتمام كبير وترتيب دقيق جعل يقص علينا أخبار العمل الإسلامي في الأفغان ، منذ بدايته أيام ظاهر شاه ومروراً بأيام محمد داوود ، الذي يقول انه أشد العهود قسوة على أهل الإسلام ، لأن الشيوعيين الذين جاءوا به إلى الحكم أرادوا انتهاز الفرص لتصفيتهم ، فكان رد الفعل بدءَ العمل الفدائي بالهجوم على مراكز السلطة والتصادم مع قوات الحكومة ، وبإزاء الخسائر الكبيرة التي تكبدها المجاهدون انقسمت الحركة على نفسها ، تبعا للاختلاف على منهج العمل ، ثم تتابعت الأحداث وتطورت ، حتى انتهت إلى التقسيمات الراهنة ..

و ينتهي محدثنا من هذا العرض التاريخي المنظَّم إلى القول بأن الاتفاق الذي انتهينا إليه سيكون حظه الإخفاق كغيره .. ويؤكد أن الوفاق الناجح الوحيد هو .. ! الـذي سمعنـا خبره مساء أمس من الشيخ محمد يونس ..

ومن ثم مضى في إزجاء النصائح إلينا بأن نركز على جماعة هذا الاتفاق وحده ، وذلك عن طريق الاتصالات السرية مع أطرافه وجمعهم لدينا ، لنؤكد عليهم العهد القاطع بتنفيذه ..

ولم أكن في حاجة إلى استعمال كل تفكيري حتى أدرك أن هذا الأخ ذا الذكاء الممتاز ، والعربية الصافية ، إنما يؤدي رسالة حملها لغرض واحد هو إبطال ما انتهينا إليه ، لأن مجرد اجتماعنا بهؤلاء الأطراف على حدةٍ يسلبنا ثقة الآخرين ، الذين وقعوا على قرار الأمس ، فيخلو الجو للمسعى الآخر ، الذي يستهدف تأليف الاتحاد الخماسي ..

هذا إذا جرينا على أفضل الاحتمالات ، بيد أن ثمة (مشكلة) ليس من العقل إغفالها ، تلك هي العلاقة بين الشيخين محمد نبي ونائبه المفصول أو المنفصل نصر الله منصور .. إذ كيف يتوقع الجمع بينهما في الاتحاد المقترح بعد ذلك الاصرار على استبعاده ، الذي واجَهَنا به المولوي محمد نبي وأركانه ! ..

أجل .. إنها مشكلة .. ربما تصورت لها تفسيرا ، لكني أحب أن أحتفظ به لنفسي .. وكان لحديث الرجل أثره في أفكار زميليَّ اللذين أخذاه على ظاهره ، فلم أشأ أن أواجهه بالمعارضة واكتفيت من التعقيب على حديثه — المنظم — بأن قلت له في لهجة جازمة : لقد استخرنا الله في ما صنعناه ،

ولن ننحرف عن سبيله حتى تنجلي نهايته ، فإن واجهنا الإخفاق لاسمح الله كان علينا أن نبحث عن مسلك آخر . وقد يكون هو الطريق الذي تنوه به .

لا بد من مواصلة الطريق :

وكان الرأي منعقدا بينه وبين زميلَيَّ على أن يكون سفرنا إلى لاهور بسيارته صباح غد ، ولكنه لم يلبث أن تدارك وعده فقال إن سيارته ضعيفة لا تتحمل مثل تلك الرحلة الطويلة ، ولذلك سيستبدل بها أخرى أصلح منها . قال هذا وتهيأ للخروج فشيعناه إلى البهو ، ولما عدنا قلت لزميليّ : إن هناك محاولة لإحباط عملنا .. فعلينا أن نتماسك أمامها حتى نصير إلى نهاية الطريق . وقلت كذلك : إن الرجل قد ذهب ليأتي بواحدة من سيارات ... وكفى بهذا إعلانا يؤكد للآخرين أنا غير أهل لثقتهم ، بدليل انحيازنا لصاحب السيارة .. ولذلك علينا أن نعتذر عن السفر معه ، ونتخذ له وسيلة أخرى قطارا أو سيارة أجرة . فاقتنعا بما أوردت .. وبعد يسير من الوقت عاد ذلك الأخ وبصحبته سيارة ثانية ومعها سائقها ، ليكونا تحت تصرفنا عند الموعد الذي نقرره . وبصراحة مصقولة قدمت إليه اعتذارنا ، وقلنا له : بلّغ الأستاذ تحياتنا القلبية ، وتقديرنا الصميم ، وليكن على علم أننا غير قادرين على تغيير خطتنا التي نتوقع من وراء نجاحها مخرجا صالحاً لموضوعه إن شاء الله .. فشكر لنا وانصرف ليبلغ وصاتنا إلى محلها ، ومضى الشيخان علي وشمس ليؤمنا لنا الوسيلة الصالحة لرحلة الغد ..

أخبار المجاهدين :

بقي شيء هام فاتني تسجيله من معلومات اليوم ، ذلك أن رجلا قد زارنا فاستقبلته مع الأخوين في غرفتي ، ويبدو عليه أمائر الجد والفضل والقوة ، على الرغم من تجاوزه نهاية الخمسين فيما أحسب .. يقول أنه أمير المجاهدين في منطقة جلال آباد .. وراح يحدثنا بروائع من الوقائع ، منها أنهم في إحدى الملاحم فقدوا خمسة شهداء وأصيب بعض رجاله بجراح ، وكان محصول قتلى العدو أزْيَد من ألفين ومئتي قتيل معظمهم من الروس ! ..

وسألته كيف تم لهم إحصاء هذه النتائج ؟ فأجاب : لقد انسحبت فلولُ الأعداء يحملون جرحاهم وجراحهم ، فبعثنا إلى مكانهم من وقف على عدد قتلاهم ..

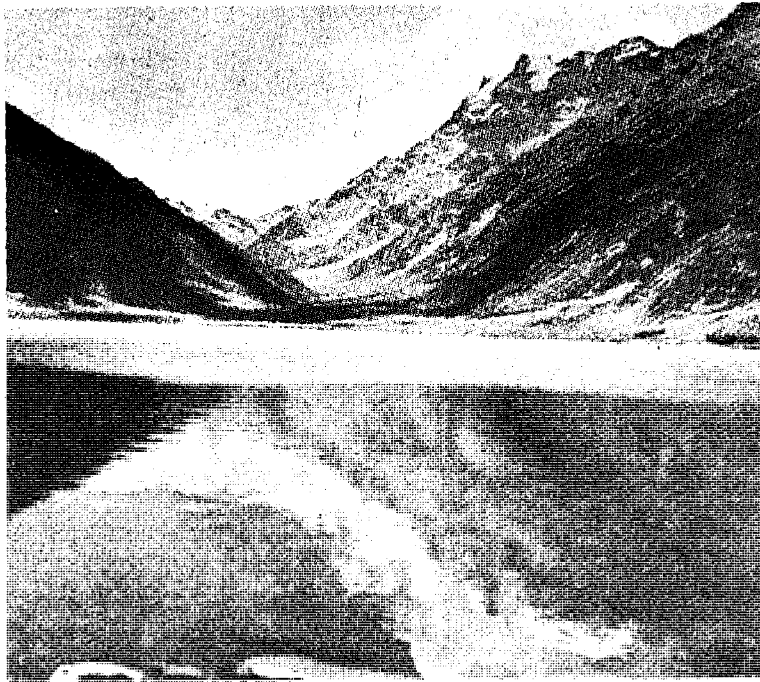
ويقول هذا الرجل : إن كثيرين من حملة السلاح في منظمةٍ (قوميةٍ) يقطعون الطريق على المسلمين ويسلبون أموالهم .. وقد انتزعنا سلاح مئة منهم ذات يوم ، وهو أمر كثير الحدوث من قِبَلِ هذه المنظمة .

وكان شمس حاضرا ذلك الحديث فعقّب عليه بقوله : إن خالاً له قد وصل أمس من الجبهة ، وقص عليهم أن قائداً من كفرة الأفغان كان في إحدى المعارك يصطاد المجاهدين واحداً بعد الآخر في مكمن له ، حتى بلغ الشهداء بناره عشرين ، ولكن الله وفقه فاكتشف مكمنه فقتله ...

وهذا القائد هو الذي أخبرنا بأنه وآخرين من زملائه قد أبلغوا رئيس منظمتهم بأنهم لن يواصلوا التعاون معه ما لم يتم اتحادها مع بقية المنظمات . وقد أشرت إلى ذلك فيما سبق ، وأضفت إليه ما حدثنا به آخرون من أن مئات من ممثلي المهاجرين قد أبلغوا مثل هذا الإنذار إلى أولئك الزعماء .. وذلك ما لمسنا أثره في اجتماعهم الأخير ، الذي أبدوا فيه رغبتهم الخالصة في انفاذ بنود الميثاق ، وما كانوا ليفعلوا لولا الغليان الذي بدءوا يحسونه في أوساط المجاهدين والمهاجرين .

تشويش مؤسف :

وفي هذه الأثناء قدم لزيارتنا كذلك أحد الفتيان العرب العاملين في صفوف المجاهدين الأفغان ، وشارك في بعض الأحاديث ، وأبدى بعض الملاحظات غير الموفقة عن المملكة بسبب المساعدات التي تقدمها إلى من يسميهم قَتَلَة المسلمين ، وإذا بالأخ الشيخ عبد الله يقفز من نطاق الموضوع ، فيرد أسباب الشقاء والمذابح التي يواجهها أولئك المسلمون إلى عبادتهم للقبور ، والاستغاثة بمن يظنون بهم الولاية من الأموات ! .. وجعل يلح على ذلك ، فنبهته إلى بعده عن أساس البحث ، وإسرافِهِ في اتهام كل أولئك المسلمين بهذه الضلالات . ولكنه بدلا من أن يراجع موقفه جعل يصرخ : أنتم لا تعرفون التوحيد ، وتكرهون الحديث عن العقيدة .. وما إلى



ذلك من تُهم لا أسرع منه إليها ، ولا يكاد يعرف من حياة المسلمين سواها .

ويؤسفني أني لم أتمالك فرفعت صوتي بطلب إنهاء الحديث . والتفت إلى الفتى المشارك في الجهاد ألومه على أفكاره عن المملكة ، وذكرته بما يلقاه إخوانه لديها من حسن الرعاية وكريم الضيافة .. وما لبث أن انصرف آسفاً لما رأى وما سمع ..

في الطريق إلى لاهور :

لم يكن سفرنا إلى لاهور داخلاً في برنامجنا ، ولكن تأخر موعد الاجتماع القادم لقادة المنظمات تَرَكَنا في فراغ لا بد من ملئه ، ومن هنا جاءت فكرة هذه الرحلة ..

وها نحن أولاء في الطريق إلى حاضرة الفكر والعلم ـــ كما يسميها بعض الباكستانيين ـــ تُقلنا سيارة أجرة جيدة يملكها أحد رجال القبائل الحرة ، ويسوقها رجل فاضل من الجماعة الإسلامية اسمه عمران نوروز .

كان طريقنا حتى ما بعد (نيوشهر) ـــ المدينة الجديدة ـــ آية في الروعة والخضرة ، فهي معرض طيب لنشاط الإنسان .. لكن الحيوان والطير

الأهليين ظلا قليلي الظهور ، وكذلك الآلات الزراعية كانت قليلة ، ثم جعلت تتكاثر كلما أوغلنا في المسير ..

على مبعدة قليلة من بشاور التقينا بعضَ السيارات وفي إحداها جنازة ، ثم أطل علينا من خلالها الشيخ عبد السلام إمام مسجد أهل الحديث ، الذي أدينا فيه أول صلاة ساعة وصولنا إلى بشاور ، فاستوقف السائق وهبط إلينا ليخبرنا أن في التابوت جثمان صبيةٍ في الثانية عشرة ، هي بنت أحد السلفيين من التجار ، وقد طعنها أخ لها في الخامسة عشرة بسكين فقتلها وولى هاربا ! ..

رافقنا خلال مسيرة طويلة من الطريق فرع عظيم من نهر كابول ، يصب فيه ثلاثة أنهر ، وهو الذي يشق وسط بشاور ، ويتدفق إلى (أبا سند) الذي يُلقى حمولته في نهر السند .

هذه (لاهور أصغر) قرية صغيرة ، ذات جو لطيف مثل نيو شهر ، المدينة الآخذة في النمو وفيها المركز العسكرى الممتاز .

السد العظيم :

وبعد أكثر من ثلاثين كم وصلنا إلى سد (أبا سند) الذي يُعد ثاني أعظم سدين في الدنيا — كما يقولون — وما أدرى إذا كان المراد بالأول هو سد (بولدر) في الولايات المتحدة ، الذي يبلغ امتداد حائطه أكثر من مئة وخمسين كم — فيما قرأت — وسد أبا سندٍ هذا قد صمَّمه وأشرف عليه مهندس إيطالي عالمي أيام محمد أيوب ، ثم حدث فيه بعض الشقوق فانتحر غماً ، وأعلن قبل موته أن التشقق قد جاء من خيانة المنفذين الذين خالفوا تقديراته .. ولكن الله سلم وحفظ السد حتى الآن سليما .

إنه ذو امتداد هائل ، وارتفاع رهيب ، تحدق به سلسلة من الجبال دُعِمَت بأمثالها من عوارض الخرسانة وخُطَّت في متونها ممرات يصعد عليها إلى الأعالي بمئات الدرجات .. ومن حافات الطريق المشرف على أسافل السد وقفنا نَسْتشرف ذلك الوادى العميق المزروع بغابات الكبلات ، الناقلة لتيارات الكهرباء إلى مختلف الأرجاء من باكستان ..

وها هنا الدفاقات ــ التوربينات ــ العملاقة تدفع الماء بقوة جبارة ، فينتشر في الفضاء كسحب البخار ، ثم يتهاوى حتى يستقر في المجاري سيولاً تحرك وتضيء وتبث النشاط في كل شيءٍ ..

واستأنفنا السير في أكناف الجبال حتى استوينا في أعلى إحدى القمم من جبال (تريبلة) على مشهد من جبلَيْ (جندف) و (مردان) حيث نطل على مُجَمَّعْ المياه ، الذي قد استحال بحراً على مد البصر ، بطول مئة وخمسين كم ، وعرض ثلاثة كم ، بعد أن أزيل من طريقه ثمانون قرية ..

هذه المخارج الزلاقة المعدة لتصريف الزائد من مياه السد عند الحاجة تنحدر تحت أبصارنا حتى سطح البحر أو البحيرة ..

انه لمنظر هائل يشهد بعظمة الله ، الذي ألهم الإنسان كل هذا العلم ، ومنحه القدرة للقيام بكل هذا الإبداع ..

كل شيء هنا عظيم وجميل ومنظَّم .. حتى المخافر المنثورة على امتداد منطقة السير ، لا تسمح لسيارة بالعبور إلا بعد الاستيثاق من هُويتها ..

وما أقرب الشبه بين هذه المناظر ومشاهد الهَدى والشّفا حول الطائف .. لو ضَمَّ الهدى والشفا مثل هذه العطايا الإلّهية من روائع المياه ! ..

الطريق كله يشق المرتفعات في منحنيات متلاحقة ، تذكرني بطرق صلنفة وكسب بسورية ، والضنية وعاصون في لبنان ..

منظور جديد لراول بندي :

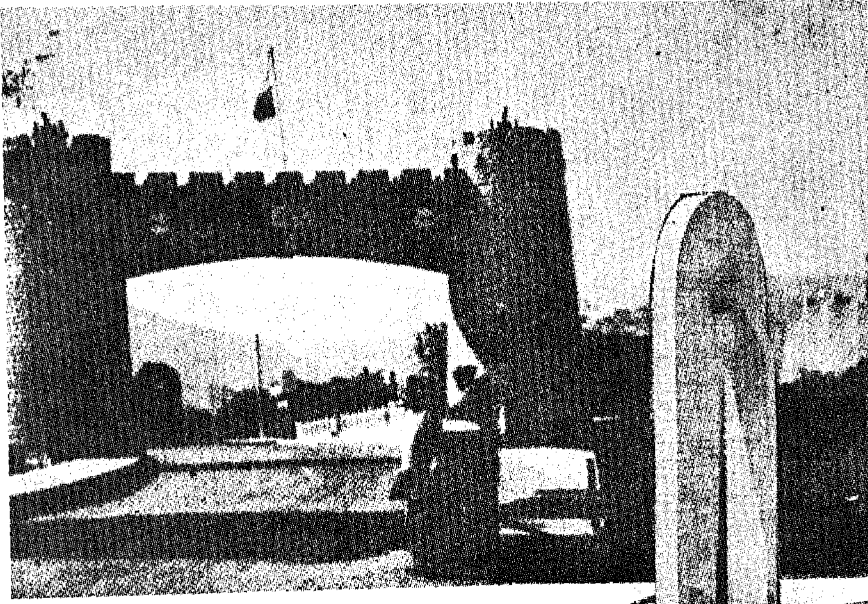
وعلى بعد ٢٥ كم من راول بندي وباتجاه لاهور عبرنا ممراً بين صَدَفَينِ قيل لنا إنه مبدأ حدود البنجاب .. وقد بدت لنا الأرض خلال هذه السيرة خيراً مما خبرنا أثناء رحلتنا إلى بشاور ، إذ كان نشاط الإنسان فيها أبرز ومردوده أكثر .

وها نحن أخيراً في أحضان راول بندل ، التي لم يتح لنا من مشاهدها قبل اليوم إلا قليل .

لقد دخلناها من شارع لا عهد لنا به ، واسع مشجّر كأحسن ما تكون الشوارع جمالا وسعة وتنظيماً وتنسيقاً ، فما أقربَه من شوارع حلب ، التي قال فيها أحد شعراء الماضي المجيد :

سقى حَلَباً سافكٌ دمعُه بطيء الرقوءِ إذا ما سفكْ

ميادينها وسطهنَّ الرياضُ وساحاتها وسطهنَّ البُـرَكْ
إذا هبت الريح من فوقها ترى شبكاً فوقها أو شركْ





نفط وغاز :

وها نحن ــ مخرجَنا من راول بندي ــ نمر ببعض آبار النفط الباكستانية ، وقد قيل لنا إن هناك آباراً أخرى للنفط في مناطق (جنك) و (نوتكي) وأكثر ما يكون النفط الباكستاني في البنجاب والسند ، ولكن مجموع ما عثر عليه حتى الآن لا يسد أكثر من ٢٠ ٪ من حاجة البلاد .

ونمر أثناء الطريق بالاستراحات الشعبية ذات المقاعد المستطيلة ، المرضونة بالخوص والحبال ، فَتُذَكِّرُنا بأخواتها في طرق المملكة ، وما أكثر

ما انتفعنا بها ما بين المدينة وجدة ..

وتعبر بنا شاحنتان كبيرتان تحملان جرار الغاز ، ولما استوضحنا خبرها علمنا أنها من موارد محلية ، وأن في البلاد ما يكفيها من هذه المادة ، وذُكِر لنا أن ملء الجرة من الغاز زنة ٢٥ رطلاً يعدل ٣٥ روبية . والظاهر أن أوعية الغاز لا تباع هنا بل تعامل بطريقة الاشتراك ، فعلى المشترك أن يدفع لجهة التعبئة تأمينا لا يقل — وربما يزيد — عن ٨٠٠ روبية ، ثم يدفع ثمن كل تعبئة على حدة ..

آثار السيول :

والسالك ما بين حواضر باكستان لا يخطىء بصره رؤية هذه الأخاديد الكثيرة جدا ، والتي أحدثتها السيول الجارفة فمزقت الأرضينَ ، وتركتها على وضع تتعذر الإفادة منه للزراعة أو البنيان . وهو نفس الحال الذي شاهدنا مثله من قبل في أراضي الهند ، إلا أنه يبدو لي هنا أكثر انتشاراً .. وسبحان الله الذي وزع الماء كيف يشاء ، فجعله في مكان ما حياةً وجمالاً ، وفي مكان آخر موتاً ودماراً ، وحجبه عما يشاء من البلاد فعَرَّضها للتهلكة والهجران ، حتى تكاد تعود قفراً يباباً ..

والعجيب في هذا أن الإنسان ، الذي غزا الكواكب ، وسخَّر الهواء والماء ، واستكشف مخبآت الأرض ، قد عجز عن مواجهة هذه الأحداث الكونية بالتدابير الضابطة لمفاجآت السيول ! . ولا ندري متى يتحرر الإنسان من هذا العجز ، فيحوِّل تلك الطاقة المخربة إلى وسيلة إنقاذ تملأ الوجود بهجة وخصبا ورخاء ..

بين جهلم وكجرات :

وتتابع المرئيات على جانبي الطريق . فهذه (جهلم) المدينة الصغيرة ، التي زارها قبلنا إمام الحرم المكي الشيخ السُّبَيِّل فأدى فيها صلاة الجمعة وخطبتها .. ثم ها هوذا القسم الآخر من المدينة ويسمى (سراى عالمَكير) وهو مركز تجاري وزراعي مشهود . وطوال الطريق كانت السيارات متصلة السير عن يمين وشمال ، ولكنها أقل فِرةً مما ألفناه في الدول الأخرى .. وبخلاف ما عليه الأمر في الهند ، تراها من مختلف مصادر وشتى الأصناف ، وربما كان النوع الياباني هو الغالب .. على حين لا تكاد ترى

في الهند سيارةً من غير مصانعها .. وهذا ما حداني إلى التساؤل عن موقف باكستان من هذه الصناعة ، وهي التي تعتبر من الدول الإسلامية المتقدمة في ميدان الصنائع ، ولا سيما في نطاق الأجهزة الكهربائية .. وكان الجواب مطمئنا بعض الشيء ، إذ قيل ان ثمة عناية بهذه الناحية، وبخاصة ما يتعلق منها بلوازم السيارات من قطع التبديل ، وأُطُر المطاط ..

وفي هذا الطريق مررنا بـ (كهاريانو) التي تُعَدُّ من أكبر المراكز العسكرية .. وهي مدينة ريفية كثيرة الخضرة فسيحة البقعة ، واخترقنا وسط (لا لاموسى) التي تحتوي أكبر مصانع السجاير وهي الأخرى بلدة ريفية متوسطة الحجم رحبة الساح ، ومعظم سكانها من الشيعة .. ومن ثم دخلنا منطقة كجرات التي كانت من نصيب باكستان بعد التقسيم ..

وحدثنا سائقنا الفاضل ذو الخبرة الواسعة بهذه الأنحاء أن الاستهانة بحرمة رمضان كانت من الأمور المألوفة في كجرات هذه ، بل في البنجاب كلها ، وقد بدأ الوضع يتغير منذ قيام حكومة ضياء الحق ، إذ بات المفطر معرَّضاً للعقوبة الشرعية .. ومن هنا كان اختفاء تلك الظاهرة على امتداد تلك الأرجاء ..

إن كثرة المصانع في كجرات الباكستانية تذكرنا بأختها في كجرات الهندية ، التي تعتبر من مراكز الهند الصناعية الكبرى ، ولعل مرد ذلك إلى الاتجاه العملي الذي يميز سكان كجرات كلها ، فلما جزئت الولاية استمر كل مِن قسميها في نشاطه الدائب .

الإفطار في كجرنواله :

ومضينا فوق نهر (جنانو) العريض جدا ، لنخترق العديد من المدن والقرى التي لا تنقطع طوال الطريق ..

ولقد أدركنا الغروب على أبواب (كجر نواله) وهو الاسم الذي طالما واجه بصري أثناء العمل في لجنة المعادلات بالجامعة الإسلامية ، فذهبنا نبحث عن طعام نكسر به الريق ، وبعد لأي وقفت بنا السيارة عند أحد المطاعم الشعبية ، التي لا تستهوي الناظر إلا أن يكون في مثل حالنا من الجوع والصوم ..

ولم يكن ثمة مجال للاختيار ، إذ ليس هنا سوى الدجاج واللحم .. وقد

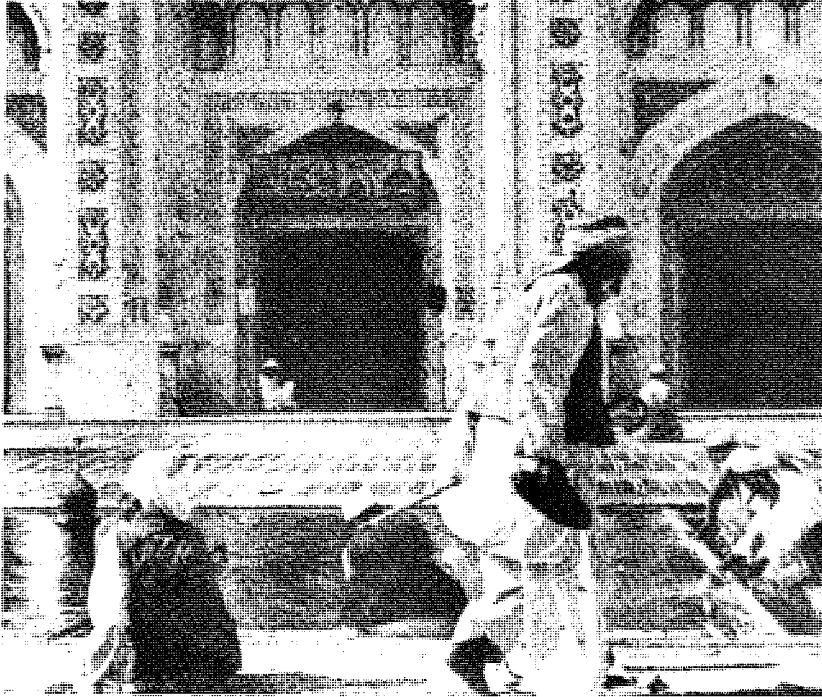
صُفَّت أفلاذها بين يدي الشوّاء يدفع بها إلى النار منظومة في الأسياخ . وكان الزحام على الطعام غير قليل ، فاضطررنا للانتظار طويلاً حتى أقبل العامل بمطلوبنا من الدجاج على صحاف لا تُسيل اللعاب ، فضلا عن مظهره الذي لا يسر الأعين .

ولكن والحق يقال لقد كان طعاما بالغ اللذة ، وزاده متعة ذلك اللبن الذي خُلِط من التوابل بما جعله من أحسن المقبلات . وذلك الخبز المحلي الذي امتازت بصنعه الهند وباكستان .

ذكريات عند لاهــور :

وفي ضواحي لاهور طلعت علينا وجوه المصانع بكثرة تسترعي الانتباه ، ويقال إن أكبرها كان مخصصا لانتاج الخمور أيام بهوتو ، فأصبح الآن مصدراً لكثير من المصنوعات النافعة .

ويقول السائق الخبير عمران إن عهد بهوتو كان شؤما وبخاصة على البنجاب ، التي تؤيده كثرتها ، فقد تتابعت السيول المخربة للقرى والمزارع ، وشحَّت الغِلال ولا سيما الحنطة ، حتى اضطرت البلاد إلى



استيرادها من أمريكة ثم ما إن زال عهد بهوتو حتى انقشع البلاء وفتح الله أبواب الخير ، فقل ضرر السيل وكثر نفعه ، حتى عادت البلاد تُصدِّر البر ، وحتى ضاقت بفائضه المستودعات .

ويحلف شمس بالله انه يعرف هذه الجادّة غارقة في أعماق السيل قبل ضياء الحق ، فما إن تولى السلطة حتى انتظمت حياة الناس ، فلم يعودوا يرون تلك المخرّبات إلا قليلا وبقدر ذنوبهم .

وأنا شخصيا لا أستبعد ذلك ، إيماناً مني بقول الله تبارك اسمه ﴿ ولو أن أهلَ القرى آمنوا واتقَوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض ، ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ ٧/٩٥ .

ولا غرابة في شيء من هذا بنظر كل مؤمن يوقن أن الكون كله لله ، وأنه تعالى أتحف البشرية بالشرائع التي تساعدهم على تنظيم حياتهم ، وتمدهم بالحلول السديدة لمشكلاتهم ، فكل التزام لها مؤدٍّ بهم إلى الخيرات والبركات ، وكل انحراف عن سبيلها قاذفٌ بهم في التهلكات .

ولقد ذكرني هذا الحوار بالعبرة التي لا ينبغي للسوريين أن ينسوها أبدا ، وذلك أن وزير الزراعة الاقليمي في عهد الوحدة مع مصر ، قد وقف في موكب من الوزراء والكبراء يفتتح سدَّ الرستن ــ بين حمص وحماة ــ فكان مما قاله يومئذ (بعد اليوم لن نحتاج إلى السماء ...) وسرعان ما جاء رد السماء رهيبا مهيبا ، إذ قطع الله الغيث عن البلاد كلها طوال السنوات الثلاث التي استغرقها وجوده ورفاقه في الوزارة ثم لم يكادوا يغادرونها حتى فتح الله أبواب الرحمة ، فعاد الخير والخصب إلى ربوع الشام ..

وصدق الله العظيم القائل في كتابه الحكيم ﴿ أوَلا يرون أنهم يُفتنون في كلِ عام مرةً أو مرتين ثم لا يَتوبون ولا هم يذَّكرون ﴾ ٩/١٢٧ .

في ضيافة الشيخ فضل الحق :

ويأبى الشيخ علي إلا أن يُحوِّل طريقنا إلى منزل بعض أصدقائه من آل (ميا فضل الحق) لكي يختاروا لنا الفندق المناسب في لاهور .. ولكن ما إن اهتدينا إلى ذلك المنزل حتى فقدنا قياد أنفسنا ، إذ أبى القوم إلا أن نكون ضيوفهم .

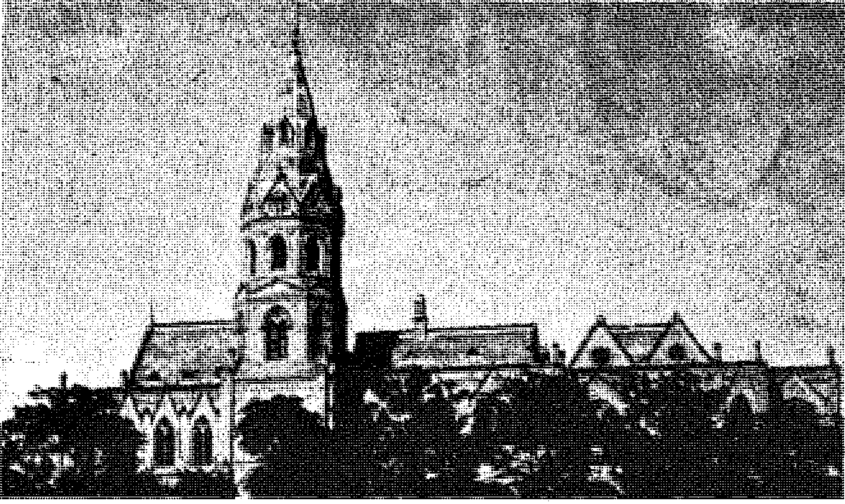
ومنذ الساعة الأولى شعرنا أننا في بيت معتاد استقبال النزلاء ، وهو على استعداد للترحيب بهم في أي وقت وفدوا ، وقد علمنا أن العديد من علماء المملكة ، وبينهم إمام المسجد النبوي الشيخ عبد العزيز بن صالح ، قد سبقونا إليه .. ذلك لأن أسرة الشيخ ميا فضل الحق ، قد جمع الله لها بين اليسار والدين ، فهي المنشئة للجامعة السلفية في فيصل أباد ، والمصدر الأول لتمويلها ، ويجمع الشيخ بين رئاستها والأمانة العامة لأهل الحديث ، وهو الذي يمد مؤسساتها التعليمية بالعون السخي ، وهو كذلك من كبار رجال الأعمال ، وتمتد تجارته إلى كراتشي ومختلف المدن الباكستانية ، وله الأملاك الواسعة من بساتين الفاكهة وغيرها ، وله كذلك مشاركات في بعض المصانع ذات الانتاج الكبير .. وعن هذا الطريق جاءت صلته الوثيقة برئيس الدولة ، الذي اعتاد أن يدعوه واخوانه للتشاور معهم بين الحين والحين ..

ولآل الشيخ منجم للفحم الحجري في ضواحي (فيصل أباد) يستوعب جهود عشرات العمال والفنيين ، ويصرّف انتاجه داخل باكستان ، لاستعماله في مختلف الصناعات ، وبخاصة في أفران الآجر .. ومما يذكر أن بهوتو قد حاول الاستيلاء على ذلك المنجم الواقع في أملاكهم ، ولكن الله حماه من تخريبه الاشتراكي ، الذي لا يعدو نقلَ ملكية الشيء من أصحابه إلى عصائب الطفيليين من أنصار المتسلطين ..

مشاهد من لاهور

الجمعة : ١/٢٣

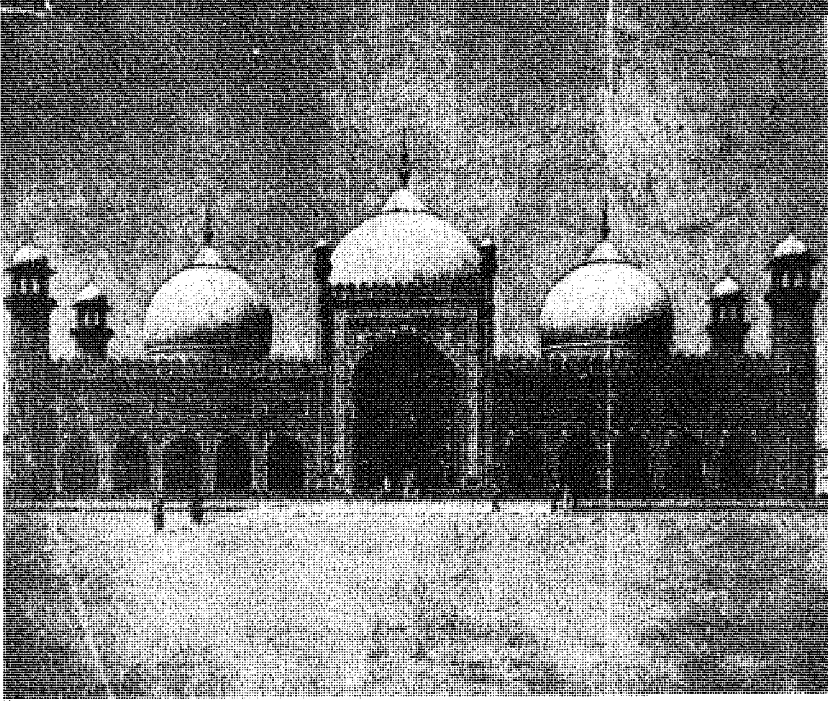
اغتسلنا للجمعة وخرجنا مع الاخوة لمشاهدة بعض معالم لاهور ـــ ذات الأربعة الملايين في حساب أحد الإخوان والمليون والنصف فقط بتقدير أحد المؤلفين ـــ وشرعنا نواجه ميادينها الرائعة ، وطالعتنا جامعة بنجاب الكبرى ، ومنها أطلت علينا الكلية التي تخرج فيها شاعر الإسلام محمد اقبال ، ثم إلى (ميدان اقبال) الفسيح جداً ، وفي أحد قسمَيهِ تم انعقاد مؤتمر أهل الحديث الذي حضره بعض ممثلي جامعتنا الإسلامية .. وعلى الشطر الآخر من هذا الميدان ينتصب (مينار باكستان) ذلك البرج الذي يشرف على سائر أنحاء لاهور .. وقد أقيم هناك تذكارا لقيام باكستان ، وعلى البقعة التي أُنشيء فيها





ألقى محمد علي جناح بيانه الأول ، الذي أعلن فيه بروز الدولة التي كانت ـــ على تعبير أول رئيس لوزرائها لياقة علي خان ـــ هبة الإسلام ..

هذا البرج تحفة مدهشة من الفن الهندسي ، ينهض على قاعدة واسعة



يصعد إليها بدرج ، وقد فرشت بأجمل الرخام المجزَّع صُعُداً إلى مدى ١٩٦ ذراعاً وستة انشات ، وقد وقفوا به عند هذا الحد توقيراً للمسجد العظيم المواجه له ، وهو من تراث الملك الصالح أورنك زيب ، وإليه ينسب إذ يسمى حتى اليوم بمسجد الملك .

وقد بُنِيَ هذا المنار على صورة اسطوانة كالمئذنة ، تدعمها أقواس عالية تنتهي بانحناء على جدرانها ، التي ثبتت عليها ألواح من البلاط النقيّ ، نقشت فوق بعضها أسماء الله الحسنى ، وكتب على بعضها الآخر تاريخُ بعض الأحداث .. وفي داخل الاسطوانة الفخمة يقوم المصعد الصغير الذي لا يتسع لأكثر من خمسة أشخاص ..

ومن أعلى هذا البرج الهائل الرشيق أشرفنا على سائر أنحاء لاهور ، ولعل أهمها وأهْيَبَها مسجد الملك ، ذو السعة الباهرة ، والمآذن السامقة الرائعة ، ثم (قلعة لاهور) المقابلة ، ويقال انها من بناء بابر رأس الأسرة التيمورية ، وإلى الغرب من البرج يتدفق نهر (راوي) الذي وصف لنا بأنه ثالث أنهار باكستان ..

لم يُقَدَّر لنا أن نستكمل متعتنا من هذه المشاهد الآسرة بسبب الأمطار التي كانت تنهمر كأفواه القرب ، ولم يكن ثمة ملاذ نلجأ إليه سوى حُجَيرة المِصعَد التي لم تستطع حمايتنا من دفقه ، إلا أن حارسه اللطيف لم يلبث أن أدركنا فهبط بنا إلى المستودع الأسفل ، وأضاء لنا ظلمته .. وهناك انتظرنا حتى خف الدفع فخرجنا إلى القاعدة ، حيث كان الأطفال والشباب منتشرين فرحين يصيحون ويتقلبون بثيابهم على البلاط الذي استحال إلى ما يشبه البحيرة ..

في مسجد الملك :

وتحت المطر الذي أغرق ثيابنا هرعنا نحو السيارة التي وافتنا إلى مَقربة من القاعدة ، ومن ثم انطلقتْ بنا نحو المسجد .. الذي طفح فناؤه بالماء ، فكان علي أن أخوضه بجوربيَّ اللذينَ لم أخلعهما لأني لبستهما على وضوء ، ولو جَرَّدتُ منهما قدميَّ لاضطررت إلى وضوء جديد ، وفي ذلك مشكلة جديدة يتعذر عليَّ حلها ..

وأول ما واجهنا من المسجد جناحه الذي مُلِيء بالنساء ، ولعله مخصص لهنَّ ، وقد لفت نظري منهن انشغالهن بالأحاديث الخاصة عن كلام الخطيب ، الذي كان يهدر بما يشبه صياح المدرّب العسكري يوزع أوامره على الجموع الغفيرة من جنوده ، وقد ضاعف من رنته الحماسية دويُّ المكبر الذي جعل صداه يتردد في مختلف الجهات ..

والمسجد رحب الساح ، فسيح الأرجاء ، يتسع داخله للآلاف ، ويستوعب فناؤه أضعافهم .. وكان الملك الصالح عالمكير قد بناه ليكون جامع المسلمين كلهم في الجُمَع والعيدين ، وعلى هيئة معظم المساجد يمتد قسمه المسقوف أضعاف عرضه ، وقد صُفِّح صدره بألواح الرخام الأبيض والسُّماقيّ ، مفصلةً بأنواع الزخارف ، ونسِّقت على سقفه ، وعلى منحنيات مداخله ، أفانين أكثر روعة من هذه الزخارف التزيينية .. والظاهر أنها قد أُحدثت من جديد ، لأن السيك أثناء حكمهم البنجاب هدموا مآذنه وأحرقوه ثم اتخذوه اسطبلاً لخيولهم .

وقبل أن أباشر ركعتي التحية دُعيت للكلام ، وفسح لي الخطيب الضخم

مكانا بجانبه ، فلم يبق أمامي مجال للاعتذار ، ولكنني صممت ألاَّ أزيد في متاعب السامعين ، بعد أن واصل الخطيب كلامه الملَوِّي كصفارة الإنذار إلى الساعة الثانية ، فحددت لنفسي الموضوع بحيث لا يزيد عن ربع الساعة ، وجعلته تذكيرا بوحدة المسلمين ، وأمل العالم الإسلامي في باكستان ، التي قامت للإسلام وبالإسلام . وركزت على وجوب التزام سبيل المؤمنين بتقديم الولاء لله ولرسوله على كل شيء ..

وقد تولى الخطيب (العنتري) ترجمة كلماتي ، فكان يؤدي ما أقوله في دقيقة ضمن خمس دقائق مثلا ، ويكثر أثناء ذلك من ذكر النبي ﷺ لكي يثير حماسة السامعين فيمسحوا أعينهم بأصابعهم على عادة المقلدين ، وهكذا جعل من تلك المناسبة فرصة ليثبت في أذهان القوم براعته الخطابية على النحو الذي يستهوي عامتهم .. ذلك لأن ميزة الخطيب المِصقَع هنا ــ كما فهمت من الشيخ عبد الرحمن أزهر ــ أن يكون قادرا على مواصلة الكلام عدة ساعات ، ويضرب على ذلك مثلاً أن (فلانا) قد استغوقت خطبته ذات يوم سبع ساعات تامات ! ..

وقد نسي هذا الأخ أن لو كان في طول الخطبة خير لآثره رسول الله وتلاميذه الراشدون ، وهم أبلغ البشر لا العرب فقط .

وعدت إلى تحية المسجد ، وبعد انتظار قليل يسر الله فختم الرجل خطبته .. وأقيمت الصلاة ، ومن ثم أخذنا طريقنا إلى ساحة المسجد التي غرقت بالماء بين عناق المصلين ومصافحتهم .. وبصعوبة كبيرة خلصنا إلى السيارة ..

المتسول الأبي !

وعلى الرغم من انشغال كل شيء بسحائب المطر لم ينشغل المتسولون عن متابعاتهم ، وكان بينهم رجل متين البنية شديد الأسر ، لحق بسيارتنا إلى حيث وقفتْ ، وناوله الشيخ علي خمس روبيات فأمسكها بطرفي اصبعيه وهو يقول بالعربية : ما هذه العطية ؟ .. احتقارا لها واستصغاراً ..

ولقد كان المتسولون ولا يزالون من أسوأ المزعجات لنا أينما اتجهنا .. ويقول أخونا شمس وغيره ان كثيرين منهم مستغلون استمرؤا الاستجداء

دون ما حاجة إليه ، بل على اعتباره ايسر سبيل للارتزاق ..

وقادنا مضيفنا الكريم الشيخ فضل الحق إلى ضريح المرحوم محمد إقبال .. ومرة أخرى نضطر إلى خلع نعالنا بعيداً ليسمح لنا بدخول المقصورة التي تحتويه ..

عند ضريح شاعر الإسلام :

لقد بذل أهل الفنون من حُذَّاق النحت والنقش والخط في هذه الحجرة ، التي لا تزيد عن عشرين متراً مربعاً ، أبرع ما يملكون من طاقة الإبداع ، فهي من الخارج تبدو كمسجد صغير ، تنهض على جدرانه تماثيل المنائر الصغيرة ، فإذا دخلتها وجدت نفسك تلقاء الجَدَث ، الذي هو عبارة عن بَنِيَّة من الرخام على ارتفاع نصف المتر ، تقوم وسط القاعة ، وتحتل معظمها ، ويتوسط البَنِيَّة مسنَّم يرمز إلى القبر ، وعلى رأسها شاهد من نفس رخام القبر الأبيض النفيس ، الذي يكاد يكون شفافا ، كتبت عليه بعض كلمات الشاعر الإسلامي الكبير ..

وفي أعالي الجدران الأربعة الواح من الرخام نُقِشت عليها آيات من القرآن العظيم ، وعلى كتفي المُسَنَّم من بنية القبر أقيم تمثالان لقنديلين نُحِتا من الرخام نفسه .

وأثناء تأملنا في هذا المعرض الفني دخل عدد من الزوار لم يلبثوا أن انتظموا صفاً من ناحية القدمين ، راحوا يرفعون أكفهم ويتمتمون .. وأحببنا أن نعرف ما يقولون فسألهم الأخ الأستاذ عبد الرحمن أزهر فأجابوا : نقرأ الفاتحة .. وهو التقليد المألوف لدى عامة المسلمين في كل مكان .. ولكن أخانا الشيخ عبد الله أبى إلا أن يدخل معهم في حوار ، فكلف المترجم أن يقول لهم إن الفاتحة نزلت لهداية الأحياء ، ولا علاقة لها بعالم الموتى ، فكان جواب أحدهم الحاسم : لقد جئنا لنقرأ الفاتحة لا لندخل في نقاش .

في قلعة لاهور :

ومن ثم اتجه بنا المضيف الكريم إلى قلعة لاهور القريبة . وبعد لأي سمحوا لنا بدخولها ، وكان المطر قد بلغ أشده فَحَرَمَنا الكثير مما كنا نتوق إليه ، ومع ذلك فإن الذي شاهدناه أكد لي أن القلعة مبنية على طراز الحمراء

في دهلي وقلعة أكبر في اكرا .. الطراز المغولي نفسه بشرفاته وقصوره وتحفه الفنية ، مع اختلاف في كثافة الزخارف في دهلي وأكرا . على أن هنا جناحا من القصر الخاص يفوق ما رأيناه من مثله في الأُولَيَينْ ، ويسمون هذا الجناح (بيت الزجاج) ..

وقصارى القول عن هذا الجناح أنه مَغنىً كامل يتألف من غرف عدة ، يتوسطها إيوان بطول عشرين متراً ،مكشوف الواجهة ، ويقوم على اثني عشر عموداً موزعة على ست قواعد مغمورة بالنقوش من أعلاها إلى أسفلها .. وقد صُفِّحَت جدران الإيوان الثلاثة مع السقف البديع بقطع صغيرة منظمة من زجاج المرايا ، بحيث تُريكَ شخصك في عشرات الأشكال .. وعلى ارتفاع متر من أرض الإيوان ذات الغطاء الأنيق من الرخام المختلف الألوان ، تقوم واجهات عدة على كل قسم من الجدران ، تعرض أشتات الصور من تاريخ القصر ، وهي مغطاة بصفائح الزجاج حماية لها من العبث .

وهكذا يتجلى السقف كذلك في أبهى حلاه من ذلك الزجاج ، على صورة تدهش الناظرين ، وتعجز الواصفين .. ولا ريب أنه أروع ما يكون منظراً إذا انعكست عليه الأضواء ، إذ تبدو مرصَّعاته الزجاجية أشبه بالنجوم المتحركة .

فإذا تجاوزت الإيوان إلى ما وراءه وما على جانبيه من الغرفات ، رأيت هذه الزخارف تلاحقك في الجدران والأسقف ، ولكل منها طرازها وألوان زخرفها وأشكالها .

ويقول الأخ عبد الرحمن أزهر إن (رنجيست سنكه) عندما انتزع البلد والقلعة من أيدي المغول سلب من الغرفة الرائعة ، الخاصة بزوج الملك ، كلَّ ما كان فيها من النفائس والحلى والنوادر ..

صور من التاريخ :

ورنجيست هذا زعيم السيك ، الذي كان له دور رهيب في حركة الشيخ أحمد عرفان الشهيد وزميله الشيخ إسماعيل ، إذ اضطرا إلى الدخول معه في معارك طاحنة لرفع كابوسه عن المسلمين ، الذين سامهم ضروب القتل والإذلال .. وقد سبق أن قرأت عن هذه المعارك .. ولكنني لا أذكر الآن

كيف انتهت بين الفريقين ..

والعجيب الغريب أن في القلعة هذه متحفَيْن لآثار السيك ، تُعرض فيهما صور زعمائهم ونسائهم وأبنائهم وأسلحتهم وآلاتهم ومظاهر جبروتهم وكذلك تعرض صورٌ عدةٌ لحلفائهم الانكليز .. دون أن نرى بينها واحدة للمسلمين بناة هذه القلعة التاريخية ! ..

ثم غرابة أخرى وهي أن بين هذه الرسوم ما يمكن أن يعد من التحف العالمية التي لا أكاد أصدق أنها من مصنوعات ذلك العهد .

بقي أن نذكر أن هذه القلعة من انشاءات جهانكيز ــ ١٦٣٠ م ــ وانتزعها السيك من أبنائه في القرن الثامن عشر حسب ظني .

ولعل من المحزنات اللاذعة أن رنجيست ، هذا السفاك المدمر لملك المسلمين في هذه الولاية ، قد دُفِن رماده بجوار المسجد الملكي ، الذي بناه الشهيد أورنك زيب ، وأقيم حول حفرته بناء تعبت أيدي البنائين والنحاتين في صنعه .. ولقد شاهدت قبته الرئيسية مصفحةً أو مطليةً بالذهب .. ولا شك أنه لا يراد بهذا إلا تحدي المسلمين بتذكيرهم انتصارت أعدائهم ، كالشأن في تمثال ذلك المجوسيّ الآخر (شيوه جي) القاتل غدراً بطلَ الإسلام عالمكير أورنك زيب ، ومع ذلك تنهض تماثيله في أبرز ساحات بومباي تخليداً لذكراه ، واعجاباً بغدرته النكراء ..

وكان آخر ما شهدناه من قلعة لاهور مدخل الفيل الملكي ــ أو الفيلة ــ الذي يبدأ من ساحة الفناء السفلى .. وهو عبارة عن مدخل عريض لا يزال يعلو شيئا فشيئا في خط دائري ، حتى يصير بالركب الملكي إلى الموضع المنشود ، ويكاد يكون صادراً عن التصميم نفسه الذي يخطِّط هذه الأيام لعبورَ السيارة إلى أعالي القصور ، أو المتنزهات المُعَلَّقة ..

السيل .. السيل :

وكانت النية أن تتم جولتنا بدخول حديقة الحيوان ، التي حُبِّبت إلينا زيارتها ، ولكن الوقت قد ضاق عن ذلك ، واتفق الإخوة على إرجائها إلى فرصة أخرى ، يكون المطر فيها أقل هطولا ، والشوارع أسهل لمرور السيارات .. ولن يكون ذلك إلا بعد تصرف المياه التي غمرت معظمها ،

حتى لقد رأينا ناسا يخوضونها إلى الرُّكَب وهم يدفعون سياراتهم أو ركشاتهم ..

وعند مفترق بعض الشوارع سمعنا من يقول : إن منزلاً في هذا الحي قد جرفه السيل فقضى على سكانه الستة جميعا ..

وبإزاء هذه المشاهد والفجائع وجدتني أتساءل : هل عجزت الهندسة الباكستانية عن مواجهة هذه الطوارىء الكثيرة والمألوفة بالاحتياطات الضرورية قبل هجومها ؟ . وتذكرت هنا ما رأيته وسمعته عن أشباه هذه الكوارث في الهند وحتى مصر ، حيث تُنذِر بعض المنازل عن نفسها بوشك الانهيار ، ثم لا يتحرك المسئولون عن حماية المساكين إلا بعد سقوطها على رؤوسهم .

ولماذا يكون هذا وأمثاله من الرزايا خاصا بهذا الشرق المظلوم وحده ؟ ! .

ملة الكفر واحدة :

وفي الطريق إلى منزل المضيف مررنا بـ (مسجد مسلم) وأخيه (مسجد الشهداء) اللذين دخل ذكرهما التاريخ ، منذ اليوم الذي انطلقت منهما زحوف المسلمين لاسقاط حكومة بهوتو .. وبدأت دماؤهم تخضب ساحاتهما بأيدي زبانيته من المرتزقة ، ثم من الوثنيين الذين استقدمهم من أقاصي البلاد لاستكمال المجازر ، بعد أن امتنع الكثيرون من مسلمي الشرطة والجيش أن يُقدِموا على قتل إخوانهم ..

وعلى ذكر بهوتو وعهده أنقل للقارىء ما تتناقله آخر الأنباء عن ولده ، الذي كان وراء اختطاف الطائرة الباكستانية إلى كابل فدمشق ، ذلك أنه قد لجأ إلى بابرال كارمل عقيب انكشاف جريمته ، فكافأه هذا بتزويجه ابنة أخيه ..

وليس هذا سوى أحد الأدلة على أن أعداء الإسلام كلهم ، سواء كانوا من الشيوعيين أو من عملاء الغرب ، مهما اختلفوا ، متفقون أبداً على الكيد له ولكل من ينتسب إليه ..

ومع ذلك لا يزال في مسلمي باكستان من يقدس ذكرى بهوتو حتى بين

أهل الحديث ! .. كما يقول اخونا شمس الدين ..

ما أكثر هؤلاء المرتزقة !

عقيب التراويح أكرمنا إمام مسجد الملك بزيارته ، فقد قَدِم إلينا ومعه رجل من الأفغانيين ، يقول الشيخ انه قائد لمجموعة كبيرة من المجاهدين .. وأعطاها اسماً لم يمرّ بنا أثناء مخالطتنا قادة المنظمات والمهاجرين في بشاور . ولم أكتم الرجل فصارحته بأن تعدد المجموعات في غير صالح القضية ، فخير له إذا كان له من جماعة أن يسرع بضمها إلى الإسلاميين ، وبشَّرته أن الوفاق بين القادة قادم لا محالة إن شاء الله ، ومن شذَّ فلن يضر إلا نفسه . وأغلب الظن أن الرجل من أصحاب الشِباك ، الذين يكثرون عند الطمع ويقلون عند الفزع ! ..

وتبسط الشيخ في الحديث ، وأحب أن يشعرنا بمنزلته العالية ، فأخبرنا أنه قبل أيام كان في زيارة للرئيس مع أحد مشايخ الشيعة ، فقال رفيقه هذا للرئيس انه طوع إرادته ومستعد لتنفيذ كل ما يريد . فلم يرض الرئيس عن كلام هذا الشيخ وقال له : إنما الإرادة المقدسة لله ، ولا أريد من أحد خضوعاً لي بل لأمر الله ، ثم أمره بمغادرة مجلسه فلا يعود إليه ..

وأنا هنا أنقل ما حدَّث به الرجل دون مناقشة ، وإذا صح ما ذكره فما أدري أكان المقصود بقولة الرئيس أحد الإثنين أو كلاهما ! . ذلك لأن صاحبنا ، كما لاح لي من كلامه ، وكما فهمت من عارفيه ، ابن دنيا وعميل حكَّام ، فقبل صلته بضياء الحق كان له مثلها عند بهوتو وغيره .. وقد كشف لنا نفسه تماما عندما تَعَرَّضَ لذكر الجماعة الإسلامية فأطرى مؤسسها أبا الأعلى رحمه الله ، وصبَّ جام اتهاماته على خلفائه ، إذ رماهم بالعمالة للامريكان والروس والصين ! .. وطبيعي أنه لم يذكر أمير الجماعة الذاهب بالخير إلا ليتخذ من ذلك تُكَأةً للطعن في أمرائها الحاضرين .

وما أكثر هؤلاء المرتزقة في مختلف ديار المسلمين ! .. وما أشد خطرهم على الإسلام ودعاة الإسلام عند طواغيت الحكام في هذه الأيام ! ! .

ورحم الله حافظ إبراهيم الذي أعطانا أبرع صورة عنهم في ذلك الأُلعبان الذي :

يمشي وقد نُصِبتْ عليه عمامةٌ   كالبرج ... لكن فوق تل نفاقِ

إلى فيصل أباد :

وكانت الساعة الثامنة والنصف من صباح السبت ٩/٢٤ عندما تحركت بنا سيارة المضيف الفاضل في طريق (فيصل أباد) ..

الجو لطيف وماتع بعد شآبيب المطر التي شهدناها طوالَ نهار أمس ومسائه .. والطريق المغسول يعج بأفواج السيارات .. وما كدنا نودع أطراف لاهور حتى بدأنا نواجه أشتات المصانع هنا وهناك .. فهذا واحد للدراجات العادية ، وذاك مصنع للحديد المحلي ، وتلك هي مطاحن الدقيق الكثيرة ، وذاك مصنع للسماد ، وها هنا مقاشر الأرز أشبه بصوامع الغلال الضخمة ، وذلك مصنع للسمن النباتي المستخرج من أطايب البذور .. ومما يسترعي الانتباه تكاثر معامل الحديد ، التي تدل على نشاط الحركة العمرانية في أنحاء البلاد ..



من هنا فلتكن أغذيتنا

وعلى ذكر مصنع السمن أجدني مشدودا إلى حديث سمعته قبل شهر من بعض خريجي الجامعة المبتعثين إلى أوروبة .. وملخَّصه أنهم قاموا بزيارة استطلاع لمعامل اللحم والزبدة في اثنين من أشهر دولها في هذه الصناعة .

فإذا هم يفاجأون بما لا يخطر على بال مسلم من خامات هذه المصنوعات ، التي تجمع بين جثث الكلاب وأسقاط الخنازير ، وفضلات الحيوانات على اختلاف أنواعها ، في خليط واحد ، يسحق ، ثم يعالج بضروب من المعاملات الكيماوية ، تنتهي به إلى الأنواع المشهورة من المارغرين والزبدة واللحوم المبردة . ولعل معظم هذا النتاج الشيطاني إنما يصدَّر إلى بلاد المسلمين ، الذين ألفوا هذا النوع من الخداع الصليبي ، حتى لم يعودوا يسألون عما يأكلون . ولو كان مصنوعاً بأيدي ألد أعدائهم وهم يعلمون ؟ .

ثم .. أليس مسلمو إندونيسية والهند وباكستان وتركية ومصر والسودان وغيرها أحق بثقتنا وأموالنا وآمن على حقنا من أولئك المستهترين الذين لا يرعون في المسلمين إلاً ولا ذمةً ! ..

وإذا كان أولئك المسلمون لم يُزَوَّدوا حتى الآن بالخبرة ، التي تمكنهم من استغلال أرضهم المعطاء ، لتأمين حاجاتهم واخوانهم من أصناف الأغذية المذكورة ، فلِمَ لا يجرب أصحاب المال العربي استثمار بعض ثرواتهم في تلك البلاد ، فينفعوا إخوانهم ، وينتفعوا هم بتأمين الغذاء الصالح ، الذي تطمئن إليه القلوب ، ويرضون به دينهم وربهم ، ويدعمون به وجودهم واقتصادهم ! ..

لقد علمت أثناء وجودي بالفلبين أن ثمة مصنعاً لاستخراج السمن من زيت النارجيل ، يملكه أحد المسلمين ويصدر انتاجه إلى المملكة عن طريق أحد تجارها ، وكانت تلك بشرى ثلجت صدري وتمنيت تكرار أمثالها ..

واليوم أقف تلقاء مصنع السمن الباكستاني في طريق فيصل أباد ، فأقول : أليس بوسع بعض أثرياء المملكة إحداث عدد من أمثاله في هذه الدولة الشقيقة ، يصدر فائضه إلى المملكة وغيرها من ديار المسلمين ، فينقذهم من استغلال أعدائهم ، ويحفظ عليهم أموالهم نامية مباركة ، ويشدد من روابط الأخوَّة فيما بينهم ؟ ..

وليس ذلك على همم المؤمنين ، بعد توفيق الله، بعزيز ..

ونعود لمتابعة الطريق إلى (فيصل أباد) .

وقيل لنا إن هذه المصانع أو أكثرها أنشئت منذ أيام محمد أيوب ، ثم توقف نموها أيام بهوتو ، حين قام بمصادرتها باسم الاشتراكية ، وقد أعاد ضياء الحق معظمها لأصحابه الشرعيين ، وعوَّض الآخرين عما فقدوه ..

مزارع الأرز..

وما أروع منظر هذه البحيرات التي خلّفها المطر الأخير وما أكثرها عدداً ، وأوسعها مساحة .. وكثير من هذه البحيرات يستحيل مزارع للأرز الذي بدأ شتله .. وما كنت لأعلم شيئا عن زراعة الأرز قبل اليوم ، ولكن إخوتنا الباكستانيين المرافقين لنا في السيارة هم الذين أعلموني أنه يُستَنْبَتْ أولاً في بقاع خاصة ، فإذا حان وقت الزرع أخذوا هذا النبت فغرسوه بانتظام في حقوله شتلة فشتلة ، كما يُفعل بالبصل إذ تستنبت بذوره أولا ثم توزع في الأرض المعدة له ..

ومررنا بقرية (شيخو بوره) التي يبلغ سكانها مئتي ألف ، وفيها حصن جميل من آثار المغول ، وذكر لنا أن فيها نشاطا طيبا للسلفيين ، وعلى مقربة منها برج للتلفاز .. وتلتها قرية (فيروز واتوان) التي سكانها ثلاثون ألفا ، وكلهم من السلفيين كما أخبرنا الأخ ثناء الله .. ثم أطلت قرية (مانواله) المشهورة بزراعة الذرة الصفراء .. وطلعت من خلالها قباب القبور التي لم نشهد شيئا منها أثناء عبورنا في القريتين الآنفتين .. ولما أشرفنا على قرية (شاكوط) أخبرنا الاخوة أن فيها قبر (نولاك هزاري) وهو من المقامات المقصودة للتبرك في مواسم شهرية متفق عليها .

وما أمتع مناظر الحقول المتلاحقة وهي مزدانة بأنواع المزروعات البالغة الخصب من الأرز والذرة وقصب السكر والمانجو ! ..

وكنا نترجم لإخواننا عن اعجابنا العميق بمشاهد السد الكبير في جبال (تربيلة) فقال ثناء الله : إن السدود كثيرة في الباكستان ، ومنها واحد ما بين لاهور وراول بندي اسمه (دينا) هو أصغر من سد تربيلة ، ولكنه أحد المساقط التي تزود البلاد بالكهرباء ..

مصنع للغزل :

وتوقفت بنا سيارة المضيف تلقاء مَبنىً كبير قال إن فيه مصنع غزل لرجل من الإخوة السلفيين ..

وكانت فترة سارَّة تلك التي قضيناها في استكشاف واقع هذا المصنع والاطلاع على محتوياته .. ومررنا على أقسامه الثلاثة ، فإذا هو على غاية من

الفخامة والضخامة ، وكرهت أن أكتفي بالنظر العابر فعرضت على كبير مهندسيه (ظهور الحسن) ـ المتخصص فى صناعة الغزل من جامعة البنجاب بلاهور ـ أن يزودني ببعض المعلومات الموضوعية ، فكان المحصول كما يلي : ـ

١ ـ إن مالك المصنع هو إبراهيم .. وهويته التجارية (تكستايل ملز لمتد) .

٢ ـ إن مربع مساحته مئة وثلاثون ألف قدم .

٣ ـ وفيه من العمال (٤٢٥) ومن المهندسين المسئولين أربعة .

٤ ـ إن رواتب موظفيه أربعمئة وخمسون ألف روبية لكل شهر .

٥ ـ وفيه من أجهزة الغزل اثنا عشر ألفا وخمسمئة ، وكلها من صنع إيطالي .

٦ ـ أما منتوجه اليومي فسبعة عشر ألف بوند من الخيوط ، وهي بعض طاقة المصنع التي تبلغ بأكملها خمسة وعشرين ألفا .

٧ ـ وقد جهز المصنع كله وبدأ تشغيله خلال سنة واحدة .

٨ ـ أما تكاليفه فقد بلغت سبعين مليونا من الروبيات .

٩ ـ تتفاوت الرواتب الشهرية في هذا المصنع ما بين خمسة عشر ألفا وخمسمئة روبية .

١٠ ـ والعمل الوحيد الذي يختص به المصنع هو تحضير الخيوط التي تتطلبها معامل النسيج في باكستان .

واستوضحت المسئول عما إذا كان للمصنع وسائل صحية لصيانة مستخدميه من أضرار النثير المتطاير ، الذى من شأنه أن يتراكم في مجاري القصبات الهوائية ، فأكد أن لديهم طبيبا وصيدلية ، وكمائم لتصفية الهواء المستنشق من كل الطفيليات ، ولكن العمال يستثقلونها فلا يستعملونها ..

وقد علمت كذلك أن المشرف على المصنع هو الشيخ مختار أحمد ، خازن الجامعة السلفية بفيصل أباد ، وأن صاحبه من الأعضاء الممولين للجامعة إذ يبلغ ما يؤديه إليها خمسة وعشرين ألف روبية في العام ، هذا فضلا عن المعونات الأخرى التى يدفعها إلى مختلف المؤسسات التعليمية الإسلامية .

عِبرة من المصنع :

ولقد قضينا في هذه المؤسسة الاقتصادية الباعثة على الإعجاب قرابة الساعة كانت ملأى بالجديد من الفوائد ، إذ شاهدنا خلالها حركات العمال والفنيين ، وعمل الأجهزة على اختلاف أقسامها ..

أول ما واجهنا في الفناء الخارجي مجمعات القطن تنتظر نقلها إلى داخل البناء ، وقد شوهت الأمطار والأتربة المتطايرة بياضها الجميل .. حتى إذا تجاوزنا الفِناء إلى الداخل رأينا هذه الأقطان كيف تأخذ سبيلها إلى التنقية ، ثم إلى أجهزة النفش والضم والفتل ، وعشرات التصنيفات الأخرى .. حتى تنتظم في مراحلها النهائية خيوطا منسقة معدةً للترحيل إلى معامل الحياكة ، لتستحيل هناك لفائف مديدة من النسيج الشائق ! ..

وانطويت على نفسي بازاء هذه الآلاف من الأجهزة المتعاونة ، أفكر في القَدْر المشترك بينها وبين أجهزة الجسم البشري التي لا ينفك كل جُزَيْءٍ منها بين أخذ وعطاء مع الأجزاء الأخرى ، ليستقيم في النتيجة لهذا الإنسان كيانه المتميز ..

فتبارك الله أحسن الخالقين ..

في الجامعة السلفية :

أول ما يطالعك من ضواحي (فيصل آباد) كلية الهندسة ، ثم مصانع الحديد ، ثم معمل الكهرباء ثم مصنع السكر والنسيج والمطحنة ..

وبعد انتظار غير قصير ، في غمرة من الحر غير يسير ، عند مفصل القطار ، يسر الله لنا مواصلة المسير .. وفي أوائل المدينة انحرفت بنا السيارة في طريق فرعي حتى صارت بنا إلى الجامعة السلفية ..

وكانت سيارة الشيخ ميا فضل الحق قد تقدمتنا قليلا وفيها الزميلان علي وعبد الله ، وأعقبتها سيارتنا التي يقودها الأفغاني الفاضل عمران ، ومعي شمس الدين وثناء الله المتخرج في جامعتنا الإسلامية .. وقد وجدنا بعض المدرسين وموظفي الجامعة بانتظارنا ، فكان لقاء أخويا كريما .

ولاحظنا اللافتات المرفوعة وقد كتبت بخط بارع ، وكأنها أُعدت لاستقبالنا ، وفي بعضها آيات من كتاب الله ، وفي بعضها الآخر أبيات من

شعر الحكمة ، بينها البيتان المنسوبان إلى الإمام الشافعي رحمه الله :

شكوت إلى وكيع سوء حظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يُهدى لعاصي

ولكن أولهما جاء مختلفا إذ كتب صدره (فأوصاني بترك المعاصي) وبُدِّلَ بفعل (يهدي) في عجز الثاني (يعطي) فذكّرناهم بالأصل والتصحيح ..

طلبة ذوو مواهب :

وبعد استراحة لطيفة في المدخل ، الذي أغنت نسائمه عن المكيِّف ، بدأنا الجولة ، فمررنا بالمكتبة ، وهي تشغل غرفتين صغيرتين ، وتتطلع للانتقال إلى المبنى الجديد الذي لم يتم بعد .. ومعظم محتوياتها من الكتب العربية النفيسة ، وبعضها بالأوردية وغيرها ، ثم طفنا ببعض مناهج الطلبة ، وهي عبارة عن غرف متوسطة مؤثثة بأبسط المتاع ، فثم سرر من الخشب المنسوج بالحبال واللدائن ، عليها الفرش والأغطية المتواضعة .. ويتراوح عددها في الغرفة الواحدة ما بين أربعة وثمانية أسرَّة ، إلا أن الغرف الثلاثة الخاصة بالطلبة المحلَدِيبيين كانت مع بساطة أثاثها نظيفة ومرتبة بشكل ينمّ عن ذوق معرق التحضُّـــر .. وفي إحداها شاهدنا عيِّنات من نشاط هؤلاء الإخوة . فهناك مجلة مطبوعة باسم (صوت الإسلام) تحمل على غلافها بعض المناظر من طبيعة بلادهم ، وفي داخل أحد أعدادها ، الصادر في صفر العام الماضي ، صفحات بالعربية موجهة إليهم من الرئيس ضياء الحق ، ووزير التعليم العالي بالرياض الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ ، وأخرى من الندوة العالمية للشباب المسلم بالانجليزية ، ثم تأتي بقية الصفحات المئة والخمسين باللغة المحلديبية ، إلا آيات الذكر الحكيم المسطورة آخر العدد .. ثم هناك من نشاطهم المعجب صفحة من التقويم السنوي صُدِّر بمشاهد من ربوعهم تترجم حنينهم إليها ، وفي شطرها السفليّ توقيت الأشهر .

ويقول مدير الجامعة الأخ ثناء الله ان كل ما على التقويم من صنعهم وبأيديهم ، أعدوه ثم طبعوه مصورا في لاهور ! . ولعمر الحق ان في ذلك

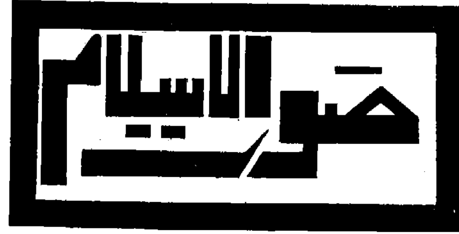
لآيات من المواهب العـاليــة تستحق النظر والتقدير .

وأخبرنا كذلك أن هؤلاء الطلاب البالغين سبعين قد وفدوا إلى هذه المؤسسة بتوجيه من جامعتنا الإسلامية ، وقد نُقِل عددٌ منهم غِبَّ نجاحهم إلى الجامعة الإسلامية لاستكمال دراستهم .

ومن الظواهر ذات الدلالة في هؤلاء ، وليس بينهم سوى واحد تجاوز سن الحداثة ، وفيهم من لا يعدو العاشرة ، أنهم وفدوا من مسافات شاسعة لا يعرف أحدهم حرفا من العربية أو الأوردية .. فكيف سخا بهم والدوهم

SUPPORT ISLAM IN MALDIVES





100 PER CENT MUSLIMS IN THE ISLANDS OF MALDIVES



فأبعدوهم آلاف الأميال ؟ .. ألا إنه الدين والحرص على الهداية والتشبث بحبل الله .

أقسام الجامعة :

ومررنا في تطوافنا بمساكن المدرسين البسيطة ، وفي كل شقة ثلاث حجرات مع مرافقها الضرورية . ثم بمبنى المكتبة ، وهي قاعة فسيحة تتسع لمئتي قارىءٍ . وقال المدير انها تبنى على نفقة الجامعة الإسلامية ، ثم إلى قاعة المحاضرات التي لا تقل عن المكتبة سعةً ، وقد تبرع لها المغفور له الملك فيصل بمئة ألف ريال . وعبرنا أثناء ذلك ببعض الفصول الدراسية ومعظمها واسع وصحي .. ورأينا كذلك مطبخ الجامعة الجديد ــ في طور البناء ــ والآخر القديم ، وفيه المواقد وتُنُّوران لصنع الخبز ، ثم انتهينا إلى المسجد الجميل بجانب الميضأة المنظمة ، وهو فسيح ونظيف ، وأمامه خلف القبلة فسحة سماوية مبلطة بالفسيفساء الصناعية ، وقد نسقت وفصلت بشكل هندسي جميل .

ولقد لفت نظرنا منبر المسجد ، وهو عبارة عن منصة خشبية جميلة وبسيطة ، تتألف من ثلاث درجات ، تُقدم عند صعود الخطيب ، وتؤخر إلى داخل المحراب من جانبه الأيمن عند نزوله .. ويذكرنا منظره بما ورد في السيرة من وصف لمنبر النبي ﷺ .. وحبذا لو ينتشر هذا النوع من المنابر في المساجد الأخرى ، وبخاصة مسجد قباء ، الذي يفصل منبره التركي بين شطري الصفوف ، حتى ليؤدي ذلك إلى اختلاف حال المصلين ، ولا سيما في بعض الأصباح عندما يقرأ الإمام سورة السجدة والدهر ، فيسجد للتلاوة ، فيظن بعض المفصولين من الجانب الآخر أنه يركع .. وهكذا يضطرب الوضع .. ولن يُزال هذا الاختلاف حتى يُعدَّل وضع المنبر ، ويحدث مكانه واحد على التخطيط الحديث ، يدخل درجه في الجدار ، وينتهي وسطه في بروز لموقف الخطيب .. أو يعوض عنه كليا بمثل هذا المنبر المتواضع ...

وحان موعد الظهر فنهضنا للجماعة ، ثم عدت إلى المكتبة لأخط هذه المعلومات في مفكرتي خشية نسيانها .. بقي أن أشير إلى بعض مميزات هذه

الجامعة ، وها أنذا أجملها في ما يلي :

١ ــ تشغل الجامعة مساحة واسعة من الأرض ، تتوسطها ساحة فسيحة تتسع للعب الكرة والأنشطة الرياضية الأخرى .

٢ ــ إلى جوار الجامعة قطعة رحبة من الأرض هي ملك لها ، وصالحة لانشاء الكثير من إضافات الأبنية عند الحاجة .

٣ ــ ومن أقسام هذه الجامعة الرئيسية دار الضيافة المكونة من أربع غرف .

٤ ــ وهناك مكتب البريد ، والصيدلية ومكتب الإدارة ، والطبيب الخاص .

٥ ــ وتبلغ مهاجع الطلبة خمسا وخمسين غرفة ، وفصول الدراسة عشرة ، وعدد الطلاب أربعمئة معظمهم داخليون .

ولا يقف التعليم عند حدود المجانية ، بل إن الطلاب ليجدون هنا طعامهم وسكنهم وعلاجهم .. ويستمتع الطلاب الملحديون بحق السفر لزيارة أهليهم بنهاية كل سنة دراسية ..

ولا ننسى أن كل ذلك الخير إنما يتوافر لهذه الجامعة السلفية بفضل المحسنين من المملكة ومن باكستان .. ومن حق الشيخ فضل الحق أن نسجل له هنا خدماته المستمرة لهذه المؤسسة ، سواء بالمال ، أو بالمشاركة في التخطيط لأبنيتها ، عن طريق الخبرة التي كسبها من عمله في المقاولات ..

في مصنع للنسيج :

والزائر لمدينة فيصل أباد لن يستوفي حقه منها إذا لم يطف ببعض مصانعها على الأقل ، ذلك لأنها في واقع الأمر مركز الثقل في صناعة باكستان ، وبخاصة في أعمال النسيج .. ومما ساعدنا على تحقيق هذه البغية صحبتنا للأخ فضل الحق ، فهو الذي قام بترتيب زيارتنا لواحد من أكبر هذه المعامل .. إنه مصنع النسيج المسمّى « أنصاف اكستاين » .

يقع هذا المصنع الضخم في قلب الحي الذي لا تكاد ترى فيه سوى أشباهه من مراكز العمل .. فإذا خلصت إلى موقعه واجهت بناء لا تحسن السير فيه إلا بدليل ، فهو ذو أقسام ، ولكل قسم اختصاصه ، ثم صلته المتممة لسائر الأقسام ..

على امتداد الممرات الطويلة تحيط بالزائر مُجمَّعات الأقمشة قد نسجت في معامل أخرى ، وشحنت إلى هنا لاستكمال تحضيرها .. ولكنها كأكداس الأقطان التي شاهدناها في فناء مصنع الغزل الذي سبق الحديث عنه ، يجفوها البصر لما تحمله من أنواع الأوساخ .. ولكنك ما إن تتجاوز الممرات هذه حتى تجد نفسك في دنيا المراحل التي تتولى تنقية ذلك النسيج ، حتى يخرج أبيض نقيا مجففا ، فإذا انتقلت إلى القسم التالي شهدت المرحلة الثانية ، ثم الثالثة و ... وهكذا حتى تجد نفسك أمام الأجهزة التي تتولى إخراج ذلك النسيج شيئا آخر ، دفقاً متصلاً من القماش ، يأخذ سبيله إلى التقطيع الذي يُحيله لفائف موزونة معدودة ، لا تزيد الواحدة عن الأخرى درهما ولا سنتا .. وقد تجلى عليها فن المهندسين ذوي التخصصات المتعددة : زخارف بارعة ، وألوانا زاهية ، ودقة مغرية تجتذب الأبصار وتستهوي التجار ..

الأجهزة والإنتاج :

أجهزة هذا المصنع تبلغ الخمسين ، بعضها من هولاندة ، وبعضها الآخر من مصنوعات باكستان . وفيه من العمال والفنيين ، والأحداث العاملين في الطي والعدّ ، مئة وسبعون ، يتناولون من الرواتب مئتي ألف روبية شهريا ، إذ يتراوح الراتب الواحد ما بين خمسمئة واثنى عشر ألف روبية ، ويبلغ مهندسوه الخبراء ستة كلهم من الباكستانيين .

أما انتاجه اليومي فأربعون ألف متر من الأقمشة الحريرية والقطنية ، وهي تُعد للتصدير إلى متاجر باكستان وبنغلاديش والسعودية وهولاندة وغيرها ..

وفي المعمل طبيب وصيدلية تحت إشراف وزارة الصحة .. وتبلغ مساحة المعمل ألفاً وستمائة متر مربع ينهض عليها مجمّعه الذي يتألف من دورين وتوابعهما .

أما تكاليف المصنع بناءً وأجهزةً فيقول الشيخان بشير أحمد ــ عضو المجلس البلدي ــ وأخوه الشيخ مصطفى إنها خمسة عشر مليونا من الروبيات ..

ويسهم في ملكيته الشيخ فضل الحق واثنان آخران من اخوانه ، وقد

جَمَعَ الله لهم بين الدين والدنيا ، فهم رجال أعمال وأموال ، وفي الوقت نفسه يعملون للحال والمآل . وما أجمل أن يوفق الله عباده المؤمنين لمثل هذا الخير المبين .. وصدق رسول الله القائل : « نعم المال الصالح للرجل الصالح »[1] فمتى يفهم عامة المسلمين أن الإسلام ليس دروشةً ولا انزواء ، ولكنه عمل ونشاط وقوة يُفجِّر بها المؤمن كنوز الأرض ، وينشر بها الخير ، ويدعم كل عمل صالح !

رسامو المصنع :

وكل ما شاهدناه من أقسام في مصنع النسيج حتى الآن يظل ناقصا إذا لم نتمّه بالاطلاع على مكاتبه الفنية ، التي فيها تخطط الأشكال والألوان والزخارف المغرية .. وقد استمتعنا بذلك على يد أحد أصحابه ، الذي تفضل فتقدمنا إليها ، وإذا هناك مجموعة من الرسامين ، وكل منهم مكبٌّ على قرطاسه يخط فوقه الصورة المصممة بأدق وأكمل ما يستطيعه امرؤ ذو موهبة . ولقد كنا مندهشين مما رأينا في أنحاء باكستان من ظواهر العبقرية الفنية ، معروضة في أنواع الرسوم المخططة على اللافتات التجارية والسينمائية الكبيرة ، وحتى على ظهور « الركشات » وبخاصة صور الأحياء التي لا يسع ذا بصر أن يَعبُر بها دون تأمل ، إذ تبدو له وكأنها تتحدث وتشير . أما ونحن بإزاء هؤلاء الرسامين فلم نعد نستغرب إجادة القوم فن الرسم ، فكأن هذا الفن مغروس في أناملهم وقلوبهم ..

على أن السّار للمؤمن هو خلو هذه الرسوم المُعدَّة لطبعها على الأقمشة من صور الأحياء .. ولا يستبعد هذا من مصنع يملكه ويشرف عليه رجال مؤمنون مثل هؤلاء ، تكاد وجوههم تشع نورا ، فهم متعمدون استبعاد الصور المحرمة عن مصنوعاتهم ومعروضاتهم إيمانا واحتسابا .. حتى مكتب الشيخ أحمد مشرف المصنع ليس على جدرانه من ألواح الزينة سوى صورة الحرمين وأطلس العالم الإسلامي .. وإذا حان موعد الصلاة نهضوا إليها نشطين يسبحون بحمد ربهم الذي آتاهم كل هذا الخير ..

---

(١) رواه أحمد وإسناده صحيح — نظر المشكاة رقم ٣٧٥٦ .

ولقد علمنا من الإخوة أن عمال المصنع ملازمون للصلاة في مسجده ، وإذا أحسوا تلكؤاً من أحدهم تابعوه بالتي هي أحسن حتى يستجيب عن طواعية .

وأدينا صلاة العصر جماعةً في مكتب المشرف ، بعد أن أخذنا غفوة هانئة في غرفة ملحقة به . ومن ثَم حملتنا السيارتان إلى منزل أخيه الشيخ مصطفى لتناول الإفطار . وقد سلكت بنا طريقا في حي لا تجد فيه سوى المعامل على اختلاف أصنافها ، وبخاصة معامل النسيج ، الذي من أجله استحقت هذه المدينة أن تلقب بـ (مانشستر) تشبيها لها بتلك المدينة الانجليزية التي هي مركز النسيج في الجزر البريطانية .

الإسلام سمَّاها

وقبل الشخوص إلى المنزل دخل بنا السائقُ الدليلُ قلبَ فيصل أباد حتى انتهى إلى برج الساعة القائم في وسطها ، ومن حوله تتفرع الشوارع الثمان المتناظرة ، التي فُصِّلت بلواحقها على شكل العلم البريطاني .. لأن الذي خططها على هذه الصورة إنجليزي من المستعمرين اسمه « لائل » فنسبت إليه « لائل بور » ثم نُسخ هذا الاسم الكريه ليحل مكانه اسم الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز تغمده الله برحمته ..

وكان السبب في هذا الاسم الجديد ــ كما حدثنا الشيخ ثناء الله ــ أن مسلماً من أولي المواهب الفنية اسمه عزيز قد دعا إلى إطلاق اسم الفيصل على ذلك البلد ، منذ اليوم الذي أعلن فيه استشهاده ، ليكون تعبيرا عن حب مسلمي باكستان لتلك الشخصية العظيمة .. وعُقِد أول اجتماع لهذه الغاية في الجامعة السلفية ، ورفع الاقتراح إلى بهوتو ، الذي طوى ذكره ولم يظهر أي ميل لقبوله ، حتى إذا خَلَفَه ضياء الحق جددوا الطلب فاستجاب لهم .

وهكذا أكرم الله البلد فحل الطيِّب محل الخبيث ، ويكاد الناس اليوم ينسون ذلك الاسم النبيث ..

مسجد جميل ودارة رائعة :

تناولنا الإفطار في منزل الشيخ مصطفى من الفواكه وشراب الليمون ، ثم

صلينا المغرب جماعة ، وبعد قليل دُعينا للعَشاء ، وكان مؤلفا من أنواع اللحوم والسمك ، حتى إذا أذن للعِشاء مضينا لأدائها في مسجد قريب أنشأه هؤلاء الفضلاء ، وأطلقوا عليه اسم (مسجد عمر) .

وهنا تكلم الشيخ علي وترجم له الشيخ شمس ، فكانت كلمة مناسبة ذكَّرهم بها وجودَه السابق في هذا البلد مدرِّسا في السلفية ، ثم انتقل للكلام عن ليلة القدر وامتيازاتها الربانية ، وحض على تقوى الله .. ولم تتجاوز كلمته الحد الموعود وهو خمس دقائق . ومن ثم عدنا إلى منزل المضيف الذي تكرم فطاف بنا حول دارته ، وأمكننا من الاطلاع على هندستها التي بولغ في إتقانها ، حتى جاءت تحفة تروق الساكن والنزيل .

والحق لقد كان منظرا ممتعا ، فالدارة ذات شقين أحدهما للشيخ مصطفى والآخر لأخيه ، الذي لم نره لأنه سافر مع أهله لأداء العمرة ..

وتحيط بالمنزل الفخم حدائق ذات بهجة ، فيها أصناف الورود ، وأنواع الزهر والشجر ، وقد تناسق فيها كل شيء فما يقال بها (لو) ولا (ليت) . فنسأل الله لهؤلاء الفضلاء ألا ينقص ذلك من حظهم في الآخرة وهو القائل سبحانه : ﴿ من عَمِل صالحاً مِن ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فَلَنُحيينَّه حياة طيبةً ، ولنجزينَّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ سورة النحل .

العودة إلى لاهور :

الأحد : ٩/٢٥ :

في الساعة الثالثة أيقظنا الشيخ مصطفى أحمد للسحور ، فتوضأت ومضيت مع الأخوين إلى قاعة الطعام ، حيث تناولنا اللبن واللحم والمرق والشاي ، ثم انطلقنا إلى مسجد عمر فصلينا الصبح ، وقد شرع المطر في التدفق ، ومن ثم إلى السيارة التي تحركت بنا باتجاه لاهور ..

حاولت النوم في السيارة فلم يواتِني ، حتى إذا وصلنا منزل الشيخ فضل الحق استلقيت ساعةً ، ثم نهضنا جميعا للقيام ببعض الزيارات المقررة .

وبدأنا بمنزل الشيخ عبد الرحمن أزهر ، وهناك فوجئت بلافتة كبيرة تحمل اسم (كلية الشريعة ــ جامعة لاهور فحسبت أن ثمة جامعة

حكومية ، ولكن سرعان ما هُدينا إلى الواقع ، إذ علمنا أنها مؤسسة خاصة له ..

ودخلنا المكتبة فإذا هي قاعة مملوءة بواجهات الكتب بقسميها .. وجعل يحدثنا عن مؤسسته ، فهي مؤسسة تعليمية يدرس فيها فريق من الطلاب مواد صالحة من العلم ، مقتبسا أكثرها من منهاج كلية الشريعة بجامعتنا الإسلامية .. ومرَّ بنا على بعض الغُرف المخصصة للدراسة ، والأخرى المخصصة لسكن الطلبة .. الذين لم نر أحدا منهم بسبب الإجازة ..

وتحدث الشيخ عبد الرحمن عن مؤسسته طويلاً .. والظاهر أنه لون من نشاطه الفكري الذي عهدته به من قبل ويرى أنه يخدم به الإسلام، وكان من حديثه أنه وإخوته قد تقاسموا الأعمال ، فكلهم اتجهوا لإدارة تجارتهم الواسعة ، سواء في مصنع الأنابيب أو في أمكنة تصريفها .. وتركوه هو متفرغاً لخدمة العلم ...

ويقول الشيخ ثناء الله ان لهذه الأسرة تجارة كبيرة وأملاكا واسعة في لاهور ، وان لهم مثلها أيضا في كراتشي . وقد شاهدنا ظواهر ذلك في منزلهم الذي لا يتاح إلا لذوي اليسار ، وبسيارتهم الجديدة التي أسهمت في حملنا لبعض الزيارات ، وهي غير السيارة التي جاء بها إلى منزل الشيخ فضل الحق .

المركز السعودي والدعوة :

ومن هناك إلى المركز الإسلامي السعودي ، وإنه لدارة رائعة التنسيق ، تحيط بها حديقة أكبر من نظيرتها ، التي تحدق بمنزل الشيخ مصطفى أحمدين في فيصل أباد ، أما أثاثه الفخم فلم نر له نظيرا في أي مكتب حكومي شاهدناه في باكستان ..

وجاءنا مدير المركز الشيخ عبد العزيز عتيق عقيب مخابرة هاتفية إلى منزله .. وهو فتى في الثلاثينات ذو لحية سعودية ، تلوح في وجهه ملامح الخير والنباهة ..

ودار الحديث معه حول مهمته ، وهي إدارة شئون الدعوة عن طريق مبعوثي دار الإفتاء الخمسة والثلاثين ، ولم يكن راضيا عن نشاطهم إلا

قليلا ، ويشكو من تهيبهم مواجهة الناس بما لا يألفون من حقائق الدين .. وقصارى ما فهمناه أن العلة الكبرى في هؤلاء أو معظمهم أن أكثرهم غير مؤهلين للدعوة بسبب ضيق أفقهم ، فعملهم مقصور على كلمات يلقونها في بعض المساجد والمدارس ..

وأرى لزاماً عليّ ، وأنا في صدد الكلام عن الدعوة الإسلامية ، أن أقول رأيي بصراحة ، وهو أننا حتى الآن لم نستطع توفير النوعية المفضلة لهذا الضرب من العمل الكبير .. إذ قلما يُلحظ في اختيار الداعي جميع الصفات التي تتطلبها المهمة ، بل يكفي أن يكون حاصلا على شهادة جامعية ، مضموما إليها الثقة بسلامة العقيدة مع حسن السمت ، حتى يكون موضع القبول .. وعندي إن هذه العناصر تشكل أحد الجوانب الضرورية في استعداد المبعوث ، ولا بد من صفات أخرى لا تقل عنها أهمية وفي رأسها عمق الثقافة الإسلامية ، والاطلاع الواسع على واقع العصر الذي يعيشه ، بما فيه من التيارات الفكرية المختلفة .

ثم لا مندوحة من تقدير الوسط الذي سيتعامل معه هذا المبعوث لوضعه في المكان المناسب لاستعداده ، فلا يوجه محدود الثقافة إلى البيئة المعقدة التي تتصارع فيها المذاهب ، ولا يعتبر العلم بالعقيدة الصحيحة هو الزاد الوحيد الذي تُعالج به كل المواقف ، بل لابد لكل داءٍ ما يناسبه من الدواء ، ولابد من التذكر أن ثمة جماهير لا تحصى قد اختلت صلتها بأوّليات الإيمان ، فالوسيلة معها غير الوسيلة مع المقلّدين من أهل البدع مثلاً ..

وبهذه المناسبة أذكر أن أخاً من العاملين في حقل الدعوة ، بإحدى دول أميركة اللاتينية ، حدثني أن يهودية خبيثة من العاملين في الإعلام التلفازي ، قد عرضت استطلاعا منظورا مع أحد المبعوثين ، ووجهت إليه فيضا مركّزاً من الاسئلة حول الثورة الإيرانية ، فلم يزد على القول بأنه لا يعرف شيئا خارج حدود الصلاة التي يتولى إمامتها في أحد المراكز ! ..

وهذه واحدة فقط من آلاف (المطبّات) التي تقام في طريق الكثيرين من المبعوثين ، فإذا لم يكن المبعوث على وعي تام بأمثالها من المزالق كان رد الفعل سيئا بالنسبة إلى الدعوة نفسها ..

وقبل أيام لقينا أحد المعنيّين بشئون الدعوة عائداً من اليابان ، وكان بين انطباعاته كثير من المحزنات ، مردها إلى سوء اختيار المعتَمدين ، ولا أقول إن مردها إلى خلو المسلمين من العناصر الصالحة لهذه المهمة ، وإلا فلماذا يكلف بالدعوة ، وبالإشراف على مراكزها ، مَن لا يصلح لهما ، ويترك مثل محمد المبارك[1] ، ومعروف الدواليبي ، ومحمد قطب ومحمد الغزالي ، والمهديّ بن عبود .. والعشرات من هذه الطبقة الأولى ؟ ! ..

أليس ذلك من المحيِّرات ...

أوكار المكفِّرين :

واتفق أن كنت أقلب بعض الأوراق فإذا أمامي هذه الفقرة ، التي لا أرى من الخير إغفالها ، ولا أجد لها مكانا خيرا من هذا الموضع ..

يقول الشيخ عبد العزيز بن عقيل مدير المركز الإسلامي بلاهور : انه شاهد أثناء زيارة قام بها لمدينة سواتو ، مدرسة تديرها راهبة ، ويعلِّم فيها رجال مسلمون ونساء نصرانيات .. ولا يقل تلاميذها عن الألف كلهم من المسلمين ، وهي تقبل التلميذ من سن الخامسة ..

ويقول انه طاف بثمانية من فصولها ، في قاعات تقارب الواحدة الستين من الأمتار المربعة ..

وعقب الشيخ عبد الرحمن أزهر على ذلك بقوله : إن في قبائل الحر كثيرا من مدارس التبشير هذه !

ولا بد أن القارىء سيشاطرني دهشتي بهذه الأنباء التي لا تكاد تصدق لولا عدالة رواتها .. ولعلي لا أبالغ إذا اعتبرت وجود محاضن التكفير في هذه البيئات الإسلامية الخالصة كوجود الأفاعي على فُرُش المرضى في أحد المشافي ، فلا يتمالك رائيها إلا أن يتساءل كيف وصلت إلى هنا ؟ .. وأين كانت أعين الأطباء والممرضين والخدم ! ..

ثم لا ننسى ما وراء قبولها التلميذ في سن الخامسة من أغراض إبليسية لم تأت عبثا ، ولم تقع دون تخطيط سابق عميق ! ولا حيلة لنا هنا سوى أن

---

(١) كتب هذه الكلمة قبل وفاته رحمه الله .

نرفع عقيرتنا بهذا التساؤل الآخر : أين عيناك يا أخا الإسلام .. يا سيادة الرئيس ضياء الحق ؟ .. فوالله إن الوقوف بوجه هذه المحاولات التكفيرية لَمِن الأوَّليات في طريق تطبيق الشريعة ..

أمنية لعلها تتحقق :

ويشكو الأخ عبد العزيز بن عقيل وضع أبناء الموظفين العرب في باكستان . فهم معرَّضون لإضاعة لغتهم أو فساد ألسنتهم على الأقل ، ويتمنى لو يأذن سماحة الرئيس الشيخ عبد العزيز بن باز بإحداث بعض الفصول الإبتدائية لهؤلاء الأحداث ومَن شاء من إخوتهم الباكستانيين ، لمباشرة دراستهم الأوَّلية حسب مناهج المملكة بصورة تحفظ لهم ذاتيتهم ، وتقوِّم ألسنتهم ..

وأنا إذ أعرض هذا الملتمس على شيخنا الجليل أتمنى أن لا تقلّ هذه الفصول عن مرحلة ابتدائية كاملة . وفي الوقت نفسه ألفت نظر مؤسسات التعليم الإسلامية في المملكة ودول الخليج إلى خطر أولئك المكفِّرين ، لعلهم يعملون لمواجهتهم بمثل مدارسهم ، وفي المناطق التي يغزونها على الاقل .. ففي ذلك وسيلة لإبطال سحرهم وتعطيل سمومهم ..

وليس هذا على همة وإرادة ذوي الإخلاص بعزيز إن شاء الله .

قادة يجهلون الإسلام :

كان قيام باكستان نعمة لا تقدَّر في موازين أهل الإسلام ، شددت من عزائمهم ، وأنعشت آمالهم بإبراز الأنموذج المنظور للدولة الربانية ، التي ستقدم للعالم الصورة الصحيحة للعدالة الإسلامية ، سياسة واقتصادا وتعليما وتربية وتنظيما لا يطغى فيه الروح على المادة ، ولا المادة على الروح ، بل تتوازن فيه الطاقات البشرية على الوجه الذي خطه الله من فوق سبع سماوات .. ولكن هذه التطلعات لم تستمر طويلا ، إذ أثبت الذين قادوا مرحلة التقسيم أنهم لم يكونوا على وعي تام لحقائق الإسلام ، وأن مفهومهم لهذا الذين لا يعدو مفهوم السياسي الذي يريد تحقيق كيانٍ يمكِّن له من تنمية سلطانه ، في وسطٍ يستحوذ به على تأييد السواد الأعظم من الناخبين .. أما

ما وراء ذلك من التزام بقواعد الدولة التي حدد الله خصائص قادتها بقوله الحاسم : ﴿ الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصّلاة وآتوا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونَهَوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور ﴾ الحج ٤١ . أما الجهاد الدائب لتثبيت هذه المُثُل العليا ، الضامنة للأمن والقوة والعزة ، فلم يخطر على بال أولئك الذين عُهِد إليهم بزمام السفينة ، فلم يستطيعوا أن يقدموا لقومهم ، فضلا عن العالم البشري ، أي مَلمح إسلامي لدولتهم ، ومن هنا كان الاضطراب والفوضى والاستغلال والتجارب الوضعية ، هي التي تسيطر على تصرفاتهم من أول يوم .. حتى تراكمت الأخطاء ، وطاشت أحلام المصلحين في تداركها ، وألِف الناس مواجهتها فلم يعودوا بقادرين حتى على التفكير بالتحرر منها .. ثم كان من أثر هذا الضّياع أن تكوّن جيل من المقطوعين عن منهج الفكر الإسلامي ، لا يرى خيرا إلا في التشبث بأذيال الغرب أو الشرق ، ويعتبر الدعوة إلى حقائق الإسلام ، نِكسةً بالفكر ، وعَودة بالحياة إلى الوراء .

ومن هنا جاءت أهم العقبات التي تواجه تطبيق الشريعة في باكستان ..

حوار مع المحامين :

ولعل القارىء لم ينس بعد ذلك النبأ الخطير الذي أذاعته وكالات الأنباء ، ونشرته الصحف قبل رمضان ١٤٠١ عن تظاهرة قيل أن رجال القانون في باكستان قاموا بها معارضة لتطبيق الشريعة الإسلامية في المحاكم ! وقبل ذلك ، و في مؤتمر السيرة النبوية بالدوحة ، حدثنا الدكتور معروف الدواليبي عن العُقد العميقة ، التي تستحوذ على هذه الطبقة بإزاء الشريعة المطهّرة ..

لقد كانت تلك التظاهرة قمة المآسي التي عانتها باكستان المسلمة حتى اليوم ، لأنها ضرب من التحدي الكبير سيعطي أعداء الإسلام دُفعةً جديدة من الدعم لمواقفهم الشيطانية في حرب هذا الدين المنقذ ، وسيمكّن للدسائس الصليبية والصهيونية أن تكثّف من جهودها الخفية لعرقلة المسيرة الإسلامية على مستوى العالم الإسلامي كله ! ..

إن ذكرى هذه التظاهرة الخطيرة قد عاودتني بمجرد وجودي في لاهور ، وددت لو يتاح لنا اجتماع مع بعض أولئك المحامين الذين شاركوا فيها أو دَعوا إليها ، وجاء الجواب من الأخ عبد الرحمن أزهر بأن له بينهم أصدقاء طيبين ، وسيهيىء لنا لقاءً معهم .. وكدنا ننسى ذلك العرض حتى أقبل هذا الأخ في اليوم التالي يقول : إن هيئة المحامين بانتظاركم الساعة الحادية عشرة ، وسيكون هناك لقاءان ، أحدهما مع نقابتهم في المحاكم الصغرى ، والثاني بعده مع نقابة المحاكم العليا ..

ولم يبق مجال للتردد فأخذنا سبيلنا في سيارته إلى الموعد الأول .. وعبرنا إلى القاعة المقصودة سوقاً من الحوانيت يحتلها كَتَبَةُ العرائض ، الذين لم أر مثلهم كثرة في أي بلد زرته أو عشت فيه .. ولعل ذلك عائد إلى تزايد المشكلات الاجتماعية ، وهو الوضع الطبيعي لوسط لا يحكِّم شريعة الله في حياة الناس ..

وكان في القاعة قرابة الثلاثين من المحامين الشباب ، وبعد استراحة يسيرة تقدم أحدهم إلى منصة الخطابة فقدمني بكلمة أملاها عليه الأخ عبد الرحمن ، ودعاني في نهايتها إلى الكلام .. وكانت مفاجأة لم أتوقعها ، فلم يخطر في بالي أنني سألقي محاضرة ، وإنما هو تعارف وحديث نتناول خلاله بعض الأحوال المشتركة .. ولكن الله يسر ووفق فكانت كلمة فوق المرجو في مثل هذه المناسبة ، تحدثت فيها عن المحاماة وخصائصها ومهمتها الأصلية ، وكون المحامين بحق هم أحقَّ الناس بحمل رسالة الإسلام .. ذلك لأن المفترض في أسرة المحاماة أن تمثل الصفوة المثقفة ، المدركة لواقع الحياة من خلال تعاملها مع طبقات المجتمع ، والملتزمة بنصرة الحق مهما اختلفت الظروف ..

ومن ثَم تطرقتُ إلى الحديث عن باكستان واقترانِ اسمها بالإسلام في كل مكان .. وأسفت لتأخيرها استكمال وجودها الإسلامي ، وذكَّرت بأن العالم الإسلامي كله يتطلع إلى نموذجها الحق ، ليتخذ منها الأسوة الصالحة ..

وقد تولى ترجمة حديثي الأستاذ عبد الرحمن ، وتلقاه المستمعون بكثير من القبول ، إذ كانوا يستقبلون العديد من فقراته بتصفيق الاستحسان .. حتى

إذا ختمت الكلام كما بدأته بالحمدلة والتسليم ، وقف على أثري نقيب القوم فعقَّب على تحيتي بمثلها ، وأعرب عن تقديره للأفكار التي طرحتها ، ثم تلاه الأخَوانِ مشرف وسنيور فأكدا على الموضوع بكلام مناسب .

وأراد السيد نقيب المحامين أن يبلغني ما يريده مباشرة ودون وسيط فكتب ذلك بالانجليزية ، ظنا منه أنا نتقنها ، ولكن الأخ الأزهر تابع عمله بترجمة ما كان يلقيه منها فقرةً فقرة .. وبذلك خُتم الاجتماع ، الذي أدى مهمته كمناسبة للتعارف ، وكنافذة يطل منها هؤلاء المحامون ، الذين لا أعرف هويتهم الدينية — وإن كان أكثرهم في الغالب من المسلمين — على أفكار يحملها نحو بلدهم معظم مسلمي العالم ..

تعقيب النقيب :

وقد رأيت من المفيد لهذه المذكرات أن أحصل على هذا التعقيب بالانجليزية ، فلم ير مانعا لذلك ، وقدمها إليَّ كما هي ، وها أنذا أقدم منها للقارىء هذه الخلاصة ..

يقول النقيب في التعقيب على كلامنا :

سيدي الأستاذ

أقدر لكم مشاعركم فيما يخص دور المحامين في المجتمع وجهودهم فيما يخص البحوث الحيوية في ادخال القانون الإسلامي وبعث نظامه في بلادنا . إن بلادنا هذه الباكستان أُسِّست على مبادىء وأسس النظام الإسلامي ، لكن لسوء الحظ لم يُقَدَّم هذا النظام بمعناه الحقيقي الواضح . على كل حال سوف نحاول جهدنا أن نطبق الإسلام في بلادنا كما شرحتموه لنا وقدمتموه .

وفي عام ١٩٧٧ عملنا محاولة جادة لتطبيق النظام الإسلامي .. وعلى كل حال نشكر لك حضورك إلى هنا وإلقاءك المحاضرات ونؤكد لكم أننا استفدنا منكم الكثير ، شاكرين ومقدرين .

Dear Professor

I appreciate your feelings regarding the Status and Role of Lawyers in the Social environment and their efforts to introduce and make research in the Islamic Law and Involving the Systems in our Country. This Country Pakistan was founded by Qaid-i-Azam on basis and slogan of Islamic Ideology, but unfortunately this System is not being introduced in its true sense. Any how as Conveyed by you we will make our efforts to bring Complete Islam in our Country and We in 1977 made a movement for Islamic System.

I congratulate you that you have come over here and addressed us by which we have been inspired

Sd/ Sincerely yours
President DBA[illegible]

زفرة أسى :

وشد ما آسفني أن أجد بيني وبين إخوتي من هؤلاء المحامين سداً يحول دون تفاهمنا ، إلا أن نعمد إلى لسان وسيط غير لغة القرآن ، وبخاصة عندما يكون هذا الوسيط من لغات الأعداء ، الذين على أيديهم دُمِّر سلطان الإسلام في شبه القارة الهندية ، وبأيديهم المخضَّبة بنجيع المسلمين نُسِفَ صرح الخلافة الإسلامية .. وكان المنتظر أن تصبح العربية هي لغة المئة وخمسين مليونا من مسلمي شطري باكستان لو جرت الأمور في طريقها الطبيعي منذ قيام هذه الدولة العزيزة ، ولو أن الذين تولوا هذه الأمور كانوا على مستوى القضية بحق ..

وإني لأسجل هذه الزفرات وفي ذاكرتي تصريحات الزعماء الجُدُد لباكستان الشقيقة بأنهم سيفرضون لغة القرآن على كل مراحل التعليم ، حتى تكون هي لغة البلاد خلال عقدين من السنين .. فأتساءل : إذا كان هؤلاء السادة يَعْنون ما يقولون حقا ، فما الذي حال حتى اليوم دون البدء بتنفيذه ! ..

وما أبهجها بشرى أن أسمع ــ بعد كتابة ما تقدم ــ مذيع لندن يعلن أن حكومة باكستان قررت تدريس العربية في جميع مراحل التعليم ، بدءاً من مطلع العام الدراسي القادم ١٤٠١ ــ ١٤٠٢ وأنها ستقيم دورات مسائية لتدريس موظفيها العربية .

وانتهى كل شيء ...

وودعنا المحامين لنأخذ سبيلنا إلى دار المحكمة الكبرى حيث كان محاموها على موعد معنا .. وهناك وجدنا مثل ذلك العدد ، إلا أنهم من نوعية أخرى ، إذ كان معظمهم من كبار القضاة المحالين على التقاعد ، وقليل بينهم من الشباب ..

وقد أحسسنا لأول وهلة أننا تلقاء رجال ذوي خبرات طويلة عريضة ، وإلمام واسع بواقع المجتمع الباكستاني ..

وكان الاجتماع هنا أشبه بندوة علمية تطرح فيها الأسئلة ، وتُثار

المشكلات ، ولا يُقبل فيها قول إلا مدعوما بالحجة الموضوعية ..

وأحاط بنا مجموعة من هؤلاء الرجال الذين تثقلهم الشكوك في إمكان تطبيق الشريعة في بلد كل تحرك رسمي فيه يقوم على صعيد القوانين العالمية ..

وتولى بسط هذه الفكرة أقدمهم في هذا الميدان ، ومن الذين يحسنون التعبير بالعربية ، فأصغيت إليه حتى استوفى عرضه ، وآزره في ذلك بعض المتحمسين لهذا الاتجاه ، فلم يدع سببا يدعم رأيه إلا أدلى به على طريقتهم في الجدل المنطقي ، الذي يمتاز به رجال القانون بخاصة ، والمعنيُّون بالدراسات الإسلامية من شيوخ المسلمين في مدارس الهند وباكستان بعامة .. وكانت ركيزة البحث لديهم ما يتوهمونه من تخلُّف الأحكام الشرعية عن استيعاب أحداث هذا العصر ، التي تسايرها القوانين الوضعية خطوة فخطوة ... ولكن توفيق الله كان عظيما أن رددت الموضوع إلى أساسياته ، ثم رحت أكرُّ على ما توهموه حُجَجاً فإذا هي محض أوهام .. ثم جعلت أعرض لهم شهادات أساطين القانون الغربيين بفضل الشريعة الإسلامية وتفوقها على كل تشريع أرضي ، وذلك من خلال مؤتمراتهم العالمية التي عُقِدَ اثنان منها في فرنسا قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها ، وختمت هذه الشهادات بكلمة الأستاذ شبرل عميد كلية الحقوق في جامعة فيينا في كتاب له مشهور يقول فيها « إنَّ مِن الفخر للبشرية أن ينتسب إليها رجل مثل محمد ، وإننا نحن الأوربيين سنكون أسعد الخلق إذا ما وصلنا بعد ألفي سنة إلى المستوى الذي حققته شريعته قبل أربعة عشر قرنا » .

وأطرق القوم ناكسي رؤوسهم بإزاء هذه الشهادات ، يسجلها لمصلحة الشريعة الإسلامية هؤلاء الذين يحتلون بنظرهم مركز الاستاذية العالمية .. ثم تكلم أحدهم قائلاً : ومهما يكن من شيء فها هنا واقع لا يمكن تجاهله ولا الحيدودة عنه ، وهو أن كياننا التشريعي كله قائم على هذه القوانين الوضعية ..

وشكرت للمتكلم صراحته وقلت : إن هذا التساؤل ينطوي على جوابه بأفصح بيان .. ودعني أقدم إليك هذه الطرفة الصغيرة رجاء أن تجد من خلالها الحلّ المناسب إن شاء الله ..

يقال ان رجلا جاء بسيارة حجارة فألقاها في ساحة القرية الضيقة ، ونصب في وسطها سارية تحمل مصباحاً أحمر .. وجعل الناس يمرون ويتساءلون : لماذا وضعت هذه الحجارة المعوِّقة لحركة الناس ، فيجيب الرجل : لكي نرفع عليها هذه السارية .. فإذا سألوه : ولماذا رفعت هذه السارية ؟ .. أجاب لكي لا يصطدم المارة بالحجارة ! ..

وأنا أسأل الأساتذة المحترمين : ما الوسيلة المثلى لمعالجة هذه المشكلة ؟ .. فيجيب بعضهم : إزالة الحجارة .. دون ريب ..

قلت : وأنا أقول لكم إن هذه القوانين التي أُقحمت على حياة المسلمين هي نفسها تلك الحجارة .. والسبيل الوحيدة لإعادة الانسجام مع روح الإسلام هو إزالتها من وجودكم إلى الأبد ..

ولم يعد لأحد ما يقوله فسألت : هل بقي ثمة من مشكلة تتطلب حلاً ؟ .. وجاء الجواب : كلا .. لقد انتهى كل شيء ..

وانفضَّ الاجتماع على تفاهم ولله الحمد ، وقبل أن نغادر القاعة دعانا أحد المسئولين لزيارة مكتبة المحكمة .. وهبط بنا الدرج إلى البهو السفلي ، حيث شاهدنا واحدةً من أكبر المكتبات الخاصة بمؤسسة قضائية ، تحمل رفوفها عشرات من المؤلفات في موضوع القضاء ، معظمها باللغات الأجنبية ، وكثير منها من عيون التراث الإسلامي بالعربية وغيرها .

الإفطار الأخير :

كان الوقت قريبا من الغروب عندما غادرنا مكتبة المحكمة ، ولذلك اتجهت سيارتنا إلى منزل الشيخ عاصم ، صهر زميلنا في الجامعة الشيخ عبد الصمد الكاتب .. وعبرنا أثناء ذلك شارعا مجللا بأنواع الدوح ، وبإزاء أحد الملاعب الرياضية مررنا تحت لافتة كبيرة كتب عليها بالخط العريض (قذافي ايستديم) فاستغربنا أن يصل اسم صاحب (الكتاب الأحضر) ومبدع (النظرية الثالثة) إلى هنا .. ورحنا نضرب أخماسا بأسداس حتى كدت أرتضي التفسير القائل : إن كلمة (قذافي) هذه قد تكون مشتقة من القذف ، فيكون المراد بها على اللافتة إن ها هنا ملعب القذف .. والقذف قد يكون باليد كما يكون بالقدم ! ..

وملأ المدعوون قاعة الطعام لأن الأخ عاصما أبى أن يقتصر علينا نحن

الثلاثة ، فدعا معنا مدير المركز الإسلامي واثنين من موظفيه ، وعددا من الإخوة الباكستانيين ، اثنان منهم من أبناء الشيخ فضل الحق ، وواحد من فضلاء الشيوخ المعنيين بحديث رسول الله ﷺ وقد سماه عاصم عطاء ، ولعلها ترجمة عربية للاسم الأوردي الرائج (بخش) الذي منه انطلقت كلمة بخشيش إلى سائر أنحاء العالم .. ولا يفوتني أن أشير إلى أن الأخ عاصما من عرب فلسطين تخرج في جامعتنا ، وفي المدينة تزوج ابنة أخينا الشيخ عبد الصمد ، وقد ابتعث للدعوة إلى لاهور ، حيث عُيِّنَ مع مَبعوثَين آخرين للتدريس في كلية الأخ عبد الرحمن أزهر .. وكأنه أحب مساعدة زوجته بعد أن كثر بَنوها ، فضمَّ إليها أخرى من هذه البلاد ، وهكذا جمع عاصم بين هندية وباكستانية في بيت واحد ..

وقد ألح علينا الأخ عبد العزيز بن عقيل مدير المركز بالدعوة لإفطار الغد ، فكان عذرنا أقوى من سلطانه لأن يوم الغد سيكون موعد عودتنا إلى بشاور إن شاء الله .

إكرام لا يكافأ :

وتأخرت سهرتنا مع هؤلاء الفضلاء إلى ساعة متأخرة لم أعتدها ، ومع ذلك لم نكد نأوي إلى مقرنا في منزل الشيخ فضل الحق حتى بدأنا سهرة أخرى ، إذ وافانا الأخ عبد الرحمن أزهر ببعض الهدايا ، وكان مضيفنا الفاضل قد اتحفنا بهداياه الأخرى من قبل ، وكذلك أبى الإخوة أصحاب مصنع النسيج إلا أن يحمِّلونا بعض النفائس من مصنوعاتهم قبل مغادرتنا مضافتهم في فيصل أباد . ولقد أخجلني والله هذا الإكرام ، ولكن الشيء من مأتاه لا يستغرب ، وما أجد لديّ من شيء أكافىء به هذا الفضل إلا أن أقدم إليهم بعض مؤلفاتي مع بعض الحجاج ، علي أن اتبعها بالكتب التي أعدها عن رحلاتي في العالم الإسلامي ـــ بعد طبعها .

وبصعوبة دافعنا النوم القصير ، ونهضنا لتناول السحور ، ثم صلى بنا الشيخ عليّ مكتوبة الفجر ، ولم نلبث إلا ريثما ودعنا أهل الفضل ، وقد فاتنا وداع الشيخ فضل ، إذ كان مسافرا لموعد مع الرئيس في إسلام أباد .. ومن ثم أخذنا سبيلنا إلى بشاور .

روائع لو تمت :

ومرة أخرى أراني أتأمل معجبا في تلك الغابات من الشجر القائمة على جانبي الطريق ، وهي تؤلف عدة صفوف ـــ على الطراز نفسه الذي لاحظته في طرق الهند ـــ وطبيعي أن ليس لها من غرض سوى توفير وسائل المتعة للمسافرين كيلا يتعرضوا للملل . وعلى ضفاف نهر (أبا سند) المجاور لقلعة (قنطرة أتاك) تقوم استراحات زاهية يجلس عندها المسافرون ، فيستجمون ويأكلون ويشربون ، ثم يستأنفون أسفارهم الطويلة بعد التخفف من أثقال التعب والسأم ..

وفي المدن التي زرناها حتى الآن عيِّنات لا تحصى من هذه العناية ، أذكر منها تلك الشوارع الفسيحة المزدانة بأصناف الأشجار المزهرة ، والتي تضاهي أروع الشوارع في الحواضر العالمية . ففي بشاور نماذج من هذه الشوارع والميادين ، وفي راول بندي ـــ كما أسلفت ـــ شوارع هي مثال للجمال المتناسق .. على أن أبرع ما شهدته من هذه الروائع كان في القسم ـــ الذي أظنه جنوباً ـــ من لاهور ، حيث تستحيل الشوارع الرحبة جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، فتذكرك بشِعب بَوّان في شعر (المتنبي) . وقد خرجت من بومباي وفي حسباني أنها ذهبت بالحظ الأوفر من ذلك الجمال ، فإذا بهذه المنطقة تكاد تبزها ، لا بل إخالُها قد بَزَّتها ..

أما الحدائق العامة فأكثر من أن تحصى في كل بلد ، وكثير منها هَيَّأ للصغار كلَّ ما يسرهم من وسائل الترفيه والألعاب المختلفة ..

وليت شوارع باكستان قد خلت من المجاري الملوثة المكشوفة ، اذن لاستكملت ألوان الجلال والجمال ! .

حوادث السيارات :

وفي هذا الطريق الجميل ، طريق العودة إلى بشاور ، واجهنا العديد من حوادث السيارات ، من أهولها تصادم سيارة شحن مع حافلة كبيرة للركاب أدَّى إلى تحطم الشاحنة وبعثرة أجزائها بشكل غريب ..

وفي موقع آخر ، وكنا على وشك أن نعبر جسراً عالياً ، صدَمَنا منظر أشد هولاً ، ذلك أن شاحنة أخرى قد ضربت حافلة صغيرة ، وكأن سائق الشاحنة قد أُخذ على حين غرة ، فحاول تفادي الخطر ، فاندفع بقوة نحو

حافة الجسر ، فإذا الشاحنة تتجاوز السور في الطريق إلى قاع النهر ، الباعد قرابة العشرة الأمتار .. ولكن الله تداركها بلطفه ، فتدلى شطرها الأمامي باتجاه النهر وعلق جذعها بالسور .. فكان المنظر رهيبا وباعثا على العبرة في آن ! .

ولقد صادفت مثل هذه الحوادث كثرةً في الهند ، وتحدثت عنها في حلقاتها ، ولا أذكر إني رأيت شيئاً من هذه في الفلبين أو إندونيسية ، اللهم إلا تلك الحافلة التي أدركناها أثناء عبورنا مرتفع شلوتو في الطريق إلى جاكارتا ، وكانت رافعة جبارة تحاول إعادتها إلى الجادة .. ويغلب على الظن أن الضباب الذي كان يغطي الطريق هو المسبب لهذا الحادث ..

ومن حق هذا أن يذكرني بنظافة تركية وقبرس الإسلامية من أمثال هذه الأحداث .. فهل يدل ذلك على فروق في العقلية والشخصية بين طبائع الشعوب ! ..

وبعد ساعات ثمان بلغنا فندقنا في بشاور بسلام ولله الحمد ، وكان أجر السيارة حسب الاتفاق لا يزيد عن ستمئة روبية مقابل الأيام الثلاثة ، ولكن الشيخ علي على عادته لم يرض إلا أن يضاعف له فأعطى السائق ألف روبية ، وذلك غير ثمن القود الذي قارب الألف والمئتين ..

عقبات أخّرت الحسم :

وفي ضحى اليوم التالي ــ ٩/٢٧ ــ قدم إلينا الشيخ أحمد جل ليخبرنا أن القادة قد اجتمعوا في اليوم المقرر ــ السبت ٩/٢٢ ــ وأتموا مقدمات الموضوع ، وقد قدم كل منهم أسماء مرشحيه ومزكّيه ، إلا واحدا سمَّى بعضهم وسيسمِّي البقية .. وإلا الجيلاني الذي تأخر دون عذر . وأكد لنا الشيخ أن الأمور سائرة إلى خير بتوفيق الله ، وإن لم تخل الطريق من بعض العقبات .. كذلك أكد لنا أن اجتماع الخميس القادم ، وهو الذي ينتظر أن يتم فيه اختيار المقبولين من المرشحين لتأليف المجلس الأعلى ، قد يتأخر إلى ما بعد العيد .! ..

ومع أن سبب التأخير معقول فقد أحدث في نفسي بعض القلق ، لما كنت أرى من ضرورة التعجل في انهاء القضية ، سدًّا للذرائع التي لَمَسْتُ بعض

طلائعها .. يضاف إلى ذلك تلك الاشارة الخفيفة إلى (بعض العقبات) التي وردت على لسان الشيخ أحمد .. ولكن .. ما الحيلة ؟ .. ولا سبيل إلى تجاوز واقع العيد ، وما وراء العيد من أعذار إن علمنا متى تبدأ فلن نعلم متى تنتهي ..

وهكذا وجدنا أنفسنا تجاه وضع جديد أفرغ بقاءنا في بشاور من كل فائدة ، وأثار في الوقت نفسه أشواق الجميع لقضاء العيد بين الأهل وفي مدينة الحبيب ، التي لم يغب ذكرها عن ألسنتنا يوما ، حتى لقد أتممت فيها قصيدتي (من وحي المدينة) فارتفعت أبياتها من اثني عشر إلى ثلاثين ، فكانت لنا متعة وسلوى ، كلما جلسنا في الأماسي نستمع لكلماتها بصوت الأخ الشيخ علي مشرف المحرك لأعماق المشاعر ..

وبعد تداول للرأي في هذا الموقف الطارىء قررنا العودة إلى الأهل ، على أن نسطِّر خطاباً موجَّهاً إلى رجال المنظمات يشرح لهم رأينا واضطرارنا إلى العودة ، ما دام موعد الاجتماع القادم بعيدا وغير محدد ، ولهم أن يكتبوا إلى فضيلة نائب رئيس الجامعة بما يجدُّ لديهم وما ينتهون إليه ..

وبسرعة فائقة رُتب أمر السفر ، فتولى كل منا جانباً من العمل في إعداده ، وتوليت أنا كتابة الخطاب التالي ، الذي نُسِخَت منه عدة صور ، وسلمت إلى الشيخ شمس ليسلم كلا منها إلى صاحبها يداً بيد :



الخطاب الأخير

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الأخ المكرم ...

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد ــ فقد بلغنا ما قمتم به أثناء اجتماع السبت الثاني والعشرين من رمضان المبارك حيث قدم بعض الإخوة أسماء مزكيهم ومرشحيهم ، ولا يزال البعض الآخر عاملا في إعداد أصحابه .. وذلك عمل مبرور نسأل الله أن يجزل أجركم عليه ، وقد بقي ما تم الاتفاق بشأنه للاجتماع الثاني الذي كان مقررا موعده يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر نفسه ، وهو الذي ستتخذ فيه الاجراءات اللازمة لاستكمال مشروع الاتحاد ، ومن أجله أخرنا سفرنا بناء على رغبة الإخوة .. واليوم قد وصل إلينا أن أيام العيد ستحول دون مواصلة العمل فتضطرون لتأخير الاجتماع إلى ما بعد العيد .

لهذا وجدنا أن وجودنا طوال هذه الأيام لا يعود بشيء من الفائدة ولذلك قررنا العودة إلى المدينة لابلاغ معالي نائب رئيسها الدكتور عبد الله الزائد ما انتهينا إليه ، وفي الوقت نفسه ننتظر من فضيلتكم اعلامنا بنتائج مساعيكم والمراحل التي ستصيرون إليها في الاجتماعات القادمة ، ليكون فضيلة النائب ونحن معه على علم بالتطورات الطارئة .

وإليكم في ما يلي العناوين التي نرجو أن يكون الاتصال عن طريقها :ــ

(١) الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ــ معالي الدكتور عبد الله الزائد هاتف ٨٢٢٢٢٩٧

(٢) الشيخ محمد المجذوب ــ المدينة المنورة ــ ص ب : ٤٣ هاتف ٨٢٢١٨٠٥

(٣) الشيخ علي بن مشرف العمري خطيب مسجد قباء ــ المدينة المنورة ــ هاتف ٨٢٢٩٠٢٨

(٤) الشيخ عبد الله السنيور ــ المدينة المنورة ــ ص ب :١١٦٥ هاتف ٨٣٦٧٧٢٨

وبانتظار التفصيلات الواضحة والمطمئنة إن شاء الله نؤكد خالص احترامنا وتقديرنا لتجاوبكم الكريم الذي لمسناه لديكم ، سائلين الله تبارك وتعالى أن يحقق بكم وبإخوانكم الخير الذي نرجوه ويتطلع إليه مسلمو العالم ، وهو عودة الجميع إلى الصف الواحد تحت الراية الواحدة لتحقيق الهدف الأوحد ، الذي هو إعلاء كلمة الله بإقامة الدولة التي ننتظرها للإسلام بفارغ الصبر .

والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على عبده الصادق الأمين إمام المجاهدين وقائد الغر المحجلين القائل للمؤمنين : « يد الله على الجماعة ــ وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

٢٧ رمضان ١٤٠١ هـ .

مندوبو الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

(١) الشيخ محمد مصطفى المجذوب

(٢) الشيخ علي بن مشرف العَمْري

(٣) الشيخ عبد الله السنيور .

وقررنا أن نركب أول سيارة نظفر بها صغرت أو كبرت ، ووفق الله فاحتللنا مقاعدنا الثلاثة في حافلة على وشك التحرك باتجاه راول بندي ..

وكانت السيارة قد قطعت شوطا غير يسير عندما تذكرت ثيابي ، التي اختطفها الشيخان علي وشمس من المغسلة لينشراها على سطح الفندق ، رجاء أن ينالها بعض الجفاف خلال الدقائق التي تنجز فيها حسابنا ، وما إن سألت عنها حتى فطن الشيخ عبد الله إلى نسيانه مصحفي على نضد غرفته أيضا .. وهي النسخة التي تعبت طويلا في اثبات تعليقاتي على هوامشها ..

ولم يبق من أمل في أن تعاد هذه المنسيات إلا أن يتداركها الشيخ شمس ، أو يحفظها لنا مدير الفندق ريثما نكلف من يأتينا بها .

ويؤسفني أن أقول أنه كان أملاً خائباً ، لأن الجواب الذي وصلني من الرجلين أكد لي أنهما لم يعثرا بأثر لشيء منها ، وذلك هو المتوقع من خدم كان بينهم من يستوفي منا عن المكالمة مع المدينة مئة وخمسين روبية ، وهي ضعف التعرفة المقررة رسميا ، هذا مع كوننا لم

نبخل عليهم بـ (البخشيش) عقيب كل خدمة ، فضلا عن (البخشيش) الأخير ! ..

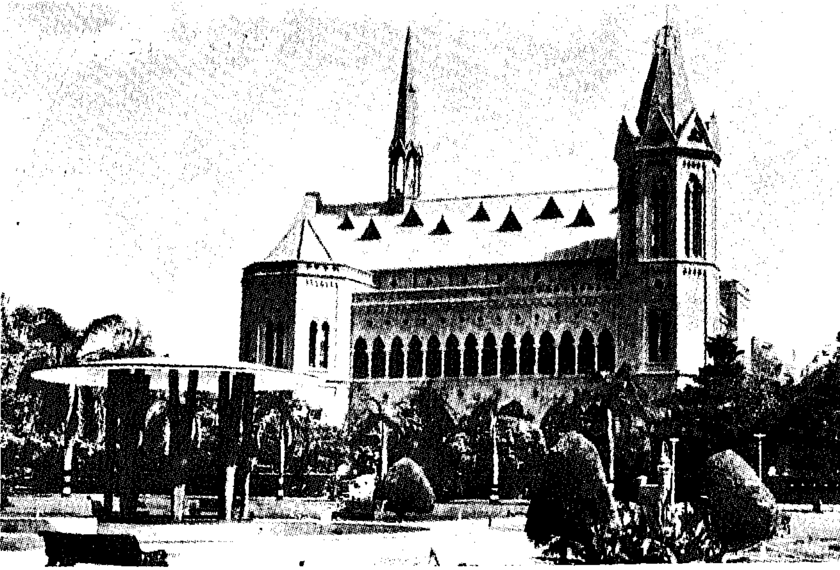
حديقة شالي مار

وعز علينا أن نفارق لاهور دون أن نشاهد حديقتها العالمية (شالي مار) التي يقال انها إحدى روائع العهد المغولي ، بل إحدى روائع الدنيا .

وكان الوقت أصيلا فخشينا أن تغلق أبوابها فيحال بيننا وبين زيارتها ، ولذلك أسرعنا بالسيارتين نسابق الزمن .. لكننا لم نبلغها إلا بعد انقضاء موعد الزيارات ، وقد أُغلق المدخل الرئيسي الكبير والآخر الصغير ، وكدنا نيأس من بغيتنا لولا اللغَطَ الذي سمعناه من وراء الباب ، فتقدم الاخْوان نحوه وجعلوا يخاطبون الحرس من خلفه على لسان السيد نعيم بن الشيخ فضل الحق ، مذكرينهم بأنا من إخوانهم العرب وليس لدينا من الوقت غير هذه الساعة ، لأننا على سفر .. وأبى اللطف الباكستاني إلا أن يستجيب لرغبتنا ففتحوا لنا الباب ، واندفعنا من خلاله شاكرين .

وأول ما يتلقاه بصرك منْ واقع هذه الحديقة سَعَتُها الهائلة ، وقد أدركنا ذلك قبل دخولنا من خلال سورها البعيد المدى ، فلما صرنا داخلها كان الخُبْر أكبر من الخَبَر ، لأنها ليست حديقة واحدة وواسعة فحسب ، كالشأن في الحدائق المألوفة ، بل إنها مجموعة من الحدائق ، فما إن تنتهي من الواحدة حتى تجد نفسك تلقاء أخرى بالحجم نفسه ، تهبط إليها على درج ، وتمضي خلال الثانية حتى إذا انتهيت إلى حدها الأقصى تَلَقَّاك درج آخر يوصلك إلى الثالثة .. وهكذا تظل تنتقل من حديقة لأخرى إلى آخر هذه الحدائق ، التي لم يتسع وقتنا لاستكشافها جميعها ولا لإحصاء عددها ..

وما إن تتجاوز المدخل حتى تجد نفسك أمام بركة تشق وسط الحديقة ، وتستمر حتى تنتهي إلى مبنىً ذي قباب ثلاث ، أشبه شكلاً بأقواس النصر الرومانية ، وهذا المبنى يشرف على بركة أخرى ذات قسمين ، صُفَّت حولهما المقاعد الرخامية المترفة ، وقد أعدت لتكون المستراح الذي يأوي



إليه الملك وأهله ، أو حاشيته وضيوفه ، كلما قادهُم التجوال في هذا المنتزه العجيب ..

وهناك على ضفاف هذه البحيرات البارعة ممرات رُصِفَت بقطع موزونة من الآجرّ ، ورُتبت على أشكال فنية غاية في الدقة ، وامتد بينها ما يشبه الجسور التي تساعدك على التنقل من جانب إلى جانب .. وعلى الرغم من الخراب الذي بدأ يعبث في بعض هذه الأرصفة ، فإن الذي سلم منها حتى الآن يعطيك صورة رائعة عن الذوق الفني ، الذي أحكم تركيبها وتنظيمها على الطراز نفسه ، الذي شهدناه في ممرات قلعة لاهور ..

وفي أرجاء البحيرات ، الحزينة على ماضيها السعيد ، تشرئب عشرات النوافير التي كانت تغذيها بالجديد من المياه ، ولا تزال شاخصةً متهيئة لاستئناف حركتها ، التي كانت ذات يوم متعة للناظرين والمحرورين ..

وما أراني بحاجة للكلام عن بدائع النبات الذي لا يبرح يكسو الأرض ، ويملأ الفضاء بأنواع لا تحصى من الشجر الكبير والعشب الصغير ، فذلك بعض ما يمتاز به هذا الجانب من أرض الله ، من أقصى الفلبين إلى آخر حدود باكستان ، حيث لا تكاد العين تقع على غير الخضرة والماء ، الذي جعل منه الخالق سبحانه كل شيء حيّ ..

كم تركوا من جنات وعيون :

وطبيعي أني لم أستوعب من وصف هذا المتنزه الامبراطوري إلا إشارات لا تغني عن التفصيل ، الذي لا أجدني قادرا عليه .. ولم أكد أتجاوز به اطار الصورة المصغّرة لواحدة من حدائقه المعلقة ..

ولقد اخترت لها صفة (المعلَّقة) لأنها توقظ في خيالي صورة تلك الحدائق التي حَمَلَت هذا الوصف من متنزهات بابل القديمة ، التي يسميها الجغرافيون الأُوَل (الجنائن المعلَّقة) ويعتبرها رحالوهم إحدى عجائب الدنيا السبع .. وما أحسبها استحقت منهم اسم المعلقة إلا لهذا الضرب من التخطيط ، الذي يجعلها أقساما يعلو بعضها بعضاً ، ولم يجعلوا منها أحدى العجائب إلا لما امتازت به من هذا التنسيق الشامل ، الذي جمع لها بين الشكل البارع والمضمون الرائع ..

ولكن .. ومرة أخرى أيضا أتساءل : ألم يجد أولئك المترفون ، في حياتهم المشحونة بمتع الدنيا ، فرصةً للتفكير في مآل قصورهم وحدائقهم ومجالي البهجة في وجودهم ؟ ..

ألم تتح لهم ، من خلال سدود الغرور ، فرجةٌ يُطلون منها على عالم الحقيقة ، ليعلموا أن كل ما شيدوه من هذه الآثار لا يعدو أن يكون ملاهي أطفال كبار ، وأن الآخرة وحدها هي دار القرار .. يوم يسمعون النداء الأعلى يهتف بالأولين والآخرين : لمن الملك اليوم ؟ .. لله الواحد القهار ..

أين المترفون من عالم الحقيقة :

ولم نكن في حاجة إلى دليل يقص علينا من تاريخ هذه المُنْشَأة ، لأن ذلك كله مسطور في تركيز شاف على اللوح المنصوب عند المدخل ، فطلبنا من الأخ ثناء الله أن يترجم لنا محتواه فكان كما يلي :

١ ـــ إن منشىء هذه المعلقة هو شاه جهان ، وهو حفيد الطاغية جلال أكبر ووالد الملك الصالح أورنك زيب ، وصاحب مشهد (تاج محل) في أكرا بالهند .

٢ ـــ وقد بُدىء إحداثها في الثالث من ربيع الأول من عام ١٠٤١ هـ /

١٠٥١ هـ . وانتهى إلى تمامه في السابع من شعبان عام ١٦٤٢ م/١٠٥٢ هـ . بعد سبعة عشر شهرا وأربعة أيام .

٣ ـــ وقد بلغ ما أنفق عليها ما يوازي ستمائة ألف روبية .. واستهلك وصلها بماء النهر مئتي ألف روبية .

٤ ـــ أما مساحتها فأربعون إكر . ولم ندر مقدار الإكر ، وفي لسان العرب الجديد إنه مقياس للمساحة في بعض البلاد ، وقد قدَّره أحد الإخوة بأربعة آلاف متر ونيف ، فيكون ذرعها أزيد من مئة وستين ألف متر مربع .

ولا حاجة للتذكير بأن ثمانمئة ألف روبية في ذلك العهد تكفي لانشاء مئة مدرسة ومئة ملجأ للأيتام والعجزة على الأقل ..

ولكن .. أين المترفون من رؤية ما تبصره العيون ! ..

وكأين من آية في السماء والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ! ..

ثغرة رهيبة :

ويقع بصري الآن على بقية من مذكرات الأيام الماضية وما أدري كيف غفلت عنها ، ولا أدري لها من مناسبة مع هذه المشاهد ، إلا أن كلا الموضوعين يتحركان في إطار واحد هو الحديث عن باكستان .. ولا بأس أن يكون مجال الأول صور الماضي ، ومجال الآخر صوراً من هذا الحاضر .. وقد كتبتُ في هاتيك المذكرات :

« في طريقنا إلى أحد المخيمات مررنا بذلك المكان الذي قيل إنه منطقة تابعة للقبائل الحرة ، وكانت قد وُصِفت لنا بما أغري في مشاهدتها عن كثب ، إذ قيل ان فيها حوانيت كثيرة تعرض مختلف السلع المهربة حتى المخدرات وبخاصة الحشيش ! ..

وكذلك علمنا من أخبار تلك القبائل ، بطريقة شبه متواترة ، أنها ذات سلطان لا سلطان للدولة الباكستانية عليه ، فهم يبيعون هنا كل شيء حتى الأسلحة على اختلاف أنواعها ، وبوسع أي زائر لهذه البقعة أن يحصل بالمال على أي قطعة سلاح ، وعلى أي مقدار من المخدرات ، ولكن عليه أن يتولى تسريبها إلى

مناطق الحكومة بوسائله الخاصة .. حتى لقد قيل لنا ان الإنسان قد يفقد حياته هنا دون أن تتدخل الدولة في شأنه ! ..

وعلى هذا فكثير من الأسلحة يصل إلى أيدي الجماعات المعارضة لحكومة ضياء الحق .. ومعنى ذلك أن تحت الرماد وميض نار ، يوشك أن يكون لها ضرام بين يوم ويوم .. وفي هذا ما فيه من الخطر على أمن باكستان ! ..

والذي أراه أن هذه الأوضاع لا ينبغي أن تستبعَد عند الكلام عن قضية الأفغان ومستقبل باكستان وما وراءها من أقطار المسلمين .. فغزاة الروس لا يمكن أن يجهلوا هذا الجانب ، وسيبذلون المستحيل لاستغلاله ، وبذلك تحول نقطة الزيت لهباً يحرق الأخضر واليابس[1] .

فلماذا تسكت باكستان عن هذه الثغرة الرهيبة ؟ .. وهل هي عاجزة عن ردمها .. أو أن ثمة رؤية سياسية بعيدة لا نحسن لها تفسيراً ؟ ..

نبأ عظيم :

أرأيت إلى الماء يتوارى في لون الإناء ، فلا تحسُّ له وجوداً ، فإذا صببت عليه دفقة جديدة اضطرب وراح يتصاعد حباباً متتابعاً حتى يفرغ طاقته على السطح ؟ .. كذلك شأن الخواطر ، قد تغيب في طوايا النفس حتى لا تلمح لها أثرا ، فإذا ما استللت منها خاطرة تحركتْ أخواتها ، محاولة اللحاق بها .. وهكذا تشدني أخبار هذه القبائل إلى خاطرة من نوع آخر تتصل بذكريات ﴿ رجال صَدَقوا ما عاهَدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبَه ومنهم من يَنتظر ، وما بدلوا تبديلا ﴾ .

إنها قصة واحد من هؤلاء الصادقين ، حدثنا بها الشيخ محمد يونس خالص أثناء تداولنا أخبار المجاهدين .

يقول الشيخ : لقد حَدث هذا في أول لقاء لنا مع العدو . كنا يومئذ

---

(١) وقد شاء الله أن يقع المحذور الذي خشيناه بأسرع مما توقعنا . وها هي ذي الأنباء تعلن أن المستعمر الروسي قد نجح في تحريك بعض هذه القبائل للخروج على الدولة الباكستانية . وفي الوقت نفسه تصاعدت الأنباء بمصادرة أطنان المخدرات الوافدة من هذه القبائل عبر قناة السويس ! .

سبعين رجلا وقد هاجمنا بمشاته وآلياته التي يحتمي داخلها جنود الروس .
وقد توزعنا أمكنتنا حسب الإمكان . وأثناء المعركة لاحظت رجلا يرابط فوق أحد التلال ولكنه لا يكاد يستقر ، فهو يهبط حينا ثم لا يلبث أن يعود .. وقد فعل ذلك عدة مرات .. وأعاننا الله بالغزير من المطر ، فاختلَّ نظام العدو ، الذي كان منتشرا بآلياته في بطن الوادي ، على حين كنا نحن معتصمين خلال الصخور والمرتفعات ، فما لبث أن ولَّى هاربا حاملا جرحاه الاثنين والعشرين ومخلفاً قتلاه الاثني عشر .. وقد علمنا نبأ النصر من دويٍّ التكبير ترتفع به أصوات رجالنا ، وقد حفِظَنا الله فلم ينلنا أي أذى ولله الحمد والمنة ، اللهم إلا واحداً من الإخوان قد أصيب في يده وبطنه ، وقدَّرت أنه هو الذي كان في أعلى التل ، فسألته : لماذا كنت تصعد وتهبط ولا تكاد تستقر ؟ .. فأجاب : لقد وقعت طلقة في يدي وبندقيتي فعطلتهما فهبطت لفقداني القدرة على العمل ، ثم تذكرت قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تُولُّوهم الأدبار . ومن يولِّهم يومئذ دُبُرَهُ إلا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضبٍ من الله ﴾ الأنفال .

فعدت إلى مكاني خشية الدخول في غضب الله ، وهناك تلقيت الإصابة الثانية في بطني ، فهبطت لأعالج جراحي ، ثم رجعت إلى مكاني مرة ثالثة ..

ويا لَروعة هذا النبأ العظيم ! ..

ولكم استصغرت نفسي وأنا استمع إلى خبر هذه الخارقة من عمل الإيمان في قلوب هؤلاء الأبطال .. وها أنذا أكتبها والدموع تترقرق في عيني ، وقد ملأني اليقين بأن الله ناصرهم حتماً بفضله ومنه ، وإذا تأخر نصره فبسبب سوء النية من بعض قادتهم ..

هدانا الله وإياهم سواء السبيل ..

وجبة تاريخية :

ثبت أن وصولنا راوول بندي كان قبيل الغروب ، فعلينا أن نتدبر أمر مبيتنا

وإفطارنا .. وفي يسر وجدنا الفندق ـــ الشعبي ـــ الوحيد في محطة الحافلات ، فلم نر مندوحة من اللجوء إليه . وأكرمَنا صاحبه فقادنا إلى غرفة ذات أربعة أسرة ، يكاد بعضها يدخل في بعض ، وتوقعنا أن تكون ليلة ممتازة بما تحتويه من ألوان المزعجات ، وحسبك منها تلك الكومة من قشور المانجو متجمعة في إحدى الزوايا تنتظر من يرفعها ، وما أظنها بمرفوعةٍ لولا أن لفتنا إليها نظر الرجل ! .. وحسبك دلالة على نوعية الفندق أن أجر هذه الغرفة لم يزد على خمسة وسبعين روبية للأسرَّة الأربعة .. ولا عجب فهو مُعَدّ للعابرين من المسافرين الذين لا يجدون السبيل إلى سيارة صغيرة يمتطونها إلى قلب المدينة .

ومضينا نبحث عن الطعام فلم نجد مطعما نرتاح إليه .. وبعد لأي عثرنا بواحد تبدو عليه ملامح القبول ، فالمقاعد جديدة ، والموائد مظهَّرة بالصفائح المضغوطة (الفورمايكا) .. وكفى بهذه الظاهرة دليلا على صلاحيته ! ..

وسألنا عن الطعام ، واستطلعنا أوانيه ، فلم نُلف ما يمكن استساغته ، ومع ذلك رضينا بالموجود ، وقلت في نفسي : لا بد لمثلي من أن يمارس مختلف أحوال الناس ، ليعرف واقعهم ..

واسترحنا على بعض المقاعد المعدة للزبائن على الرصيف المرتفع ننتظر موعد الإفطار ، ولكننا ما لبثنا أن انتقلنا إلى الداخل فرارا من منظر المجرى الأسود الذي يمر بحذاء الحانوت . وارتفع صوت المؤذن من خلال المذياع ، فأفطرنا على بعض الفواكه الرديئة والماء .. وانتظرنا غير يسير حتى جاءنا الطعام فإذا هو لونان في أربع صحاف صغيرة ، أما أحدهما فمن الكمأة ـــ البطاطس ـــ مع الطماطم فقط . وأما الثاني فحساء من الحنطة غير المسحوقة ، ولا أثر للحم في أي النوعين ، ولكن الفلفل اللاذع حل مكان اللحم .. وبعد ذلك جاءنا النادل الوسخ جدا ببعض الحليب مع السكر .. ولما فرغنا من الوجبة التاريخية نهضنا نبحث عن صنبور لغسل أيدينا ، فلم نجد سوى مغراف ورقاقة من الصابون ملقاة على الأرض .. وأخيرا قدم اليَّ الرجلُ منشفةً لا أتبين لونها فلم أستطع أن أمد إليها يدا ..

ولما سألناه عن مطلوبه لم يزد على ثماني عشرة روبية ثمن الطعام والحليب والخبز ، الذي كان أفضل ما طعمنا عنده ! ..

والشيء الذي خرجت به من هذه التجربة هو أن الفقير في هذا البلد لا يتاح له الحصول على اللحم حتى في رمضان ، فكيف يصل إلى الفاكهة وقد دفعنا ثمن الكيلو منها على تفاهتها ست عشرة روبية ! ..

وبعد عشر ساعات جاء الفرج :

وقبيل العشاء تمكن الزميلان من تأمين سفرنا إلى المملكة هذه الليلة بالطائرة السعودية ، التي قيل لهما ان موعد اقلاعها هو الساعة الرابعة .. فلم نتردد في الانتقال إلى المطار بعد أن سددنا أجر الغرفة كاملا .

وها نحن أولاء نمارس هنا في بهو المطار تجربة أخرى .. ذلك أننا لم نجد في هذا المطار الدولي الكبير جرعة ماء ، وكاد يدركني الفجر دون أن أبلّ ظمئي ، أو أكسر جوعتي لولا بعض الزبيب الذي كنت أحتفظ به لمثل هذا المأزق .. ثم جاء الأخ عبد الله يدلني على مطعم غير قريب ، أخذت منه كفايتي من الماء الذي لا مبرِّد له ، وتزودت منه بلفافة بسكويت ..

وكان الحر بالغا في قاعة المطار ، وليس فيها من الملطِّفات سوى المراوح السقفية فقط.. وبعد انتظار أكثر من عشر ساعات يسر الله وخرجنا إلى الطائرةُ ، بعد أن سددنا ضريبة المطار مئة روبية عن كل منا .

وها نحن أولاء في التريستار السعودية ، التي تحركت للإقلاع في تمام السابعة والنصف من صباح الخميس قاصدة الظهران فالرياض على بركة الله .. ويبقى رجاؤنا بالله وثيقا أن يسهل لنا استئناف الطيران من الرياض إلى المدينة في اليوم نفسه ...

إلى طيبة الحبيبة

وبعد توقف ساعة في الظهران ، حيث تم تفتيش الحقائب اليدوية يسر الله ، فارتفعت بنا الطائرة نفسها باتجاه الرياض .. وكنت قد تركت فيها غترتي ومراوح الخوص التي حملتها من بشاور ، ولما عدت إليها اتخذت مقعدا آخرا ناسيا إياها . وامتلأت المقاعد حتى لم يبق فيها خالٍ .. وبعد

وقت تذكرت الغترة والمراوح فلم أجد لها أثرا ، حتى إذا يئست من لقائها قَدِمت نحوي مضيفة شرقية ، يبدو من ملامحها وجِدِّيتها ومراقبتها أنها مديرة المضيفات ، فسألتني عمَّ أبحث فذكرت الضوائع ، فأشارت إليَّ فتبعتها إلى صندوق كبير ما لبثت أن فتحته ومنه أعادت اليَّ المفقودات ..

وفي الساعة الحادية عشرة هبطنا مطار الرياض ، وعجلنا إلى قسم الحجز للمدينة فلم نجد أملا ولا سبيلا .. وكان جواب المسئول الكبير عن هذا القسم أن ليس من مكان في طائرة السابعة والنصف ، وهي الوحيدة المتجهة إلى المدينة بقية اليوم ، ولكن علينا أن نحضر للانتظار بعد الخامسة ، وأصر على ذلك حتى سُقِط في أيدينا .. بيد أن فتى من مساعديه أشار إلى الشيخ عليّ بأن يأتيه في الثانية .. وفي هذا الموعد وافاه فكان الفرج على يديه ولله الحمد ، إذ حجز لنا ولغيرنا . وقد تبين لنا بعد الاستقرار في الطائرة أن المقاعد الخالية كثيرة ، ولكن الموظف الكبير ينكر كل شيء ، ليدع الناس نهبا للقلق عدة ساعات ، وفيهم المريض والضعيف وذو الحاجة .

وبفضل الله انتهينا إلى مطار طيبة الحبيبة قبيل العِشاء ، وعلى الفور اتصلت بالأهل أخبرهم بوصولنا ، وما هي سوى دقائق ثلاثين حتى وافى ولدي غسان بسيارته ، وفوجئت بأمه معه على غير توقع ، إذ كنت قد أنجزت لها اجراءات السفر إلى سورية قبل سفري إلى باكستان ... ثم تبين لي أن غسان قد أخرها لتسافر معه وأسرته إلى لندن لزيارة إياد وإباء ..

حوار حاد :

وفي نبرة جافَّة سألتني أم غسان : أين هي ؟ .. فلم أفهم ما تريد وسألت بدوري : وما هي ؟ .. قالت : الباكستانية التي ذهبت لتأتي بها ! ..

وأدركت للتوّ أن ثمة ألعوبةً نسجها أحد الأصدقاء .. فلم أزد على القول : إنهم يمازحونك .. ألا تذكرين لعبة القادري وزميليه عقيب عودتنا من الهند ؟ ..

وتدخل غسان قائلا : إن صديقك عبد العزيز مسلَّم ــ مدير الزراعة ــ هو الذي أكد الخبر ، وقد سمعته يتحدث به دون أن يعلم بوجودي ...

وضحكت ملء فمي .. وأنا أقول : كدت أقطع بأنه هو صاحب المشكلة .. وكم له من مثلها ؟ .. ولكن أم غسان ظلت على تصديقها الخبر ، وراحت تهدد وتُوعد بأنها ستسحق رأسها بمجرد أن تراها ..

والغريب في أمر هذه المرأة السبعينية أنها فيغمرة الغَيْرة تنسى أن صاحبها قد جاوز عهد الزواج ، ولو هو قد أراد لما وجد المرأة التي تريد .. ولا أذيع سرا إذا قلت : من أجل هذه الطبيعة الملتوية صغت الأبيات التالية :

هذي الحياة عجائب لا تنتهي ... أنَّى اتجهتَ بها وجدت عجيبا
لكنني بين الخلائق لم أجد ... لخلائق النسوانِ قطّ ضريبا
مُنِحَ الأنامُ العقلَ وهو مقوَّم ... ومُنِحْنَهُ من أصله مقلوبا

بركات المدينة :

وبلغت منزلي في قباء ، والناس لا يزالون قائمين بالتراويح ، فلم ألبث إلا ريثما أسبغت وضوئي وصليت المغرب المؤخَّر منفردا ، ثم انتظمت خلف الامام بنية العِشاء أولا ، ومن ثَم واصلت معه بقية التراويح ..

ولقد كان ذلك فضلا من الله عظيما ، إذ لم يحرمني بركة القيام في المدينة ولو لبضع ركعات من يوم يغلب علي الظن أنه آخر رمضان .. وكان المسجد كشأنه في أمسيات هذا الشهر الكريم ، وبخاصة آخر أيامه ، غاصاً بالمصلين صغارا وكبارا ، بدواً حضراً ، على صورة لا ترى عين مثلها في غير الحرمين المباركين ..

وشاء الله أن ينقضي ذلك الليل دون إشارة إلى ثبوت العيد ، فبتنا على نية الصيام ، وهكذا قدِّرت لي فرصة صيام يوم كامل من العشر الأواخر في البلد الحبيب ، وشاركت في التراويح الاحتياطية وراء الأخ الحافظ الشيخ حِلِّيت مسلَّم ، الذي اعتبر صلاة القيام خلفه من المُتع الروحية التي لا تُنسى لِما يميز تلاوته من وضوح الأداء ، وعذوبةٍ في النغم الخاشع ، وتلك اللهجة الحجازية التي لا تفوقها عندي أي لهجة قارىء آخر ، حتى أولئك الذين يستثيرون تكبير السامعين بما يُرجِّعون ويُطرِّبون ، طلبا للمزيد من عبارات الاعجاب ..

تقرير عن الرحلة :

وبعد عشاء ليلة العيد المبارك اتصل الشيخ علي بمنزل فضيلة نائب رئيس الجامعة الدكتور عبد الله الزائد ، فما ان علم بوصولنا حتى أسرع بطلبنا ، وكان ذلك خيرا ، لأنه كان على وشك سفر طويل ، فلخَّصنا له عملنا بصورة وافية ، تعرض له الأحداث التي واجهناها كأنه يراها .. وأكدت له أن العودة لمواصلة المساعي جِدُّ ضرورية ، سواء من قِبلنا أو من قبل وفد آخر ، على أن يكون هو على رأسه .. فاقتنع بذلك ، ودعانا أيضا لمواجهته في الجامعة عقيب صلاة العيد .. وكذلك فعلنا ، وبعد انتظار قليل في مكتبه ، حيث كان يستقبل المهنئين ، نهضنا معه إلى مسجد الجامعة ، وقد اجتمع فيه قرابة المئة من المشرفين والموظفين ، والعديد من الطلبة الذين تخلفوا عن السفر إلى بلادهم ، فألقى فضيلته عليهم كلمة رصينة فيها توجيه حكيم ، ومن ثم دُعي الجميع إلى الشطر الآخر من المسجد ،حيث مُدَّ سماط فاخر ، لم أمسَّ منه سوى بعض الفاكهة ، لأني كنت قد تناولت طعام الصباح على مائدة الأخ الشيخ عبد الحميد عباس ، وكان لوناً طريفاً يتألف من أطباق الهريسة المصنوعة من البُر واللحم ، وقد استهلكتْ جهود الطابخين والهارسين طَوالَ الليل ، حتى جاءت كالعجينة الناعمة .. وقُدِّمت معها صحاف المِلح والسكر ، فمن شاء غمسها بهذا ، ومن شاء خلطها بذاك .. وما أشبه هذه المائدة الكريمة بمائدة ابن جدعان التي يقول فيها ابن أبي الصلت :

إلى رُدحٍ من الشِّيزى مِلاَءٍ لبابَ البُر يُلبكُ بالشهادِ

فرحة لم تتم :

وتمضي الأيام ونحن نتطلع إلى هاتف أو برقية أو رسالة من بشاور ، تبشرنا بتحقيق الوفاق الذي جاهدنا من أجله ، أو تدعونا لاستكمال المجهود الذي ينتظر اللمسات الأخيرة .. ولكنه أمل يكاد يجف ، أو صيحة بدأت تتلاشى وراء الصمت .. حتى كان ذلك الصباح السعيد إذ دق جرس هاتفي ، وانطلق من خلاله صوت لم أسمعه من قبل يقول : أنا دكتور

عبد الحليم بن الشيخ أحمد جل أكلمكم من الكويت .. لأبشركم أن الوحدة التي سعيتم لها قد تمت ولله الحمد برئاسة الشيخ برهان الدين الرباني ...

وما كان أجملها من بشرى ! ..

ثم تلاحقت الأيام أيضا فإذا أنا برسالة مَن طالب أفغاني ودَّعته قبل أيام. يقول لي فيها : (بالنسبة لاتحاد المجاهدين فسيخبركم عنه بالتفصيل حامل هذه الرسالة ...) وقلت لحامل الرسالة : أبلغْ وأوجزْ . فقال : لقد انفصل الثلاثة .. عن الاتحاد ، وتركتُ بشاور أول أمس وهم مجتمعون في مدينة كوتيه لتحديد منطلقاتهم .. التي يقال إنها العمل تحت راية ظاهر شاه ...) .

وما أوجعها نِكسة ! ..

على أن غموض الموقف لم يجله خبر الطالب ، ولا يزيد بنظري عن كونه ضربا من التخمين الذي كوَّنه سوء الظن بالحلف الثلاثي ، كشأن بشرى الدكتور عبد الحليم جل ، التي لم تزد عن كونها واحدة من تلك الأحلام التي وصفها الشاعر الجاهلي بقوله :

مُنىً إن تكن حقاً تكنْ أحسن المنى   وإلا فقد عشنا بها زمنا رَغْـدا

وها نحن أولاء نستقبل اليوم في المدينة بعض الإخوة من كبار القادة ، وبينهم الأستاذ السياف ، فنسمع من أنبائهم ما يؤكد الفرقة ..

ثم يتلو هذا الوفد آخر فيه بعض أهل الفضل والعلم ، فكشف لنا عن جانب آخر منْ المشكلة ، إذ يرى أن الأمل قد كاد ينتهي من الجيلاني ، ولكنه لا يبرح قائماً بالنسبة إلى المجددي والنبوي ، اللذين يمتازان عن ثالثهما بالعلم والدين ، فلا يستبعد أن يخرجا قريبا من التردد إلى التزام الخط الإسلامي ..

وأعود إلى نفسي فأتساءل لم لا يكون هذا التمايز الحاسم هو الأفضل لقضية الاسلام في أفغانستان العزيزة ؟ !

أليس خيراً لجنود الإسلام أن يخلصهم الله من عناصر الهزيمة ، كما صفَّى جنود رسوله يوم أحد من عملاء ابن أبيّ بن سلول ؟ !

ولا أقصر قولي هذا على قضية المنظمات الأفغانية وحدها ، بل أطلقه حتى يعم العالم الإسلامي بأسره ! !

إن مشكلة شعبنا في أفغانستان هي نفسها مشكلة حكومات الوطن الإسلامي جميعا ، فالخلاف هنا هو نفسه الذي بين هذه الحكومات ، وفيها كما في هذه المنظمات ، الضالع مع أعداء الإسلام صراحةً ، والمتردد بين الإسلام وأعدائه ، والأقرب إلى منظور الإسلام ..

ولا جرم أن تعاون أهل الحق فيما بينهم أدنى إلى الإمكان ، وأجدى على الشعوب الإسلامية من سائر المحاولات التي تستهدف توحيد المتناقضين ، على اختلاف منطلقاتهم ، تحت راية الإسلام ..

وقد صدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ، ولأوضعوا خِلالَكم يبغونكم الفتنةَ ، وفيكم سمَّاعون لهم ، والله عليمٌ بالظالمين ﴾ ٩/٧ .

وأخيراً ...

لقد قدر الله ألا تُقدم هذه الكلمات للنشر إلابعد الوصول بقضية الاتحاد إلى غايتها الصالحة إن شاء الله . وها هي ذي جريدة (المدينة) تحمل في أحد أعدادها رسم الأستاذ السياف مع البشرى بقيام الوحدة المنشودة برئاسته .

ونعمت الخاتمة . ولله الأمر والحمد من قبلُ ومن بعد ..

مع أخينا الشمس :

كان من بين الذن تعرفناهم من جماعة أهل الحديث في بشاور ذلك الأخ الشيخ شمس الدين محمد أشرف ، وقد جعل يرافقنا في كل روحة وغدوة مترجما ودليلا ..

في هذا الرجل سمات قل أن تتوافر في واحد من الناس ، فهو أولا شخص خفيف اللحم ضئيل الجسم ، في غير قصر يذكرك بوصف ابن الرومي لنفسه حيث يقول :

أنا من خفَّ واستدق فما يُثْـ ـقلُ أرضاً ولا يسدُّ فضاءَ

وهو متحرك أبدا لا يكاد يعرف الهدوء حتى في الصلاة ، فاذا جلس

للتشهد لم يفتأ في هزَّة خفيفة يترنح بها ذات اليمين وذات الشمال ، كشأن إنسان سمع ما يروعه من آيات الله فهو يترجم انفعاله بحركة جسمه .

ولعل مردَّ هذه الحركة إلى نشاطه الذهني والعاطفي ، الذي يتفاعل مع كل مرئياته ، فلا ينفك سائلا أو ناقدا أو مناقشا ..

وقد آتاه الله ذكاء حادا واطلاعا واسعا ، وبخاصة في نطاق الحديث الشريف ، فهو يحاكم كل عمل يراه أو يأتيه على ضوئه .. أيا كان ومن أي جهة صدر .. وقد مكَّنه علمه بالعربية والبشتوية والأوردية والفارسية والبنجابية من توسيع ثقافته ، حتى لم يعد يكتفي باعمال لسانه وحده ، فعمد إلى التأليف ، وها أنذا أنظر في مؤلفه « مغيث المستغيث من أصول الحديث » فأقع فيه على نماذج من صبره العجيب على القراءة والتتبع واستقصاء الأدلة في الأعماق من مراجعها ومظانِّها ..

وقد بلغت مؤلفاته المخطوطة ، والتى لا ندري إذا كان يتاح لها الظهور إلى النور ، أزيدَ من عشرين بين كتاب ورسالة أكثرها في العربية ، وواحد في الفارسية ، وآخر في الأوردية ، وخمسة فى الأفغانية ـــ كما يقول ـــ .

وفي كتابه (مغيث المستغيث ..) فوائد ماتعة وتحقيقات نافعة قلَّما تجدها في كتاب واحد .

ولقد عرَّضه مزاجه لمواقف لا يحسد عليها ، منها واحد كسرت فيه أحدى ثناياه ، ومنها ما حدَّثَنا به من أن أحد الشيوخ النورستانيين قد نزل ضيفا عليه بعض الأيام ، وكان معه مؤلف في العقيدة يجمع له تقاريظ بعض أهل العلم ، فلما اطلع عليه وجد فيه تشدداً أكثر مما ينبغي ، فنصح له بالامتناع عن طبعه ، وأن يستعيض عن ذلك بترجمة كتاب (فتح المجيد) فأبى وأصر عليه بكتابة تقريظه ، فنزل عند طلبه وكتب له بعض الأسطر على طريقة التقاريظ الأخرى .. ولكن الكتاب لم يكد يصل بعد طبعه إلى أيدي خصوم أهل الحديث حتى ثاروا به ، وذهب جمهور منهم إلى والي بشاور يشكونه ويحرضونه عليه ، فبعث بطلبه وأحد اخوانه ، وهناك تلقاهما الوالي بسيل من الإهانات والتهديدات على اعتبار أنهما من مثيري الفتن ..

وأخيرا سأل الوالي شمس الدين عن بلده الذي وفد منه فأجاب ان مسقط

رأسه هو بلدة (ديري سوات) فقال الرجل : إذن نردك إلى بلدك لنكف شرك .. فماذا كان موقف شمس الدين بإزاء ذلك الإنذار ؟ .. لقد أجابه بكل قوة : لن أكون أول المنفيين ، فقد سبقني إلى ذلك رسول الله ..

وتابع : إنك تنفيني عن بشاور إلى ديري سوات وكلاهما من أرض الله ، أما أنت فسينزع الله كرسيك هذا من تحتك ، كما نزعه من بوتو وشاهنشاه وغيرهما ..

وتابع : إنك لا تصلح لهذا المنصب ، بل إنك لا تصلح أن تكون شرطيا عاديا ، لأنك لا تعرف مسئوليتك ، ولا تعرف معنى العدل . لقد كان عليك أن تسمع كلامي وكلام خصومي فتحكم أينا على الحق وأينا على الباطل ..

ماذا فعلت أنا لتسبني وتضربني وتسلط عليَّ جنودك ليصبوا عليَّ سياط العذاب ! .. ألأني قلت كلمة الحق ، وأعلنت حكم الله الذي أنزله من فوق سبع سموات ! ..

والعجيب أن الوالي قد انعقد لسانه تلقاء هذا التحدي العجيب ، فلم ينبس ببنت شفة ، واكتفى بالقول ان عليه أن يُعِد عدته للسفر ..

ولزم الشيخ شمس الدين داره عقيب الإفراج عنه عدة أيام ، وهو يتوقع أن يأتيه الشرطي بين ساعة وساعة لاخراجه إلى منفاه ، ولبث خصومه من المبتدعة يترقبون رؤيته وهو يساق إلى مصيره المقرر ، ولكن شيئا من ذلك لم يقع . وحفظ الله عبده المظلوم ، وها هو ذا يتابع عمله معلماً في المدرسة الأثرية ، ينشر كلمة الحق المصفاة من الشوائب ، ويمارس في كل مكان تطبيق منهجه (الحرفي) من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وانكار كل ما يتصوره شذوذاً عن السنة ، مهما كلفه ذلك من العناء والبلاء ..

ولقد راودناه أن يلازمنا للترجمة والدلالة ما دمنا في بشاور على أن نمنحه مثل مرتبه ستمئة روبية عن كل شهر ، بشرط ألا يفارقنا إلا بعد الإفطار . وشدَّ ما لقينا من شدته ، فهو لا يسكت عن أي تصرف من أحد يظنه مخالفا للسنة ، حتى طول مَنَامَاتنا إلى ما تحت الكعبين ، وعبثاً أفهمناه أن ثمة فرقا بين ثوب للنوم وثوب للسوق .. وقدَّمناه للصلاة بنا عقيب الإفطار ذات يوم فإذا هو يمد الركوع حتى ينهكنا ، ويطيل السجود حتى أكاد أُفرغ ما في

جوفي من الطعام ، وإذا عاتبناه في ذلك قال : أليس قد صلى رسول الله بمثل هذه ! .. ونسي أن رسول الله ﷺ صلى مثل هذه ودون هذه ودُوَيَن هذه ، حتى تظن عائشة أنه ربما لم يقرأ بفاتحة الكتاب .. فَلِمَ يأخذ بالأشد وأمامه كل ذلك التخفيف ، وبخاصة في مثل هذه الحال التي يكون فيها المصلي مثقلَ الجوفِ بالأطعمة ؟ ! ..

والنَّصَبُ لك إذا خالفت رأيه في أمر يظن أنه خلاف الأولى .. فيأخذ بسرد معلوماته مع ذكر مراجعها واحداً واحدا ، وإذا بقي منها شيء أَخَّره إلى الغد حتى يأتيك بتتمتها من مختلف المظان ..

وأنا لا أعرف في أي من الأصناف أضعه بعد ذلك ، أفي العبَّاد ، أم في الزهَّاد ، أم في المصارعين ! . وفيه من كل ذلك ملامح وآثار ! ..

لقد أسهم مع أخوين له في واجب الجهاد ، فترك أهله ومضى إلى ساحة القتال لأعداء الله من المحتلين الروس وأعوانهم الشيوعيين ، لا دفاعاً عن الأفغان التي هي موطن أسرته القديم ، بل ابتغاء وجه الله ، وتحقيقاً لأمره الحاسم في قوله العظيم : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله بأموالِكم وأنفسِكم ..﴾ فقضى قرابة الشهرين في رباط مستمر ، تخللته معارك هائلة استمرت قرابة الأسبوع بذل خلالها كل ما في طاقته للايقاع بأعداء الله ، حتى عرَّض نفسه للموت أكثر من مرة رغبة في الشهادة ، وكاد يظفر بها لولا ضغط إخوانه عليه ، ونزعهم سلاحه في بعض المواقع .. ولكنه مع ذلك لم يجد لنفسه أيعذر في السكوت عن أمر يراه منكرا .. حتى في ساحة القتال ، فلا يصبر على استغاثة بغير الله يرسلها مقاتل ، ولا يُخفي انكاره على آخر يحلق لحيته .. فيذكر ذلك بأن الله لا يقبل عملا يُشرَك فيه غيره ، سواء كان نبيا أو وليا أو ملَكاً مقربا ، وينبه هذا إلى أنه ما دام قد باع رأسه لله فلا ينبغي أن يقدمه خالياً من اللحية التي أكد رسول الله على إعفائها ..

وها هو ذا معنا منذ أسبوع حيث ذهبنا ، وفي مخيَّمات المهاجرين يترجم خطبنا ومواعظنا .. بَيْدَ أنه يفرغ على كل عبارة من كلامنا نفخةً يحس لفحَها كل سامع . إنه يتكلم بكل أعصابه وملامحه وجوارحه فيستقطب

الأعين والآذان ، وكثيرا ما رأيته يتوقف وهو يترجم كلامي ليخلص صوته من النشيج ، ويكفَّ دمعته عن الجري .. فإذا جاءت الصلاة وأُذِّن لإقامتها عمد إلى نعال المصلين فجمعها وجعلها في الجهة اليسرى ، وإذا سألته تعليل ذلك ردَّك إلى الحديث الذي يأمر به .. وعبثا تحاول إفهامه أن هذا خاص بالفرد دون الجماعة ، إذ قد يكون في الصف مئة مُصَلٍّ فيتعذر جمع نعالهم كلها في جهة واحدة .. والقاعدة في أمثال هذه الأحوال هي قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ .

ولئن نسيتُ سائر أحواله فما أحسبني بناس يوماً هيئته المميَّزة ، وفي يده أو معلقا في كتفه ، ذلك الجراب الذي قلما يفارقه في الفندق أو الشارع أو المخيمات ، أو في مقارّ الزعماء ، الذين نزورهم من قادة المجاهدين ، حيث يأخذ مجلسه على أحد المقاعد طاوياً إحدى ساقيه تحت فخذه ، أو قائما يترجم بيننا وبينهم ، وهو في ذلك الثوب الأبيض الهفهاف الذي لا يزيد عن سراويل باكستاني لا يتجاوز نصف الساق عملا بالحد الأدنى من السنة ، وقد أرخى فوقه ذلك القميص الشعبي الممتد إلى نصف الفخذين ولو عُرِض كلاهما في المزاد لا يباعان بأكثر من روبيتين مهما بلغت حاجة المشتري إليهما ! .

ومع ذلك فهو من الكرم بحيث لا يضيق ذرعاً بالمضيف يقيم عنده الأشهر ذوات العدد ، يعينه على ذلك زوجتان أدبهما الله بروح الوحي من كتابه وحديث رسوله ، حتى ليقول ، ونحن نتذاكر قصة المغافير وما وراءها من تواطؤ حفصة وعائشة رضي الله عنهما على رسول الله ، كَيداً لزينبَ بنتِ جحشٍ رضي الله عنها وغيرةً منها .. يقول : إني لأتعجب من إقدام هاتين الفاضلتين من أمهات المؤمنين على إزعاج رسول الله ، عندما أتذكر صبر زوجتيَّ وتعاونَ كلٍّ منهما مع الأخرى على طاعة الله ورسوله ، ورعاية مصالحي وطلب مرضاتي دون أن يقع أي خلاف بينهما ! ..

وذلك هو الجو السعيد الذي هيأه له الله برحمته ، ليفرغ إلى دعوته بكل ما يملك من المواهب وفيض الطاقة ..

ذلك هو أخونا ورفيقنا الذي أقدره ، وأعجب به ، وأدهش لنشاطه وقدرته

الجدلية ، الشيخ شمس الدين محمد أشرف المدرس في المدرسة الأثرية في بشاور ، والطالب في كلية الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية أخيراً .

من انطباعاتي في باكستان

هنا في استراحة الفندق عدد من الصور الفنية رسمت على ألواح من الخشب ، ونُصِبت على الجدار القبلي ، تمثل أجسام نساء على غاية من الرشاقة والأناقة بأحجامهن الطبيعية ، وهن يحملن جرار الماء في أوضاع مختلفة ، إحداهن منحنية تحاول رفع جرتها ، وأخرى قد رفعتها بعض الشيء ، وأخرى تتلوى لتضعها مكانها ، وهذه قد أقرت جرتها على رأسها ، وتلك على كتفها .. والأوضاع كلها مغرية للنظر ، وكأنهن جميعاً مرتديات نوعا من الساري الذي يترك على البطن مكشوفا ، وكل ثوب مؤلف من شطرين أعلى وأدنى ، ولكل لونه الخاص في تخطيط دقيق يمثل حتى أدق الثنايا التي تحدثها الحركة ..

إنها صور صبايا يحملن جرار الماء .. ولكن الفن قد ترك عليهن غلالةً من الغموض العجيب ، فليس ثمة وجهٌ واحد تلمحه صريحاً على هذه الأجسام البارعة ، وإنما هي رؤوس تعلوها الأقنعة ، ومع أنها لا تعدو حدود الرأس ، فالوجوه غائمة لا يبدو منها أي مَلْمَح .. فكأن ذلك الرسام قد أراد بعمله هذا تصوير مسلماتٍ ، ولكنه راعى فيهنَّ واقع الأدب الإسلامي من حجب الوجه وتغييب معالمه ..

وسألت رفيقيَّ عن رأيهما في هذه الصور ، فكان جوابهما أنها ليست من الصور المحرمة لغياب صورة الوجه عنها ..

وهما إنما يصدران حكمهما هذا من خلال حديث ابن عباس رضي الله عنهما من (أن الصورة الوجه) وذلك على الرغم من وضوح الدلالة في هذه الصور على النساء ، وبروز مفاتنهن الأخرى كأشد ما يكون البروز والإغراء من دقة الخصُور وتكوّر النهود ورشاقة القوام ، وغنج الحركات حتى لكأن كلا منهن تشير إلى نفسها بكل جزء منها ..

أما أنا فأرى أن مثل هذه التصاوير أدخل في الحرمة من تفصيلات الوجه ،

لأنهن يحركن كوامن الرغبة والتصورات الجنسية التي تثيرها المرأة أو صورتها الكاملة ..

ومن هنا ألتفت لأدلي بمفهومي عن فن التصوير وموقف الشريعة السمحة منه . فمعلوم أن ذوي المواهب الفعالة وحدهم هم القادرون على ممارسته والإبداع فيه ، ولهؤلاء تخيلاتهم وأحاسيسهم وانفعالاتهم ورغباتهم الصريحة والمكتومة ، وبها يوجهون الصورة الوجهة الخاصة بهذه المؤثرات النفسية ، ومنها يفرغون على مبدَعاتهم ما يترجم أوهامهم وتفاعلاتِهم ، فتخرج اللوحة من بين أيديهم لا لتمثل الإنسان أو الحيوان كما هو فقط ، بل لتعرض معه تلك المشاعر الذاتية المحركة لانفعالات الناظرين .. ومن هنا كان نظر الشريعة في تقديري إلى حظر هذا الضرب من الفنون ، لأنه يستهلك طاقات أصحابه في تهويمات لا مردود لها في حياة الإنسان ، سوى الإغراق في متاهات الخيال بعيدا عن صعيد الواقع ، فضلاً عن انفعالهم بسلطانْ الغرائز الهابطة ، التي تحرك أيديهم لابرازها في أجمل ما يملكون صنعَه من الأشكال .

وهكذا يصبح فن التصوير كفن الغناء والموسيقى استهلاكاً للمواهب المبدِعة في متاهة التهاويم ، الصارفة للإنسان عن مهمته العليا فى هذه الحياة ، مهمة إقامة الكيان الحضاري الأكمل ، الذي تستخدم فيه المواهب البشرية لتحويل كنوز الكون إلى إبداعات ، تدفع بالإنسان المؤمن إلى الأفضل فالأفضل من الصالحات ، حتى يكون كل شيء في أرض الله موجها إلى طاعته ، مسهماً في بناء المُثُل العليا التي تحقق للإنسانية هدفها الأسمى والأقصى ، الذي حدده الخالق الحكيم بقوله الخالد الكريم ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

ويومئذ تأخذ هذه المواهب طريقها الحق في تحويل المادة — على تَشَعُّب عناصرها — إلى منظومة عبقرية تشع بالخير والسعادة والجمال ..

وفي هذا التقدير يستوي في رأيي النحت والتصوير ، وسائر أنواع هذا الفن مما تعمل فيه اليد والموهبة جميعا .

وفي ضوء هذا المفهوم ننظر إلى النوع الآخر من الرسم الذي لا تشارك فيه اليد والموهبة ، إنما يتكون من احتباس المنظور بمجرد تلاقي الورق ذي

الحساسية الكيماوية مع الضوء ، وهو ما نطلق عليه اسم التصوير الفوتوغرافي ..

أنا أعلم أن كثيرين من كبار علماء الإسلام قالوا بإباحته ، وكثيرون منهم قالوا ، ولا يزالون يقولون ، بحرمته ادخالاً له في حكم المصوَّرات المحظورة .

وأنا مع تقديري لتفكير كلا الفريقين وإخلاصهم في معالجة الموضوع ، كل من زاوية مفهومه الخاص لأحاديث التحذير من التصوير ، أحب أن أستقل بمفهوم ذاتي أعرضه للمناقشة ، ولست حريصا على تأييده ، وإنما الهدف هو أيضاح الأمر على ضوء من حكم الله ورسوله دونما سبب من شبهة ولا هوى .

فلنتساءل أولا عن مدلول كلمة الصورة أو التصوير والمصور في لغة العرب ، وهي التي وردت في شأن النوع المحرم في الكلام النبوي . ففي صحيح البخاري « إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون .. » وقد روى ذلك الأعمش عن مسروق عن ابن مسعود ، بمناسبة رؤية مسروق تماثيل في دار يسار بن نمير .. ويوضح نوع هذه التماثيل ما ورد في مسلم عن أبي الضحى بما يؤكد أنها من نوع المنحوتات لا المدهونات ، ومن ثم تتابع الأحاديث في هذا الموضوع ، وكلها منصبّ على تحريم التصوير[1] .

والحديث الصحيح هو المصدر الوحيد بحَظر التصوير وتهويل العقوبة على فاعله ، ثم يأتي الكتاب الحكيم مؤكدا ذلك بعموم قوله تعالى ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

ولننظر الآن أولا إلى مدلول لفظ التصوير في القرآن الكريم : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ ويفسر معنى (يصوركم) هنا قوله سبحانه في مكان آخر : ﴿ خلقناكم .. من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ ولا خلاف على أن المراد بالتخليق هو إبراز أوائل الملامح في المضغة من مواضع العينين والأنف والأذنين ، وما إلى ذلك من السمات المميزة المحدودة .

---

(١) انظر (فتح الباري) ج ١٠ ص ٣٨٢ ط السلفية .

وقد جاء في (لسان العرب) عن مادة : (صَوَرَ) ما ملخصه :

(صاره ــ يصوره ــ صورا ، وصاره ــ يصيره ــ صيرا ، وأصاره : أماله ، وصارهن : قطعهن وشققهن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فصُرهن إليك ، أي أَمِلْهن نحوك ، أو قطِّعهن وشقِّقهن .. ﴾ والصَّوَر محركا الميل .. وصَوْرا النهر شطاه ..) .

فالمادة مبنية على الإمالة والشق والقطع ، وإنما سُمِّي شَطَّا النهر ونحوه صَوران لانشقاقهما وانقطاع بعضهما عن بعض ..

وفي اللسان أيضاً قوله تعالى : ﴿ صوركم فأحسن صوركم ﴾ : قبل نفخ الروح ، إذ كانوا قبل ذلك نطفا ثم علقا ثم مضغا ، ثم صورهم تصويرا .. ومفهوم ذلك أنهم في مراحل ما قبل التصوير إنما كانوا أشياء أخرى يمتاز كل منها عن الآخر بصفات مخصصة لنوعه دون أن تظهر فيها سمات الإنسان ، وإنما تأتيها هذه السمات بفعل التخليق الذي هو إمالة بعض من هنا ، وقطع بعض من هناك ، وشق آخر هنا وهناك ، حتى تتكون الصورة الدالة على الجنس البشري .

ومن ذلك ما ورد في الحديث من أنه تعالى خلق آدم على صورته ، أي الشكل الذي قدره له فميزه به عن سائر أجناس المخلوقات ، وفي هذا المعنى رد على التخرصات الدارونية ، التي تزعم عبور آدم بمراحل زمنية وشكلية صارت به أخيرا إلى صورته الممتازة ، لأن الحديث يعني أن أبا البشر وجد منذ الجبلة الأولى على الصورة الكاملة نفسها التي ورثها نسله . وهنا أذكر أني قلت ذات يوم للدكتور مصطفى محمود ، وهو المتشبث بذيول دارون : لو صح ما يزعم صاحبكم في أصل الأنواع وتطورها لوجب القول بتعدد أصول الإنسان حتى يكون آدم أوادم ، كما يزعم قبلكم أعمى المعرة بقوله :

وما آدم في مذهب العقل واحدا ولكنه عند العقول أوادم

فسكت الدكتور يومئذ ولم يحر جوابا ، ولعله اقتنع فأقلع إن شاء الله ..

ونعود إلى الكلام في اللغة .. فلقد جاء في اللسان تفسير التصاوير بالتماثيل فقال (التصاوير التماثيل) فالتماثيل المنحوتة ذوات الملامح المبرزة

صور وتصاوير ، وكذلك رسوم الأحياء التي عمل فيها الفن حتى يتصور الناظر أنها تعبر عن أعماق الذات ، فتسمى صورا وتصاوير) ..

وقد اكتفيت من المعاجم اللغوية بلسان العرب لأنه خلاصة لعدة من مصنفات كبار اللغويين ، فضلا عن كونه موسوعة من الأدب والفقه أيضا ..

وبقليل من التأمل يتضح للمفكر الصافي الذهن أن اسم (الصورة) خاص بما تنطوي عليه مادتها اللغوية من معاني التسوية والإبراز والتحويل ، وهي جميعا تؤكد حصول ذلك كله بفعل مؤثر في أصل الشيء الذي يراد تصويره ، وذلك بتسويته من هنا ، وتعديله من هناك ، وتحويل بعض معالمه هنالك .. حتى يكون شيئا معينا وفق إرادة الصانع .. فصانع الصورة يأخذ مثلا حفنة التراب أو نحوها فيجعلها طينا أو كالطين ، ثم يشرع في تسويتها على النحو الذي يريد ، ويجري عليها سائر الأعمال التي تتم تحويلها إلى شيء خطط له .. ولهذا الصانع أن يرتب أمرها على النحو الذي قدَّر ، فيجعلها مشابهة لكائن في الطبيعة أو يضفي عليها من فنه ما يزيد عليها شيئا أو أشياء ، بحيث يغلّب بعض الملامح على بعض ، حتى تؤدي المعنى الذي يشاؤه ، فتأتي في النهاية مشبهة المثال الطبيعي ، زائدا عليه الجوانب الأخرى التي أضافها إليها عن طريق الألوان والأشكال .. وفق التصميم الذي خطط له . وكل أولئك دون ريب من خصائص النحت والتصوير اليدوي الذي يتسابق في ميدانه ذوو المواهب الفنية والخيال المديد . ويظل الرسم ـــ الفوتوغرافي ـــ في معزل عن هذا كله ، لأن كل أثر العامل فيه مقصور على حبس الظل المنعكس من الزجاجة ، بطريق الورق ذي الحساسية الكيماوية . وليس بوسع أحد الزعم بأن لصاحب الجهاز الظلي أي أثر في توجيه ملامح الرسم بزيادة أو نقصان ، أو إضافة تؤثر في خيال لناظر ، فتوقظ في وهمه مدلولا خاصا يقصد إليه الراسم ـــ سواء من المحزنات أو المضحكات ـــ فإذا صح هذا التعليل خرج الرسم الظلي من نطاق التحريم ، الذي يظل عند حدود النوع الآخر ، الذي عليه وحده تنطبق مواصفات التصوير المحرَّم .

على أن هذا الرسم يخضع لحكم التحريم في حالة واحدة ، هي أن

يُستعمل في رسم المحرمات كمشاهد الفجور أو المؤدية إليه ، وكعرض رسوم المحارم والأجنبيات لأعين الأجانب ، وذلك في معارض الرسوم ، أو الغرف المعرَّضة لأعين الزائرين .. وعندئذ يكون التحريم منصباً لا على فن الرسم ، بل على الحالة غير المشروعة التي استعمل فيها الجهاز ..

هذا ولا مندوحة للباحث في موضوع التصوير من أن يستحضر استثناء رسول الله ﷺ من محرمات الصور ذلك الضرب الذي حدد ، بقوله « إلا رقماً في ثوب » وهو من حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم عن أبي طلحة . والرقم هو النقش ويدخل فيه سائر أنواع المرسومات ، إلا ما حرمه الشرع مما يراد به التعظيم ، أو ينطوي على معان يرفضها الإسلام ، كالذي يفعله بعض الجهلة من ارتداء ثياب عليها صور الرقعاء من الممثلين والرقاصين والزعماء ..

ويحضرني الآن نوع آخر من الصور لا عمل للإنسان فيه . ذلك الذي ينطبع على الصمغيات في لحظات معينة وعلى نوع بعينه من الصموغ ، إذ يلتقط ما يواجهه من شخوص أو أشياء ، ثم يتحجر ، فإذا تلك المشاهد ماثلة في صميمه لا تزول إلا بإتلاف الجسم المتحجر نفسه ..

وطبيعي أن هذا الضرب من الرسم الناشىء بغير سبب بشري قد يعكس المباح والمكروه والمحظور ، فهل من قائل بتحريمه أو اقتنائه إذا خلا من مشاهد العري أو الفجور وما إليه ؟ ! .. وإذا كان الجواب بالنفي فلم لا ينسحب حكمه على الرسم الفوتوغرافي الذي لا يختلف عنه بشيء ، من حيث كون كل منهما نوعا من احتباس الظل لا أكثر ولا أقل ! ! ..

وعلى ضوء هذا الفهم ، الذي أرجو أن أكون مثاباً عليه بفضل الله ، أنظر إلى الرسوم الموضِحة لدروس العلوم وتعليم العربية ، وبخاصة لغير الناطقين بها ، فها هنا يصبح استعمال الرسم من الأمور الضرورية التي لا عذر في استبعادها . ومعلوم عند ذوي التخصص التعليمي أن للرسم الإيضاحي فاعلية هامَّة من شأنها اختصار الوقت وتثبيت المعلومات ، وفي نطاق تدريس العربية لغير العرب تصبح الضرورة أشد لأن ما يفهمه الطالب من المفردات عن طريق النظر أضعافِ ما يمكنه فهمه عن طريق السمع وحده .. وإذا كان ما

يعين على تحقيق الواجب يدخل في حكمه ، فاستعمال الرسم التوضيحي لتعليم العربية ، التي هي لغة الإسلام ، من الأمور التي تدنو من مرتبة الواجب .

وأخيرا فهذه خاطرة ترددتُ في كتابتها طويلا ، ثم رأيت أن أضعها بين يدي أصحاب الفضيلة علمائنا الأجلاء ليروا رأيهم فيها فإن أحرزت رضاهم بموافقتها لأمر الله ورسوله فهو الخير الذي أردت ، وإلا فإني ولله الحمد من الذين يؤثرون الحق على أنفسهم ورغباتهم لمرضاة الله وطاعةً لرسوله ، ولا سيما بعد أن قيد الله سبحانه الفوز العظيم بطاعته ورسوله في قوله الحاسم الحكيم ﴿ .. ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ .

بعض آثار المؤلف

ىر — شعر الديوان الأول
ـ قلب — شعر الديوان الثاني
ـت الجيل في ضوء الإسلام
من الوحي
تحليلية في القصة القرآنية
إسلامية
ـ في المرأة والمجتمع
ـ من القلب

كلمات مضيئة
مشاهد من حياة الصِّديق
أضواء على حقائق
علماء ومفكرون عرفتهم ج .
ذكريات لا تنسى من الفلبين
وأندونيسية وتركية وقبرص
مشاهد وتأملات في ربوع الهند
مع المجاهدين والمهاجرين في باكستان
تحفة اللبيب من ثقافة الأديب

(الرحلات الثلاث في العالم الإسلامي)

مجموعات قصصية

ـن أجل الإسلام وحواريات أخرى
ـيات الثلاث
ـل إلى النار وقصص أخرى
ـص لا تنسى من مجتمعنا
ـص لا تنسى من تاريخنا
ـاء وأشلاء وقصص أخرى
ـل من الصعيد وقصص أخرى

قصص من سورية
قصص لا تنسى للشباب والطلاب
الألغام المتفجرة وقصص أخرى
اللقاء السعيد وقصص أخرى
صور من حياتنا
قصتان من الماضي

يظهر قريبا إن شاء الله

علماء ومفكرون عرفتهم ج ٢
خواطر ومشاعر

ألحان وأشجان : شعر
أدب ونقد